محمد عنانى

حكايات الواحات



حكايات الواحات

الإخراج الفنى والغلاف

أميمة على أحمد





تصـديـر

هذا هو الجزء الرابع من واحات العمر، وهو يختلف عن الأجزاء الثلاثة الأولى من السيرة الذاتية الأدبية فى أنه لا يتضمن رصـدًا لأحداث الحياة الأدبية أو غيرها بل يتناول قصـصًا أو حكايات بالغة التنوع، أدبية وغيـر أدبية، ساهمت فى تكوين بعض خـيوط الأفكار الأساسية التى نُسجت منهـا تلك السيرة، وقد قسمتُها إلى خمـسة فصول يتداخل بعضها فى بعض، فـالأول يتناول مفهوم 'الأقنعة' وتغلغله فى حيـاتنا ، والثانى يتناول خيطًا آخر هو التـفكير بمنطق 'الأبيض والأسود" ، والثـالـث فكرة 'الدائرة' وتداعياتها على عدة مسـتويات، والرابع معنى 'الوعى" -سلبًا وإيجابًا - والخـامس معانى 'القوة' والفرق بينها وبين 'القدرة'، وهى خيـوط تنبع إذن من الحكايات، أو قل إن الحكايات المتشابكة هى التى أوحت بها، ومن ثم فهى متشـابكة مثلها، ولذلك فإن التقسيم يبدو تعسفيًا إلى حـد ما، فالحكايات يمكن تفسيـرها فى إطار أى من هذه الخيوط الفكرية، ويضم النسـيجَ العامّ إطارٌ أدبى لم أتـبيّنه إلا آخـر الأمر، وهو مـدى انشغـالى بالشعـر الرومانسى، وخصوصًا بالشاعر وليم وردزورث الذى كـتب سيرته الذاتية شعرًا، وكتب قصيدة خاطرات الخلود' قُبيل تلك السيـرة وبُعيدها، ولقد ترجمت منها فـقرات عديدة قد تستطيع أن تقول ما لم أقدر على قوله ثم أدرجت النص الكامل أخيرًا .

ومن الطبـيعى فى مـثل هذه الحكايات ألا تلتزم بتـسلسل زمنى، فإن لـها منطقـها الخاص، وبعضها يبدأ قبل الحد الزمنى **لواحات العمر** وينتهى بعده، وبعضها له 'أبطاله' الذين يعـيشون بيننا، وكـان من الطبيـعى إذن أن أخفى أسـماء البعـض أو أبدلها أو أبتسرها كى لاأَمَسَّ 'سمعة' أى منهم، فالهدف من روايتها هو المعنى لا الحدث نفسه

وبعد فأرجو أن يجد القارئ فـى الحكايات بعض التسرية ، وبعض الأفكار ، فهذا جل ما يتمناه الكاتب .

والله من وراء القصد

محمد عنانى

القاهرة فى ٢٠٠٢

تمهيـــد

الزمن لا يتوقف ، والدائرة صورة الخلود ، والخلود فى الأرض وهم ، ولكننا ندور فى دوائر ، ونستقى من الدائرة معنى الاستمرار ، فعندما يعود الربيع يشرق الأمل من جديد فى كل نفس ، وعندما يصبح الصباح يصحو الأمل ، ونتطلع إلى تباشير النور فى الشرق فنشهد ميلاد الغد الذى أصبح يومًا جديدًا ، ولكننا لا نطرح مع الأمس الذاهب أثقاله ، ولا نتحرر من قيود الزمن أبدًا ، بل نواجه المستقبل بقلب الماضى وروحه ، فما يكاد الإنسان ينتبه من غفوته ويُصلّى لله شكرًا على نعمة الحياة واستقبال يوم جديد حتى يواجه الماضى من حوله وفى نفسه، وهو الماضى الذى يحمل صورة ما كنا عليه وما نرغب أن نظل عليه ، غير واعين بأننا قد تغيرنا ، بدنًا ونفسًا ، فنحن نريد الاستمرار ، مدفوعين بطاقة لا ندرى كنهها ، فنقاوم التغيير فى كل ما حولنا وفى نفوسنا ، ونحاول وَصْل ما انقطع ، وما أندر من يدركون أن ذلك محال ، إذ تصبح طاقة النفس أكبر من طاقة البدن ، ويصعب على المرء أن يقبل ما صار إليه من ضعف ووهن ، فيذكر ما فات ومات ، ويتأسى على ما مضى وانقضى ، ويحسد الشباب على ما أوتوه من قوة ، وقد يسترجع البعض صورًا من الماضى يتسرّى بها ويتلهىّ ، وقد يجد فى الأجيال الجديدة صورًا لما كانه يومًا ما ، وقد يندم أحدهم على ما أنفق فى حياة أصبحت خاوية على عروشها ، وقد يتمنى غيره أن يرجع فيعمل صالحًا ، وقد يجد أن نفسه تتنازعها قوى الماضى والحاضر ، وبعضها قوى وهمية أو صور زائفة ، تغيرت فى ذاته على مر الزمن ، وإن ظل بعضها واضح المعالم جلىّ القسمات ، بارز الخطوط حافلاً بأدق اللمحات ، وقد تقتضى زيارة هذه الواحات الزمنية بذل جهد لا يقوى عليه الكثيرون ، إذ ما أكثر ما تتغير صورها وتتبدل داخل النفس ، وما أكثر ما يعتورها من نقص وما يُضاف إليها من معان ، ولكن الزيارة تؤكد لمن أشرف على نهاية المضمار وطال الشوط الذى قطعه أن الزمن واحد وأن القطار لا يتوقف عن المسير مطلقًا وأبدًا ، فكأنما يسير فى دائرة هى السرمد أو الخلود .

وكنت حاولت فى زياراتى السابقة **لواحات العمر** فى مصر أولاً وفى **الغربة** ثانيًا ثم فى **مصر** أخيرًا أن أنقل إلى القارئ هذا الإحساس بالاستمرار ، مهتديًا بقول القائل إن صورة الإنسان لنفسه محض ذكرى - أو كما قال الشاعر وردزورث

(Yet each man is a memory to himself)

(**The Prelude**, 1805, iii, 189)

فوجدت أن ذكرياتى هى ذكريات جيل كامل من الأساتذة الذين أعقبوا جيل الرواد فى دراسة الآداب والفنون ، وتهيأ لهم ما لم يتهيأ لأسلافهم من معارف جديدة ، وعلوم وفنون حديثة ، مع التوسع هنا فى معنى الجيل بحيث لا يقتصر على الحدود الزمنية ، فبعض أفراده ولدوا فى الثلاثينيات والبعض فى الأربعينيات من القرن العشرين ، والجيل الذى سبقنا ولد بعض أفراده فى العقد الثانى والبعض فى العقد الثالث ، وأما الرواد فكلهم ممن ولدوا فى القرن التاسع عشر . كما رأيت أن ما رويته قد مس عصبًا عاريًا - كما يقولون - فى نفوس بعض أبناء جيلى ، وتقبله أبناء الجيل الجديد (مع التوسع فى معنى هذا الجيل أيضًا) بقبول حسن ، وأحسست مما كتبته الصحف عن الأجزاء الأولى أن **السيرة الأدبية** التى قصدت إليها قد تحولت فى عيون الكثيرين إلى صورة أدبية **لسيرة ذاتية** ، والفرق واضح بين النوعين الأدبيين ، وقد يكون النقاد على حق ، واحتمال الاختلاط قائم ، وغدا البعض يسألنى كيف تتجاهل رواية كذا وكذا فى عام كذا وشهر كذا ، وهى من الأحداث المهمة لك ولجيلك ، أو كيف تهمل الإشارة إلى ما يهم الجيل الجديد من دروس فى حرفة الأدب التى فضلتها مثلاً على تعاطى الطب وهى مهنة أبناء أسرتك وأصهارها (الجارم وبدر الدين) ؟بل إن أقرب أصدقائى إلى قلبى لم يجدوا فى السيرة الأدبية بعض الواحات التى نعموا فيها أو شقوا بالعيش معى ، ولامنى البعض على التوقف عند سن التقاعد (المعاش) الذى وصفته بأنه نهاية 'العمر الرسمى' فى مصر ، فوجدتنى بعد أن توقفت أرجع إلى تلك المسيرة الطويلة الحافلة ، ووجدتنى أعود لزيارة واحات هجرتها فيما هجرتُ من سوالف الأيام ، والتطلع إلى 'لوحات' ما تزال نابضة الحياة ، بعضها قصص اكتملت وبعدها قصص ناقصة ، ولكنها لوحات أجد فيها التأسّى لما أنا فيه ، ولما نحن فيه ، بعد أن تغير العالم حتى ما نكاد نعرفه - نحن أبناء هذا الجيل - بل ونكاد ننكره .

ولن أتقيد فى رسم هذه اللوحات الحية أبدًا - أو فى حكاية هذه الحكايات - بسياق زمنى ، بل سأتنقل بحريّة بين الماضى والحاضر ، ضاربًا فى دروب الزمن ما شاء الله لى أن أضرب ، مهتديًا بالصور التى لا تزال تعيش فى وجدانى ووجدان الكثيرين من أبناء جيلى ، ساردًا لأحداث تغيّر معناها أو تأكد على مرّ السنين ، ولكنها لوحات معاصرة لأنها تحيا فى الوعى ، وقد يُظن هنا أننى من أتباع هوسرل (Husserl) الفيلسوف الألمانى الذى يجعل الوعى مسرحًا لكل شىء ، وكل ما **يظهر** فيه هو الحقيقة ومن ثم أطلق على مذهبه اسم الظاهراتية (Phenomenology) (وهى عكس الظاهرية) (Phenomenalism) ولكننى لا أنشد إلا الزمن وما يفعله الزمن بالإنسان ، فذلك مدار حديثى بالأمس واليوم.



الفصل الأول



أستأنف الحديث الذى توقف فى **واحات العمر** فأقول إن الغربة التى أحسستها بعد تجاوز خط 'العمر الرسمى' داخل مقر عـملى كشفت لى عن طبيـعة منطق القوة الذى يسود تفكير قطاع كبـير من أبناء مصر ، وخصوصًا من يعـملون فى مؤسسات الدولة أو الحكومة ، والقوة هنا قد تعنى السلطة بأى شكل من أشكالها وخصوصًا قدرة المرء على التحكم فى غيره من البشر ، وهو ما نجده هنا فى صورة الرئيس والمرؤوس ، أكثر مما نجده فى أى صورة أخرى من صور القوة المعروفـة فى العالم المتقدم ، مادية كانت أم معنوية ، خـصوصًا قوى العلم والخـبرة أو الحكمة أو الرأى وحـتى المكانة الأدبية بل والاجتماعية ، فموظف الحكومـة فى مصر يؤمن بما نسميه 'الكرسى' إيمانه بالحياة ، فإذا فقد 'الكرسى' تحول إلى شـبح يتحـرك بين الناس فلا يراه أحد ، وقـد تلمح فى عينيه نظرات حزن دفين ، أو دهشة خبيئة من تحول مواقف أقرانه ورؤسائه ومرؤوسيه ، فلقد أنشأنا نظـامًا للإدارة الحكومية (civil service) نكاد نتفـرد به بين دول العالم ، والحمـد لله أننا تنبّهنا أخيرًا لمخـاطره ، بعد أن تحول جـميع المتعلمـين يومًا ما إلى موظفـين فى تلك الإدارة ، حتى الـفنانين والصحـفيين والعـاملين فى قطاعـات الإنتاج الزراعى والصناعى ، فإذا بلغ أحد منهم سن التقاعد خرج من الوظيفة فتنكر له الجميع، وربما وجد فى نفســه طاقات جديدة أو لم يجد ، وهو ما صوّره نجيب مـحفوظ تصويرًا بديعًا فى إحدى قصصه القصار ، وما فـسره يوسف إدريس - رحمه الله - تفسيرًا مُقنعًا فى ضوء التاريخ المـصرى الذى طالما تعرض فيـه أبناء مصر للقهر ، فـالقهر يولّد فى النفس نزوعًا إلى مـمارسة قـهر ممـاثل مع آخرين، كالفـعل ورد الفعل الطبـيعى، أو

كالحلقات فى السلسلة التى يأخذ بعضها برقاب بعض، فتجد الخانع لرئيسه قاهرًا لمرؤوسه، فى سلم منتظم يهبط بالقهر من القمة إلى القاعدة ويصعد بالخنوع من القاعدة إلى القمة، وإذا لم يجد المرؤوس من يليه فى مراتب السلطة حتى يقهره مارس قهره على أفراد أسرته فولّد فى نفوسهم منذ الطفولة الإحساس نفسه، وقد يكون لذلك تفسيره الجغرافى الذى أبدعه جمال حمدان ، أى إن مركزية المكان ولّدت مركزية السلطة التى تمثلت فى الفرعون الذى يقدسه أبناء الشعب، بل قد يكون له تفسيرات أخرى أو تفسيرات تجمع بين هذه العوامل المختلفة بدرجات متفاوته، ولكن خبرتى الشخصية أكدت لى أنه حتى فى الجامعة محراب العلم والتعليم لا نجد المصرى الذى يتقاضى راتبه من الدولة (والدولة ترادف الحكومة عندنا) إلا موظفًا يخاف الرئيس ويقهر المرؤوس، ولقد ساعدنى على اجتياز تلك المحنة اضطرارى للتغيب أسابيع متواصلة عن الجامعة بسبب جراحة العين التى أجريتها فى أواخر عام ١٩٩٩، وكان يُبلغنى بعض تلاميذى المخلصين ممن أصبحوا أساتذة بما يحدث فى غيابى، وحتى عندما كنت أحضر جلسات مجلس القسم، وهو المجلس الوحيد الذى كنت أحضر جلساته بعد انقضاء فترة رئاستى، كنت أجد من لم يكن يجرؤ على 'الإفتاء' فى العلم وقد أصبح عالى الصوت زاعق النبرة، بغضّ النظر عن إحاطته بالموضوع أو علاقة ما يقوله بما هو مطروح، كأنما هو طفل يحاول بصوته أن يثبت وجوده فى الأسرة، أو مراهق يحاول بالمعارضة تأكيد تخطيه للطفولة ودخوله 'عملية التفرد' وهو تعبير عالم النفس كارل جوستاف يونج أى(individuation process)وهى'العملية' التى يمر بها اليافع قبل بلوغ الشباب !

لكننى وجدت تفسيرًا آخر فيما قالته لى الدكتورة هدى وصفى ذات يوم، الأستاذة التى تشغل مركزًا أدبيًا مرموقًا، كما تتولى الآن (٢٠٠٢) رئاسة تحرير مجلة **فصول**- مجلة النقد الأدبى-وكنت معها ذات يوم من شتاء عام ١٩٨٤ فى غرفة عميد المعهد العالى للفنون المسرحية حين تناقشنا فى مهمة التدريس ووظيفة المعلم، إذ قالت بصراحتها المعهودة ''المُعلّم فى قاعة الدرس ملك متوج! فهو يقول ما يريد ويتمتع بسلطته العلمية كاملة لا ينازعه فيها أحد !'' قالت ذلك بتلقائية وبساطة كأنها تدلى بملاحظة عن الجو أو حالة المرور! ولكن عمق تلك الملاحظة دفعنى إلى التفكير فى طبيعة عملنا بالتدريس وما يترتب على تلك السلطة المطلقة من الآثار فى نفس (أو فى 'نفسية') المعلم! فقديمًا قال اللورد آكتون:إن السلطة فساد والسلطة المطلقة فساد مطلق أى

Power corrupts: absolute power corrupts absolutely

وها نحن نجد السلطة وقد أصبحت مطلقة وزاد من ذلك تلك العزلة التى يستشعرها أساتذة اللغات الأجنبية فى جامعاتنا ، فقد يقول المعلم كلامًا يختلف الطالب معه ، ولكنه لا يستطيع مُحاجّته لضعف آلته اللغوية ، الأمر الذى قد يشجع المعلم على التمادى فى إضفاء صورة العلم على 'الرأى' (أو وجهة 'النظر') فيتحول ما يراه إلى حقيقة ، وأما إذا كان الطالب قادرًا على مقارعة الحجة بالحجة ولديه من البراهين ما يثبت به خطل رأى المعلم - خصوصًا فى مجال العلوم الإنسانية ، والأدب بصفة خاصة، فإن 'هيبة' الأستاذ قد تصدّه وقد 'تقهره' ! بل قد يقعد به خوفٌ أدنى منزلة فى مجال المعرفة الإنسانية ، وهو الخوف من اتهام الأستاذ إياه بالغباء أو الجهل أو بهما معًا ! والعزلة التى يعيش فيها أساتذة اللغات الأجنبية تتعمق فى كل يوم بانقطاعهم عن مسايرة حركة المجتمع الأدبية والنقدية ، إما لجهلهم بها أو لتعاليهم عليها أو للسببين معًا ، كما أن بعضهم قد يحتمى بسياج من الكلمات الأجنبية التى تضمن له انقطاع التواصل مع تلك الحركة ، بل ومع المجتمع نفسه، فيظن من حوله ممن لا يفهمون ما يقول أنه يحمل فى عقله جِماعَ الحكمة وعلوم الغرب المتقدم ، وما هو إلا دارس عادى بل قد يكون حظه من العلم أقل كثيرًا من حظ غيره !

وقد فتحت لى ملاحظة الدكتورة هدى وصفى بابًا واسعًا لتأمل وضع مدرس اللغة الأجنبية ودارس الأدب الأجنبى فى بلادنا ، وتأمل ما ينبغى أن تكون عليه مهمته فى إقامة الجسور بين آداب العربية والآداب العالمية ، كما أتاحت لى نظرة جديدة إلى ما يتصف به المعلم من 'دوجماطيقية' أى من تصلب مذهبى ، وهو التصلب الذى ينبع من كثرة ترديد آراء قد يكون استقاها من غيره ، وقد يكون قد اهتدى إليها بنفسه ، ولكن كثرة ترديدها أمام الطلاب وتصديقهم إياها يكسبها ثوب الحقائق الثابتة التى لا تقبل الجدال ! من هذه مثلاً - وأقولها من باب الطرافة لا غير - ما ذكرته معلمة للدراما فى عام ٢٠٠١ عن شخصية هاملت ، فى المسرحية الشيكسبيرية الشهيرة التى تحمل اسم البطل ، من أنه يعتبر 'مسيحًا' من نوع ما (والتعبير هو a kind of Messiah) فحفظ الطلاب ذلك القول ، ولما حان موعد لقاءاتى الدراسية مع الطلاب الممتازين فى الفصل الدراسى الثانى فى مطلع عام ٢٠٠٢ ووجدتهم يرددون هذه المقولة بثقة مطلقة سألتهم عن معناها وعن الروابط التى تربط هاملت بالمسيح أو بأى نبىّ أو رسول لم يجدوا (أو لم يجدن - فالجميع إناث) غير البيتين (أو السطرين) الشهيرين:

The time is out of joint ! O cursed spite
That ever I was born to set it right !

(I.v. 189)

أى :

انْفَصَمَتْ عُرى الزمانْ ! ويَا لَهَا من نِقْمةٍ لعينةٍ قَضَتْ
بمولدى حتى أُعيدَ وَصْلَ ما انفرطْ !

والمعـروف أن هاملت يقول هذين البيـتين عندما يعـرف أن عمه قـد قتل أباه وأن الانتقام لمـقتل أبيه أصبح لزامًا عليه ، أى إنه أصـبح مطالبًا بالأخذ بالثأر وأنه لابد أن يقتص من القـاتل وهو عمه ! والواضح أن شيكسـبير هنا يصور مأسـاة فرد مطالب بأن يفعل أكثر من طاقته ، فالبطل - هاملت - طالب فى الجامعة أى إنه مثقف ومن العسير أن يقبل راضيًا قتل أحد ، وشـيكسبير يجعله 'رجل فكر' فهو متردد مـتخوف يتأمل ما وضعه القدر فـيه فيُجفل ، ويفكر فى الانتحار ثم يعدل عنه ، بمـعنى أن ساحة الصراع فى المسرحية هى نفس البطل لا الزمان أى أحـوال العالم (ونحن نفرق فى العربية بين الزمن بمعنى الوقت وبين الزمان بمعنى الحـياة الدنيا والناس) ومن ثم صبّ نقاد العالم دراساتهم على مـسرح الحدث الداخلى فـى نفس البطل ، خصوصًا وشـيكسبيـر يجعله ينطق بروائع الشـعر ، وفى لحظة غـضب يقوم هاملت بقـتل الوزير (أو رئيس الوزراء) الذى كان مختبئًا خلف الستارة ليشهد عتاب البطل لوالدته على زواجها من عمه (والشك فى مشاركتها فى الجريمة) ويتسبب مـوقف هاملت المتردد الخائر، وإدانته للنساء جميعًا بسبب ارتيـابه فى خيـانة والدته، فى مقـتل أوفيليـا حبيـبته ، ابنـة الوزير ، إذ تصاب بالجنون وتنتحر ، وفى مـقتل اثنين من المأجورين أيضًا ، وفى النهـاية فى مقتل أخى أوفيليا فى مـبارزة ، ومقتل أمه وعمـه ثم مقتله هو نفسه! والخلاصـة أن مأساة هاملت فردية ، ذهب المفسرون فى تفسيرها ألف مذهب وزعم البعض أن لها دلالات اجتماعية أو سياسية أو أنها مسرحيـة قضية ، ولكن مثل هذا البطل لا يمكن أن يصور فى صورة مسيح يحـمل رسالة الحب والسلام للبشرية كلهـا ، أو فى صورة نبىّ يهدى الناس إلى طريق الرشاد ، وبعد أن قـضيت ساعة أو بعض سـاعة أناقش الطالبات فى المسـرحية وأسمح لهن فـيها بالحديث بالعـربية حتى أزيل حـاجز اللغة ، اكتـشفت أنهن يكررن فحسب ما سمعنه من الأسـتاذة ، وأنهن وقعن أسيرات فى حب ذلك البطل وأفرغن فى ذلك عـاطفة المـراهقة المـتأجـجة ! وقلت فى نفـسى : لو قرأت تلك الطالبـات نص

المسرحية أولاً ، ثم تُركت لهن الحرية فى التوصل إلى فهم خاص لها، وفى الاستعانة بدراسات النقـاد وآرائهم المخـتلفة ، مـا تصورن أن ذلك البطل الذى قتـل الوزير بيده وتسبب فى مقتل العديد قبل أن يُقتل هو أيضًا ، يمكن أن يكون مسيحًا !

ولقد ذكـرت هذه الحادثة 'الأكاديمية' من باب الطرافـة كمـا قلت ، ولكن وراءها 'ملاحظة' الدكتـورة هدى وصفى ، فالمـدرس يقول ما يريد ، ويكثـر من ترديده حتى يؤمن به فيصبح 'حقيقة' علمية ثابتة فى ذهنه ، فإذا تأتّى لك أن تواجـهه بغير ذلك فما أسـرع ما يبـرز لديه ردّ الفـعل المتـوقع من أى مـعلم وهو اتهـامك بالجهل أو بعـدم التخـصص ! وكثيرًا ما كـنت أذكر محاوراتى مع طلابى الانجليـز ، بل ومع أساتذتى الانجليز ، فى جامعة رِدِنْج إذ كنا نتطارح الآراء فى حرية ونقبل نقضها إن بدا أن هناك ما يبرر النقض ، فالتدريس ، خصوصًا فى مجال الأدب والنقد الأدبى، ليس تلقينًا بل هو مناقشة لمـا نقرؤه وتمحيص للآراء النقدية فى هذا المجـال الذى يتطلب الابتعاد عن 'الصلابة المذهبية' .

كنت أواجه بـعد بلوغ 'العمر الرسمى' مجتمعًا مغلقًا يسـتمد أصحابه القوة منه ، وقد انقطعت بهم معظم الروابط التى من المفترض أن تربطه بالمجتمع العلمى فى مصر أو فى العالم العربى أو فى العالم الخارجى ، فأما تلمـيذاتى النابهات فقد كبرن وتميّزن وحققن ذواتهن فى نـشاط علمى ومجتمـعى خارج أسوار الجامعـة، ووصلن إلى مرحلة النضج الفكرى بل وأصـبحـت لهن تلميـذات نابهـات أيضًا، وقليلاً مـا كُنّ يحضـرن مجـالس القسـم أو يشاركن فـى التيار الجـديد الذى اشتد سـاعده وقوى ، وكـان هدفه الواضح هدم بعض ما بنيت ، وكنت أنا ومـاهر شفيق فريد نشعر بمـزيد من الاقتراب من بعضنا البعض ، وبالمزيد من الابتعاد عن هذا التـيار الجديد ، وشاركنا عبد العزيز حمودة ، وكـان ثلاثتنا ممن يشغلون أنفـسهم حقًا بقضـايا الثقافة والأدب بين اللغـتين العربيـة والانجليزية ، وكان لكل منا مجـاله أو فرعه الذى يحبـه ، لكن أواصر الحب توثقت بيننا وازدادت متـانتها ونحن نرقب مـا يحدث فى إعداد لائحة لكليـة الدراسات العليا ، المزمع إنشاؤها ، خصوصًا مجـاهرة الأعضاء بالعداء لدراسات الترجمة ، وهى التى أصبحت تحتـل مكانة بارزة فى الدراسات الأكاديمية فى جامـعات العالم ، وكانت المعارضـة تقوم ظاهريًا على أسس 'إدارية' وتقوم فى الواقع على أسـاس ضعف الإلمام بالعربية ومن ثم بالترجمة وأهميتها فى بلادنا ، وكنت أشهد ذلك أحيانًا فأحزن وأنسبه إلى الأقدار ! والحمد لله الذى آتانى القـدرة على تأمل الأحداث والناس بعين الكاتب ،

وانتـهيت إلى أنه من الأسلم لى (ولـما أريد أن افـعله) أن أتركهم (أو أتركـهن) وأن أشرع أنا فى فعل ما أريد !

وليس أدل على العزلة التى أحسستها آنذاك فى مقر عملى من رد فعل الزملاء عندما عُرِضَتْ مسرحيتى **الدرويش والغازية** فى مسـرح السلام فى مطلع عام ٢٠٠٠ واسـتمر عرضـها ثلاثة أشهـر ! كان رد الفعل صـفرًا ! إذ لم يكد أحد يـذكرها ؛ ناهيك بأن يحاول مشـاهدتها ! لكننى لم أعجب ولم أدهش ، وعندما سافـرت إلى الخارج بعدها أعددت ترجـمة لديوان من الشعر العـربى ، وكتابًا يضم مخـتارات من أشعار الـشباب المصـريين التى ترجمتـها إلى الانجليزية، وطبع فى أمـريكا بعنوان أصوات غاضـبة ، وكتبت مـقدمة طويلة لكل من هذين الديوانين أو الكتـابين كما أعددت كـتابين فى فن الترجمة نُشرا فـى أواخر ذلك العام أولهما بالعربية عن التحـولات الدلالية بين اللغتين العربية والانجليزية نشرته شركة لونجمان بعنوان **مرشد المترجم** والثانى بالانجليزية عن ترجمة اللغة العربية إلى الانجليزية بعنوان **مدخل ثقافى إلى الترجمة عن اللغة العربية**

On Translating Arabic : A Cultural Approach.

وسوف أتوقف هنا عن السرد لأفصِّل القول فيما أجـملته إجمالاً فى آخر صفحة من واحات مصرية .



كان لقـائى مع 'حسن' [المـخرج] فى عام ٢٠٠٠ لـقاءً مُطولاً إذ جـمعتنـا عدة جلسات فى مقـهى بفندق كبير كان ينزل فـيه عند زيارته للقاهرة ، إما هربًا من مـعارفه القدامى أو نشدانًا للسرية ، أو تحاشيًا لزوجته السابقة ، وكان يقص علىّ فى كل جلسة طرفًا من أحواله بعد أن اطمأن إلى حفـاظى على أسراره (وهذا هو السبب الذى يدفعنى إلى عـدم الإفصاح عن اسـمه الحـقيـقى صراحـة فى هذه الأوراق) وبعد أن وجـد فى 'تحليلاتى' لما يكابده بعض العزاء والسلوان .

قال لى 'حسن' فى أول لقاء بعد الغيبة :

"لعلك تذكر البيتين اللّذين ذكرتهما لى لـلشاعر الانجليـزى -صديقك- وليم وردزورث! دعنى أرددهما لك فهما يصفان حالتى فى أمريكا :

We poets in our youth begin in gladness
But thereof come in the end despondency and madness !

[أى :

ويحنا يامعشر الشعراءإنّا نستهلُّ العمر بالفرح فتُونا

ثم نجنى ذاك من بعدُ اكتئابًا وجنونا !]

وقال حسن إنك لو أبدلت هنا صـفة الشعراء بأى صفة مشـتركة بيننا نحن الأدباء والفنانين اتضح لك حـالى بل وحـال الكثيـرين ممن تـوسلوا بالفن لاكتـساب المـال والشهرة ثم انتـهى بهم الأمر إلى التيه والحـيرة، فالفنان يجعل من ذاتـه مركزًا للكون ويتصـور أن كثرة تردد اسمـه فى أجهزة الإعـلام قد كفلت له العظمـة والخلود، وكلما صعـد على خشـبة المـسرح وصـفق له الجمـهور ليلة بعـد ليلة ترسخ فى نفـسه ذلك الإحساس، فإذا سار فى الطريق فأشارت إليه الأصـابع وابتسمت له الشفاه، تأكد أنه قد 'وصل' ! ولكن . . ."

وقلت له إننى أفهم ما يرمى إليه وأضفت أنه لن يلقـى المصير الذى كنت أحدسه لأنه ليس ممثلاً فـحسب بل هو مخرج ومؤلف، فإذا به يفـضى إلىّ بما لم أكن أتوقعه قائلاً :

"أنا أقصد زوجتى ! فلقـد وقفت إلى جوارها ودفعتهـا دفعًا إلى مصاف الكواكب أو النجوم ، وإن لم تكن من النجوم الساطعة - وقالها بالانجليزية (of the first magnitude) - وجنّدت لها من يكتب عن عبقريتها فهى ذات موهبة لا شك فيها ، وهو ما كلفنى جهدًا ومـالاً ، فإذا بها تطالبنى بما ليس فى طاقتى وهو أن أكـرس حياتى لإبراز تلك الموهبة و'بروزتها' (من برواز أى إطار المعربة عن الفرنسية) و'تلميع' اسمها ! لم يكن ذلك فى طاقتى لسـبب غريب وهو أننى تركت نفـسى للحياة تجـرفنى ، فلم أجد غضاضـة فى التحول من الاشتـراكية إلى موجـة المد الإسلامية ، وكنت فى الـحالتين مؤمنًا بالمبـادئ السامية هنا وهناك ، ولكننى رجل عـمل لا رجل فكر ، فاستطعت أن أجنى ثمار هذه وتلك دون تعمق ، وما حاجتى للتـعمق ؟ كنت أسأل نفسى قبل الإقدام

على أى مشروع : هل سيعود علىّ بالنفع ماديًا ومعنويًا؟ وتدريجيًا وجدت أن الشق الأول قد غلب ، وأصبح المال أو قل أصبح اكتساب المال بأى طريق هدفًا أسمى ، وكانت زوجتى تعرف ذلك وتقبله ، ولكنها كانت تريد ما هو أكثر !"

فقلت أخفف عنه "ولكنك وقفت إلى جوارها فى مرضها حتى شفيت . . . ولولا المال ما تمكنت من ذلك !" فقال :

"وهل تعرف يا صديقى ما كان ذلك المرض ؟ إنه مرض النفس الذى أودى ويودى بحياة الكثيرين من الفنانين ! وما الإدمان إلاّ صورة من صور الهروب التى تلازم ذلك المرض ! وتفسيرى البسيط له - بل والساذج ، فأنا لا أعرف الكثير فى علم النفس أو الطب النفسى - هو أنه طريق هروب إلى عالم وهمى تنقطع فيه صلة المرء بالواقع ، فيدمن الخيالات والتهاويل ، ويسعد لحظات قد تطول وقد تقصر ، فإذا أفاق لم يستطع تحمل الواقع ، خصوصًا حين يجد الفنان أن الزمن يجرى به جريًا لاهثًا ، وأن الصغار قد احتلوا مكانه أو كادوا ، فيتحول عداؤه للواقع إلى عداء للزمن !"

وقلت له إن ذلك قد يكون تفلسفًا مبالغًا فيه ، لكنه لم يلبث أن قال :

"فلنقل إنها فلسفة مغالية ، ولكنها مستمدة من خبرتى الشخصية لا من الكتب التى أدمنتها أنت ! إنها الواقع الذى عشت فيه سنوات طويلة ، وأكاد أقول يعيش فيه مئات الفنانين ممن شُغلوا بأنفسهم وفُتنوا بصورة ذاتهم ، فأصروا على استكمال الصورة أو ترسيخها فى الخيال . ولهذا كان لابد لى أن أعالج الأمر بما يشبه الصدمة (قالها بالانجليزية shock treatment) فطلقتها بعد أن دفعت إليها أموالاً طائلة ، ولم أشأ أن أتزوج غيرها خوفًا على مصير ابنتى . ولأصارحْك القول بأن رحيلى من مصر إلى البلاد العربية أولاً ثم إلى أمريكا الآن رحيل من يريد أن يفر من واقع مرير فلا يستطيع! لقد أصبحت زاهدًا فى الشهرة عازفًا عن أجهزة الإعلام وأتحداك أن تجد بين الشباب من يعرف اسمى ، فلقد انطفأت جذوة الفرحة الأولى التى قال عنها الشاعر وردزورث، وحلت محلها سحابات كآبة ولحظات جنون لا يخفف من وقعها فى النفس إلا ذكر الآخرة ! لطالما استمعت إلى نصائحك فتحملت راضيًا ما يأتى به القدر، بل وأقلعت عن طيش الشباب حين ولّى الشباب ، والآن لا أستطيع أن أغيّر شيئًا فى حياتى ، وسوف أحدثك فى المرة القادمة عن طبيعة عملى فى أمريكا - لأن لدى موعدًا لا أستطيع أن أخلفه" .

ودهشت حين وصل إلى مائدتنا ضيف عربى يرتدى الملابس الإفرنكية، كما يقولون، فسلّم وجلس، ولكنن أدركت أن ذلك هو 'الموعد' الذى تحدث عنه، فانصرفت.

وأفصح لى 'حسن' فى اللقاء التالى عن حقيقة مرض زوجته ، ولكننى لن أفصح عنه هنا حتى لا يتعرف عليهما أحد القراء ، ثم قص علىّ ما يفعل فى أمريكا وهو باختصار ترجمة العناوين والحوارات القصيرة فى إعلانات الدعاية القصيرة عن المنتجات الأمريكية المصدّرة إلى الوطن العربى ، وقال إنه يشارك بالرأى فيما يناسب العرب من أقوال أو أفعال فى تلك الإعلانات ويتقاضى عنها مبالغ كبيرة ، كما يعمل مندوبًا لبعض الشركات التى تصدر هذه المنتجات ، فيقابل المستوردين العرب ويتفاهم معهم بالعربية ثم يعود إلى أمريكا لإبرام الصفقات . وسألته ضاحكًا إن كان بين هؤلاء يهود أو كانوا يتعاملون مع إسرائيل ، فقال دون مبالاة ما معناه إنه أغمض عينه على القذى وقَبِلَ الحياة فى منطقة الظل ، أو فى شبه الظل ، بين الشرق والغرب، وقال إن عمله قد أتاح له أن يعرف كثيرًا من المحتالين من ذوى الأصول العربية الذين يعيشون فى أمريكا ويخدعون الناس والدنيا ، ولكنه – على الأقل – يكسب رزقه بجهده ويحس أنه يعمل عملاً شريفًا .

وقابلت 'حسن' عدة مرات بعد ذلك بناء على طلبه ، وخرجت من لقاءاتنا بأنه كان يجد راحة 'اعترافية' فى سرد أخباره وقص قصصه ، وكنت ألح عليه فى كل مرة أن يعود إلى مصر ، فالموت فى الغربة قاس مرير ، ولكنه كان يردد فى كل مرة أيضًا أنه مؤمن بالآية ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ (لقمان - ٣٤) ، وفى لحظة مرارة قال لى "وما يضير الشاة سلخها بعد ذبحها" ولم أضحك ، ولم أعلق ، وساد الصمت آنئذ كأثقل ما يكون الصمت . ثم افترقنا .

وانقطعت أخبار حسن شهورًا حتى ساورنى القلق عليه ، لكنه ما لبث أن فاجأنى بالظهور فى القاهرة ومعه جعبة جديدة من القصص .



٣

قلت إننى أحمد الله الذى آتانى القدرة على تأمل الناس والأحداث بعين الكاتب، ولاأظن أن ذلك التعبير واضح كل الوضوح، ولذلك سوف أجمل ما أعنيه فى تفسير

موجز أتبعه بنموذج يمثل ما أقصد إليه . فأما التفسير فهو أن عين الكاتب تقيم مسافة بينه وبين ما يرى ، وقد تبلغ هذه المسافة من الطول حَدًّا يجعله يتأمل ما يراه كأنه يشاهد عملاً مسرحيًا أو يقرأ رواية خيالية ، وحتى يظل - ولو شارك فى الأحداث - بعيدًا عنها ، إذ يستطيع أن يدرك بعض أبعادها التى قد تخفى على المشاركين فيها ، وأن ينظر إليهم باعتبارهم بشرًا لكل منهم حياته الخاصة ودوافعه الخاصة ، وأن يتجرد من أية دوافع شخصية قد تجعله يجور على هذا أو ذاك وقد تمنعه من التفهم الصحيح لأحوال كل منهم ، ولكن هذه 'الموضوعية' تختلف عن موضوعية العالم (عالم النفس أو عالم الاجتماع) فى أن عين الكاتب لا تقتصر على التحليل وفصل العوامل ورصد الظواهر وإقامة العلاقات وما إلى ذلك مما يفعله الباحث ، بل تتجاوز ذلك إلى ملء الفجوات فى الصورة بما يتوافر لديه من خبرات شخصية ، بحيث تكتمل صورة كل منهم وصورة كل حدث، والاكتمال هو أول أو أهم عنصر من عناصر الجمال، فإذا بكل شيء يكتسى من الجمال ما يجعله عملاً فنيًا حيًا ، وإذا بالمشاعر التى يستقرئها الكاتب فيما يرى ويستكمل ما نقص منها من منابع ذاته ، وقد أضفت على الناس والأحداث حياة خاصة ممتعة ، قد تخرج بها عن سياقها الزمنى ، وقد تصعد بها إلى مصاف الأعمال الفنية الجميلة .

ولقد تعلمت جانبًا من هذه النظرة من أعز أصدقاء عمرى - المستشار أحمد السودة والدكتور سمير سرحان ، على اختلافهما اختلافًا بيّنًا ، فالأول قارئ نهم يتأنّى فى القراءة حتى يستوعب كل معنى ثم لا ينسى أبدًا ما استوعب ، والثانى قارئ سريع يصل إلى ما يهمه وحسب ثم يلقى بما لا يهمه فى غياهب النسيان ، ولكن كلا منهما يتعاطف مع ما يرى ومن يرى محافظًا على المسافة التى تتميز بها عين الكاتب ، وكل منهما تشغله الحياة والناس دون تخطّى المسافة التى ذكرتها ، وأنا أختلف عنهما جميعًا بأننى أحيانًا ما أتخطّى عمليًا وماديًا تلك المسافة التى أحافظ عليها نفسيًا وذهنيًا ، إذ أترك نفسى للاختلاط والامتزاج بالناس من شتى 'الأشكال والألوان' كما يقولون ، وأستمع كثيرًا إلى ما يحكون ويروون ، وأحيانًا ما أرقب مسار كلامهم بين الصدق والكذب والأقنعة (personae) التى يرتدونها أو ينزعونها من حين إلى حين ، وأطرب لتأمل خلجات النفس البشرية فى لحظات الضعف ولحظات القوة ، وأعيش فى قلوبهم- كما يقول أحمد رامى - لحظات معينة (مثلما يفعل كاتب المسرح) ثم أعود إلى حياتى العملية بعد انتهاء فصل من فصول الدراما اليومية التى لا تتوقف أبدًا .

تمكنت بفضل عين الكاتب - كما ذكرت - من تخطى عقبة انتهاء 'العمر الرسمى'، وتمكنت بفضل عين الكاتب من التغلب على محنة المرض ، ومحنة الاستماع إلى السؤال الذى كان يزعجنى ثم أصبح مصدر تسلية وهو "إزّى صحتك ؟ ربنا يطمنّا عليك !" فالبعض يجعله يخفى نصًا باطنًا هو "أنت مريضٌ واحمد الله على أنك ما زلت فى قيد الحياة !" والبعض يضمر نصًا آخر هو "أعرفُ أنك مريضٌ وأشفقُ عليك !" والبعض الآخر يوحى بنص مختلف هو "لم تَعُدْ شيئًا بعد أن وقعتَ فى قبضة المرض . . فانظر إلينا نحن الأصحاء !" والله يعلم أننى ما حسدت أيا من هؤلاء يومًا ما ، كلا ولا حزنت للدلالات الخفية لأسئلتهم ، ففى الغابة التى نعيش فيها ونسميها دنيا الأدب والفن ، لا مكان لغير القوة ، والقوة فى عالم وسائل الإعلام المرئية والمسموعة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بارتفاع الصوت وجهارته ، وبكثرة الظهور فى أجهزة الإعلام وفى الندوات والمحافل ، ومن لا يمارس هذه القوة يُعتبر عائشًا فى الظل، ولكن الظل جميل بليل ، لأنه يتيح إنتاج أعمال قد يُكتب لها البقاء بعد زوال الصوت والصورة ، وكلما اجتمعت بزميلى وصديقى عبد الوهاب المسيرى ازداد إيمانى بجدوى الظل، فلقد نذر نفسه للبحث العلمى فى مجال شاق عسير هو مجال الفكر السياسى والاجتماعى فأنجز موسوعة لم يكن لينجزها لو شغل نفسه بارتياد المنتديات والمحافل ، أو بالظهور الأجوف على مدى السنوات العشرين الماضية ، فالعمل هو الذى يكفل العطاء الحقيقى ، وعمل الكاتب يقتضى الموازنة بين الظل والقيظ !

وكان من أهم ما كشف لى عنه تجاوز 'العمر الرسمى' ذلك التنوع الرائع فى ألوان ما أسميته بالظل الجميل البليل ، إذ يستطيع الإنسان أن يهنأ فيه ويستشعر ما لم يكن يحلم به من تعاطف مع البشر ، ومن ثم من الرؤية الصادقة لحاله دون أقنعة (وسوف أعود إلى القناع فأجعله موضوع هذا الفصل) وذلك عندما خرجت من القاهرة فى زيارات متعددة للجامعات الإقليمية. كانت المرة الأولى يوم الأربعاء ٥ يوليو ٢٠٠٠ حين ذهبت فى وفد يضم الدكتور عبد الهادى الجوهرى - مستشار جامعة المنيا ، وأمين لجنة الآداب والعلوم الإنسانية بالمجلس الأعلى للجامعات، وأستاذ علم الاجتماع المعروف - والدكتور حسنين ربيع أستاذ التاريخ ، الذى كان نائبًا لرئيس جامعة القاهرة وعميدًا لكلية الآداب قبل ذلك ، والدكتور مصطفى السعدنى ، الذى كان عميدًا لآداب بنها ، وحل محل الدكتور محمود فهمى حجازى الذى اعتذر عن اللحاق بالوفد ، إلى أسوان للتحقق من إمكان (أو 'جدوى' feasibility) افتتاح كلية للآداب تابعة لجامعة جنوب الوادى فى أسوان ، ابتداء بأقسام التاريخ واللغتين العربية والانجليزية ، فقضينا يومًا

كاملاً فى اجتماعات وزيارات ميدانية لمبانى الكليات الجامعية هناك ، والاطلاع على الأحوال 'على الطبيعة' كما يقولون . وهمس لى الدكتور ربيع قائلاً إن الجامعة سوف تعطينا مكافأة مادية على هذا الجهد ، ولكنْ خاب ظنه وظنى ، وإن كنت خرجت بانطباعات أثمن كثيراً مما تدفعه الجامعة عادة وتحقق صدق انطباعاتى عندما انتدبنى عميد الكلية الجديدة ، الدكتور عمر صابر ، الأستاذ فى قسم اللغات الشرقية لدينا ، للتدريس فى أسوان ، وهو رجل فاضل يتميز بدماثة خلق نادرة ، وكنت قرأت له كتابًا عن **ديوان يوحنا النقيوسى** ، ترجمه وقدم له وشفعه بتعليقات وافية ، فبهرنى علمه ، ويوحنا المذكور كاهن قبطى شهد فتح العرب لمصر ، وكان من المصادر التى اعتمد عليها المؤرخ البريطانى ألفريد ج بطلر فى كتابه **فتح العرب لمصر** الذى ترجمه محمد فريد أبو حديد ترجمة تضارع الأصل جمالاً إن لم تتفوق عليه.

شاهدت فى أسوان طلابًا فقراء يريدون حقًا أن يتعلموا ، وكانوا يستعيضون عما يتمتع به أهل القاهرة والاسكندرية من تدليل 'مدارس اللغات' بالجهد والدأب والمثابرة، وكنت أشعر أن قضاء يوم فى التدريس لهم يمثل درجة عالية من درجات الخير (فالخير درجات كما سوف أبين فى الفصل الثانى) وكان يحضر معى المحاضرات أو الدروس أعضاء هيئة التدريس الثلاثة فى قسم اللغة الانجليزية ، الدكاترة محمد سعيد وعاطف وعادل ، وعادة ما كانوا يدعوننى للغداء معهم ، وشاركتهم فى إعداد الكتب اللازمة للسنة الأولى ، وهى التى تولت الجامعة طباعتها وتوزيعها على الطلاب ، وأحسست - على الرغم من المسافة الكبيرة التى تفصل أهل شمال مصر عن أهل جنوبها - بوجود تلك الرابطة الإنسانية العميقة التى تشد الناس فى مصر بعضهم إلى بعض ، فكنت أشتاق إلى رحلة أسوان كل شهر تقريبًا ، وأتطلع إلى اللقاء مع الطلاب والأساتذة ، خصوصًا وأن الدكتورعبد الحكيم راضى ، أستاذ اللغة العربية وآدابها ، كان كثيراً ما يصاحبنى فى الرحلة فنتناقش فى أمور اللغة وأحوالها .

واتضح لى مدى العناء الذى يكابده هؤلاء الأساتذة الشبان، فمعظمهم منتدبون من كلية الآداب فى قنا، وهم يسافرون لا إلى أسوان فحسب بل إلى الغردقة أيضًا للتدريس فى معهد ما هناك، والرحلة إلى الغردقة تستغرق ثمانى ساعات، كما أنهم يدرسون فى كلية التربية أيضًا، وذلك كله يستغرق وقتًا طويلاً بل يستهلك كل طاقاتهم، ولا يكاد يتيح لهم فرصة القراءة والبحث، وكنت أقدم لهم ما أستطيع من العون فى هذا المجال،

ولكن المكتبات فى جنوب الوادى ما تزال فى طور الإنشاء ولا تهتم دور النشر بإهدائها نسخًا مما تطبع، فدور النشر مؤسسات تجارية ولا تهدى النسخ إلا للأماكن التى تبشر بالبيع والكسب المادى . واتضح لى أيضًا مدى مكابدة الطلاب أنفسهم فى الوصول إلى مقر الجامعة، فوسائل المواصلات شاقة والمسافات طويلة، وكانت الدراسة فى ذاتها تمثل جهدًا يتطلب العزيمة والإصرار ومجالدة تلك الظروف القاسية، فنشأ فى قلبى ونما حب عميق للجميع، وتمنيت لو أننى أستطعت أن أفعل المزيد من أجلهم، ولكن جراحتى العين اللتين أجريتهما فى آخر١٩٩٩ وآخر ٢٠٠٠ وضعتا حدودًا لما أستطيعه.

وكان التناقض بين هذه الأحوال وأحوال قسمنا فى القاهرة يزيد من جمال صفاء النفوس الذى كنت أستشفه فى كل زيارة لأسوان ، وهو ما أعاد لى ثقتى بالطبيعة البشرية ووطّدها بعدما كادت أن تتزعزع ، وتأكدت هذه الثقة من جديد عندما توطدت علاقتى بالدكتور شبل الكومى ، مثال الصفاء الخالص ، فهو عالم متواضع ، يواجه صعابه الخاصة بإيمان عميق واطمئنان لما تقضى به الأقدار ، وهو يقرأ كثيرًا ولا يفصح عن سعة اطلاعه إلا فيما ندر ، ويتميز عن الآخرين بأنه لا يكاد يعترف بالأقنعة ، وربما اقتنع فى صباه بأنه لا حاجة له بها ، وتأكد له هذا الاقتناع عند النضج ، وقد بدأ توطد العلاقة بيننا عندما شاركنى التدريس لطلاب الدراسات العليا بكلية الآداب جامعة المنوفية ، اعتبارًا من خريف عام ٢٠٠٠ ، فكنا نذهب معًا فى سيارته ، وكنا نناقش كل شىء أثناء الرحلة ، وربما توقفنا فى الطريق بمقهى ريفى ، فتناولنا القهوة والشاى، وجلسنا نتأمل الطبيعة، وكنت أجد أن الرحلة فسحة (بالمعنى الفصيح والمعنى الدارج) فهى تفسح لى أن أنسى الضغوط التى أتعرض لها فى القاهرة ، والأقنعة الكثيرة التى تواجهنى فى حياة العاصمة ، سواء كان ذلك فى مقر عملى أو فيما يسمى بدنيا الأدب والثقافة ، وكنت أحس أن الخروج من القاهرة فى ذاته شىء جميل ، فهو يتيح لى الوقت لتأمل أنماط أخرى من الحياة ، ومد حبال التواصل مع البشر دون أقنعة ، أو دون أقنعة كثيفة ، فالناس خارج المدينة الكبيرة لا يتعرضون للضغوط الشديدة التى تضطرهم إلى ارتداء الأقنعة ، وإذا ارتدوا أقنعة فهى لطيفة أو شفافة ، ولذلك كنت أجد فى التواصل راحة من مواجهة الأقنعة الكثيفة فى معاملاتى بالقاهرة ، فأتيح لعين الكاتب أن ترى الإنسان وهو أقرب إلى الصدق مع ذاته ، ولقد استعنت بعين الكاتب كثيرًا فى الشباب والكهولة ، فهى العين التى تقيم المسافات أو تلغيها (كما سبق أن أوضحت) وهى العين التى تمثل الطاقة الكامنة لدى كل إنسان وإن لم يكنْ واعيًا بها ،

فقد تمكنت بفضلها أن أستمتع برحلاتى إلى خارج القاهرة ، مثلما استعنت بها فى التغلب على غلظة أقنعة أهل القاهرة وتعقيداتها .

وبفضل عين الكاتب تمكنت أيضًا من اختزان 'المادة الإنسانية' التى لا غنى عنها لكاتب المسرح ، فهى معينه الأول (بفتح الميم) ومنهله الذى لا ينضب ، وما أعمق نفس الإنسان وما أعجب ما تخفيه فى أغوارها ، ولسوف أضرب أمثلة من بعض ما شهدته وبعض ما أتابعه عن كثب ، وأولى تلك اللوحات وأقربها ما يحدث فى المنزل الذى نقيم فيه ، فله بواب اشتهر باسم عبد المنعم حتى أن البعض يناديه باسم 'الدلع' [التدليل ؟] عبده ، واسمه الحقيقى محروس عصعوص ، وله من الأبناء تسعة ، الكبرى (كوثر) من زوجة سابقة، تزوجت من سائس جراج يدعى 'محمد' أصيب بمرض عضال ولم يلبث أن توفى (رحمه الله) بعد أن أنجب عدة أطفال، والثمانية الباقون هم بالترتيب (تقريبًا) صباح، ومحمد، وليلى، وهشام، وهويدا، وهدى، وأحمد، وهبة، ولما كانت الأسرة أصلاً من قرية من قرى الصعيد ، فقد أصبح وجودها فى القاهرة الكبرى يمثل أهمية بالغة لأبناء القرية، فهم يرسلون إليها بعض أقاربهم ممن ضاقت بهم سبل العيش فى الريف، وعبد المنعم يمارس شهامة أهل الريف فيطلب من السكان المعاونة بما لهم من نفوذ فى تحقيق أحلامهم فى الحصول على عقود عمل بالبلاد العربية البترولية، وكان يقدم كُلاًّ منهم باسم 'وِلْد عمّى' ، وقد نجح الكثيرون فعلاً فى الرحيل ، فاختفى البعض وعاد الآخرون بأيد خاوية ، مثل 'محمد' ابن البواب نفسه !

أما نفوس هذه الأسرة التى تكاد تشاركنا الحياة اليومية فلا تنفتح مغاليقها إلا لمن هو على استعداد لأن يستمع إليهم وينصت ويختزن فى ذاكرته ما استمع إليه ويضيف إلى ذلك ما يراه من سلوكهم ، وذلك كله - بالطبع - فى إطار معرفته الوثيقة بأحوال تلك الأسرة و'البيئة' التى تعيش فى كنفها . وكان همىّ الأول ، ولا يزال ، أن أطلّع على ما يدور فى نفس رئيسها الذى قضى معنا أكثر من ربع قرن دون أن تبدو عليه دلائل الشيخوخة إلا أخيرًا ، باستثناء جراحة 'المياه البيضاء' فى إحدى العينين ، وقد أجراها له أحد الأطباء فى إحدى المستشفيات العامة ولم يتقاض عنها أجرًا ، وباستثناء

'أدوار البرد' التى تصيب الصغير قبل الكبير ولو أننى حزنت كثيرًا عندما قال لى أخيرًا إنه أصيب 'بالسكر' وفعلت ما قدرنى الله عليه فى هذا السبيل .

وقد وجدت 'المفتاح' إلى أعماق تلك النفس فيما درجنا على تسميته بالصفات الأساسية للفلاح المصرى على مر التاريخ ، وأهمها حب الأرض وامتلاكها ، والمكر والتحايل إزاء عالم عابس لا يحفل به ، ومن هاتين الصفتين تتفرع عدة ملامح سلوكية يسهل على الراصد إدراكها ، منها اقتناء بعض القراريط فى موطنه الأصلى وتأجيرها لبعض أقاربه ، والتكتم على ذلك والتستر على كل ما يتصل بذلك الموضوع ، ومنها احتراف 'الخيال' ، إذ يُعتبر هنا سلاحًا ماضيًا من أسلحة المكر والدهاء ، يستعين به المستضعف فى مواجهة عالم غير ودود ، ولا يرى غضاضة فى العدول عن أقوال قالها أو تعديلها بما يتفق وتحقيق أهدافه وأهمها هدف البقاء المتمثل فى إضافة قيراط آخر إلى قراريطه . وهو فى غضون ذلك يدخر كل نقود تدخل جيبه ، ويحض أبناءه الذكور على كسب الرزق ، ويهيئ بناته ذهنيًا للزواج باعتباره الغاية العليا للفتاة ، فالزواج يلقى بعبء إعالتها على كاهل رجل آخر ، بغض النظر عمّن يكون وما يكون ، فابنته الكبرى صباح تزوجت من رجل قصير غليظ الجسم مجتمع الخلق ضاحك السن ، يكبرها كثيرًا وله أسرة ريفية فى 'نزلة السمان' بالقرب من أهرام الجيزة ، وسرعان ما جعلها تتكيف مع حياة الريف الجديدة عليها بعد أن نسيتها الأسرة فى المدينة ، أما هى ففتاة ملامحها نصف زنجية - مثل ملامح بعض النساء اللائى صوّرهن الرسام محمود سعيد - شديدة السمرة واسعة الفم مفلطحة الأنف ، أنجبت لزوجها سبعة أبناء ، كبر بعضهم وأصبح مراهقا ، وقد رأيت اثنين منهم يعملان أحيانًا فى نطاق أسرة والدته حين تكفهر مداخل الرزق ، كأن يطردهما صاحب العمل ، أو يدخل أبوهما السجن .

وكثيرًا ما كنت أسأل نفسى حين أتأمل رب الأسرة (الذى يخشاه الجميع) وهو جالس مع بعض أصدقائه من الريف على الدكة الخشبية فى مدخل الجراج : ترى ماذا يدور فى ذهنه ؟ من عساه ينتقى من بين السكان (ومنهم أطباء ومهندسون وضباط وأساتذة فى الجامعة) لممارسة 'خياله' معه ؟ وماذا يعتمل فى هذه النفس التى لا تفتح أبوابها للطارق قط ، ولا تكاد تعرف ما يدفّ بين جوانحها إلا فى لحظات الغضب ، إذ تنطلق الحمم من فم صاحبها كأنها حمم من فُوَّهة بركان ، وكنت ولا أزال أحب أن أشهد تلك الانطلاقات التى قد تكشف لى عن بعض ما يخفيه الوجه الثابت الجامد الملامح كأنه قناع ، وأحب أن أسمعه وهو يتحدث عن الشرف ، فهو ينحصر فى نظره فى عفاف المرأة ، فذلك فى رأيه مناط الأخلاق الفاضلة ، بل والدين نفسه والتقى

والورع . وكان ذلك يتجلى أكثر ما يتجلى فى رمضان - شهر الخير الذى يجود فيه السكان بطعام الإفطار الفاخر كل يوم على أسرة صاحبنا - إذ يأمر جميع الإناث حتى فى مرحلة الطفولة بارتداء الطرحة (التى تسمى الحجاب فى مجتمعنا) وكانت إحدى حفيداته واسمها آية ، وهى التى لفظتها أمها (صباح) ونقلت رعايتها إلى الجدّين ، ولم تتجاوز العاشرة، ترتدى طرحة كبيرة تخفى بها شعرها الأجعد .

ومن أخلاق الريف التى ورثها الابن الأكبر محمد من أبيه صفة الاقتصاص بنفسه ممن يسئ إليه أو كما يسميها "أخذ حقه بيده" ، ومحمد لم يعد صغيرًا ، فهو يناهز الأربعين ، وهو أمىّ ، مصاب بالصَّرَع ، وقد تأتيه النوبة فى أى مكان فيقع ويصاب إصابة قد تبلغ حد الخطر، وهو يعمل لحسن الحظ فراشًا فى مستشفى الصفا القريبة من المنزل ، ولا أنسى يوم أن وجدته جالسًا على الدكة فى مدخل الجراج لا يكاد يقوى على النهوض ، فسألته ما الخبر فقال إنه طُرد من العمل ، ولما ألححت عليه فى السؤال قال إن أحد الأطباء أهانه "فأخذت حقى" ، وأدركت على الفور أنه أوسع الطبيب ضربًا وأحس بالرضا لاسترداد كرامته ، وعرف القصة بعض الأطباء من أصدقاء السكان فتوسطوا له حتى عاد إلى العمل ، ولم أتمكن من الإلمام بالتفاصيل فى غمرة الزهو الذى كان محمد يشعر به بعد أن اقتص لنفسه من الطبيب .

وسبيلى إلى داخل هذه النفوس الحافلة بالألغاز هو الاستماع بتركيز وبصبر لا ينفد، كما قلت ، فإذا قص البوّاب علىّ قصة بعض معارفه فى القرية أو أقربائه تعمدت الإنصات و'الحفظ' حتى تكشف لى روايته عن مُثُله وقيمه ، فهو يعمد دائمًا إلى 'الإسقاط' أى نسبة كل شىء إلى الآخرين ، كأنه كاتب يصوّر من خلال شخصياته أفكاره ومشاعره ، وأحيانًا ما تكون قصصه موجهة لطلب المال ، وقد يقصها عليك إجمالاً أول الأمر متوقعًا منك أن تَلْمَحَ ما يرمى إليه من قصته ، وقد يفشل السرد فى تحقيق مأربه فيلجأ إلى الأسلوب المباشر طالبًا النقود حتى دون وجه حق . وكان أحدث نموذج لذلك زواج ابنه إذ أتى يقول إنه سوف يشترى 'الشبكة' لابنه (والنص الباطن هو: 'أريد مساهمة فى النفقات') والكل يعلم أنه لن يشترى شيئًا لأحد ، فابنه 'الميكانيكى' يصارحنى بكل شىء ، وزوجته 'أم محمد' تقول لى ما يفعله زوجها بالمال [فى البلد] فلما تظاهرْتُ بأننى لم أفهم مرماه ، عاد يقول إن فلانًا ساهم بكذا

وفلانًا بكذا ، ولما أصررْتُ على التغابى جاء يقول إنه يريد كذا لاستكمال الثمن ، وربما يكون ذلك ثمن البيت الذى سمعت أنه أمر ببنائه فى أرضه .

٤

من معانى 'عين الكاتب' ، القدرة على تحويل الأشخاص إلى شخصيات مسرحية أو روائية ، وليس معنى هذا أن نسلبها كيانها الإنسانى الكامل المتفرد ، ولكن معناه أن نقيم مسافة ما - كما قلت - بين ما نرى ونسمع وبين ما نشعر به ونفكر فيه ، ومعناه أيضًا أن نتعاطف مع من لا نحب بل وما لا نحب فى الناس ، إذ استطعنا أن نُقصيه ولو إقصاءً محدودًا عن حياتنا الشخصية واهتماماتنا المباشرة ، فالكذب صفة كريهة ولكنه يصبح صفة طريفة إن أبعدتها عن حياتك ونظرت إليها فى إطار حياة الكاذب نفسه ، وحياتنا فى مصر قد تستدعى الكذب لأن الكثيرين لم يصلوا إلى النضج النفسى الذى يسمح بالصدق دون غيره ، فإذا طلب أحد منك طلبًا ولم تكن تستطيع تلبيته وقلت له ذلك غضب منكَ وربما ناصبك العداء ، بل إن بعض طلاب الحاجات يتوقعون إجابة مُرْضية ، ولو كانت كاذبة ، كأن تقول إن شاء الله ، أو ربنا يسهل ، ثم تعمد إلى المماطلة والكلام المعسول ، و'ربنا يفتح الأبواب' ، ثم تأتى بذرائع للتعطّل وأخيرًا لعدم القدرة على المعاونة ! وقد يعاود أحدهم المحاولة من جديد وتعود الدائرة المضنية وأنت فى حيرة من أمرك ، فقد ينفد صبرك فلا تملك إلا أن تواجهه بالحقيقة فيزيد إلحاحُه وربما انتهى الأمر بك إلى انفعال غير مقصود فيكون نصيبك الاتهام بانعدام الذوق أو المروءة والشهامة !

والأمثلة على ذلك تتفاوت بين طلب التوسط لدى المسئولين بغية توظيف أحدهم فى الحكومة، وبين طلب ترجمة شىء ما أو مراجعته دون أجر (أو بأجر رغم أنفك!)، وبين المساعدة فى نشر شىء لا يستحق النشر ، أو كتابة مقدمة لشىء لا يستحق التقديم ، أو المشاركة فى ندوة نقدية لإعلاء شأن الكاتب !

ومن الصور الحاضرة فى ذهنى (أو اللوحات الحية فى عينى) صورة حسن عبد النعيم ، وهو من معارف أو أقرباء عبد المنعم ، بواب عمارتنا الذى أشرت إليه ، وهو خطيب ابنته هبة التى وصلت إلى سن الزواج ، وهى الوحيدة التى لم تتزوج من

الفتيات . فهو خريج قسم الإعلام بكلية الآداب بجامعة أسيوط بتقدير مقبول ، ويبدو من مظهره وسلوكه أنه يعمل فى القاهرة الآن عملاً يدويًا ، وما فتئ عبد المنعم يطالبنى بالعمل على تعيينه فى الإذاعة مذيعًا أو محررًا ، أو صحفيًا بإحدى دور الصحف الكبرى، وأنا لا أعرف شيئًا عن قدرات حسن المذكور ، ولكن عبد المنعم يأتينى بين الحين والحين بورقة تفيد أنه سيُعقد له امتحان فى الإذاعة بناء على توصية من عضو فى مجلس الشعب ، ويطالبنى بأن أوصى عليه المسئولين ، فهو يرانى فى التليفزيون ويظن أننى أتمتع بسلطان عريض ، وكنت أجيبه الإجابة التى يرجوها ('ربنا يسهل' أو 'إن شاء الله خير') دون أن أشرح له استحالة التدخل فى نتيجة الامتحان ، والواقع أننى خاطبت حمدى الكنيسى رئيس الإذاعة آنذاك (١٩٩٩) فهو زميلى القديم فى قسم اللغة الانجليزية - وقد أكد لى أنه لن يستطيع مساعدته إلا إذا نجح فى الامتحان ، ولكن عبد المنعم يعتقد أن الامتحان صورى وأن الكوسة (أى المحاباة) هى قاعدة التعيين ، وذكرتُ ما قالته ضحى (وهى تلميذة سابقة حصلت على دبلوم الترجمة من قسمنا) من أن 'أولاد الأكابر' و'الواصلين' قد يعفون من الامتحان أصلاً ، وأن هناك طابورًا طويلاً من العاملين بعقود فى الإذاعة يدخلون ذلك الامتحان حتى يحصلوا على وظائف ثابتة حتى ولو لم تكن النتيجة فى صالحهم . وكان إلحاح عبد المنعم يتخذ صورة التنغيص والمضايقة ، فهو يقبع لدى الباب وكلما شاهدنى ذكّرنى بخطيب ابنته وأن الزواج يتوقف على نجاحه ، لكنه لما رسب للمرة الثانية تحوّل إلى محاولة العمل بالصحافة ، وانتهز فرصة إهدائى بعض المفكرات وروزنامات العام الجديد من جريدتى **الأهرام والأخبار** ليطالبنى بتعيينه فى إحدى هاتين الصحيفتين ، وعندما صدقت ما وعدته به وخاطبت من أعرف فى الصحف ، قيل لى إن أبواب التعيين مغلقة من مدة ، وإن خريجى كلية الإعلام بجامعة القاهرة ينتظرون التعيين منذ أمد بعيد وبعضهم (حتى من الحاصلين على تقدير جيد بل وجيد جدًا) لا يزال يتدرب دون أن يلمح فرصة التعيين .

المشكلة هى أننى لا أستطيع أن أزكّى حسنًا لأننى لا أعرف قدراته ، ولا أستطيع أن أقول لأحد معارفى أو أصدقائى إننى سوف أبعث إليه 'بمشروع صحفى' نابه أو 'مشروع مذيع' ناجح ، وكل ما أستطيعه ، دون أن أفقد مصداقيتى ناهيك بأمانة الكلمة، هو أن أوصى بالاهتمام به بصفته خطيب بنت بواب عمارتنا ، كما أننى لا أستطيع فى الوقت نفسه أن أواجه البواب بحقائق الموقف ، فهو لن يفهمها حتى لو

سمعـها ، بل سيفهم أننى أتـقاعس عن تقديم 'خدمة' عـادية ، وذلك 'التقاعس' فى نسق قيمه مـرذولٌ ممجوج ، ينم عن تخاذل أو عمـا هو أسوأ ، وأنا لا أريده أن يفهم هذا أو ذاك ، وأحاول بشتى الطرق الممكنة أن أقنعـه بصعوبة تحقيق الأمل الذى يطمح إليه خطيب ابنته ، فهو يريد أن يُلحق بأسرته رجلاً جامعيًا ، ويتصور أنه لو قدر لحسن أن يحصل على وظيفـة فى الإذاعة أو فى إحدى الصحف فسـوف يجرى المال بين يديه أنهارًا ، ويصبح ذا نفوذ وسلطان ، وقد يظهر فى التليفزيون كل يوم .

وأذكر أن أحد الطامحين فى ممارسة الكتابة والنشر زارنى فى مكتبى بمجلة المسرح فى هيئة الكتـاب فى أواخر الثمانينيات ، أثناء فحص المـادة ، وأطلعنى على ما كتب، ولم يكن يزيد عن خواطر مراهـق بعضه شعر موزون ومـعظمه غير موزون ، والعـامية مخـتلطة بالفصـحى ، بل وبعضـه منقول من كـتابات آخـرين ، وأثارنى ذلك الخليط العـجيب ولكنـنى ثابرت حتى اسـتطعت قـراءة شطر كـبيـر منه ، وصـارحتـه برأيى وأوضحت له أن نشره بحـالته الراهنة عسير ، وإن كان ينبئ عن مـوهبة تتطلب الصقل بالقراءة والدربة والمـمارسة ، وأوصيـته بقراءة عـدة كتب، فبدا عليـه الذهول وقال لى "ولكن هذا شعر يبدأ من حيث انتـهى الآخرون ، فأنتم العلماء ونحن الأدباء ، ونحن الذين نكتب ونبـدع ، وأنت الآن تحول دون إطلاع الجـمهور على ثمـار عبـقريتى !" وقلت له إننى صارحـته برأيى وحسب ، لكنه إن شاء قـدم هذا الإنتاج إلى دار من دور النشـر فإذا قـبلته نـشرته ، وإننى لست ملزمًا بـشىء ، لا بنقده ولا بنشـره ، وله أن يعرضه على غـيرى إن شاء حتى يتـأكد من صدق مشورتى ! لكنه أصـرّ على نشره فى هيئة الكتاب فقلت له قدم هذا الشعر إذن إلى رئيس الهيـئة رسميًا وسوف تعرضه الهيئة على لجنة من المتخصصين فإذا وافـقت على النشر نُشر ! فبدا عليه الارتياح وهدأ ثائره وقال إذن إننى أقـدمه إليك وأرجوك أن تتولى أنت الـتوصية بنشـره ، لكننى أصررت على أن يقدمـه رسميًا إلى المـسئولين فى إدارة النشـر ، فنهض مغضـبًا ومضى ، ولم تمض أسابيع حـتى عاد إلىّ فى مكتب مجلة المسـرح بالهيئة ومـعه ذلك 'الشعر' وقد أرفق به خطابًا من الوزير مـوجهًا إلى رئيس الهـيئـة يوصى 'بالنظر' فى المـوضوع ، ويحمل تأشيرة من رئيس الهيئة توصى ببـحث الموضوع . وابتسمت له هذه المرة بسمة عريضة وقلت له" الحمـد لله ! خرج المـوضوع من يدى ! قدمـه إلى الأستـاذ لمعى المطيـعى - المشرف الـعام - وسوف يتـولى هو كل شىء" . كـان يجلس مـعى فى المكتب حازم شحاته وأمير سلامة وعـمر نجم ، وبعض العاملين المساعدين فى المجلة مثل صلاح الوسيمى وعنايات الـسكرتيرة ، ففرحت بوجود 'شهود' وشرحت له بهدوء

الخطوات الإجرائية المطلوبة ، وحاولت قدر طاقتى أن أتصرف تصرف الموظفين الملتزمين ، فلم أُبدِ ما يدل على أننى قرأت 'شعر' ذلك الشاب ، وأرسلت معه عنايات إلى مكتب الأستاذ لمعى وظننت أن الموضوع قد انتهى عند هذا الحد ، بل إننى نسيت الموضوع تمامًا فى الشهور التالية ، حتى جاء يوم أُرغمتُ فيه على تذكره .

لم يكن يبدو فى البداية أن هناك أى علاقة بين حملة الهجوم على الهيئة فى إحدى الصحف الصغرى 'المغمورة' (شبه الحزبية) وبين تأخر نشر ما كتبه ذلك الشاب، أو عدم نشره، إذ كانت سلسلة المقالات التى لم أطلع على أولاها مثيرة بذيئة حادة اللهجة، وكانت المقالة الثانية تتهم الهيئة بالمحاباة و'الشللية' وما إلى ذلك من أوصاف حفظناها عن ظهر قلب، كما تتضمن اتهامات أخرى تقول إن الهيئة تنشر كتابات فاضحة لليساريين، وإنها تتعمد معارضة نشر ثمار قرائح المبدعين من الشباب المؤمنين حتى لاينافسوا الكبار من الشعراء المجيدين الذين ترضى الدولة عنهم! ولم أكن أدرك وجود علاقة بين هذا الشاب وهذه الحملة لأننى- كما قلت - كنت قد نسيته تمامًا، وكان سمير سرحان لايزال رسميًا 'منتدبًا' للعمل فى الهيئة، أى لم ينتقل نهائيًا من وزارة التعليم العالى إلى وزارة الثقافة ، ولم يكن يحب مثل هذه 'الشوشرة'، فطلب منى كتابة رد موضوعى على تلك المقالات، فأتانى المكتب الإعلامى بالمقالات ، وأتيت بقائمة منشورات الهيئة، وأعددت الرد الذى رأيته مقنعًا بل ومفحمًا، لأن الهيئة تُعنى حقًا بكتابات الشباب وقد خَصَّصَتْ لها سلسلة كاملة بعنوان '**إشراقات**' تباع بأسعار زهيدة لتشجيع الناس على اقتنائها وتشجيع أصحابها على الاستمرار، وشرحت فى الرد إجراءات فحص الأعمال المنشورة وإجراءات نشرها ومكافأة أصحابها وما إلى ذلك، وأطلعته على الرد فأرسل به إلى الصحيفة فنشر ، وإلى جانبه 'عمود' يقدم فيه صاحبه ما أسماه الدليل على صدق ما جاء فى المقالات ، ألا وهو عدم نشر 'شعر' صاحبنا !

وكان لابد من إعداد رد جديد يكتبه لمعى المطيعى - المشرف على النشر - فتم ذلك ، وأُرسل إلى الصحيفة ، ولكنه لم ينشر ! واتصل سمير سرحان تليفونيا برئيس التحرير وسأله عن ذلك فقال رئيس التحرير إنه سوف ينشره عملاً بحرية النشر ولكنه ينتظر عودة صاحبنا من قريته حتى يرد على الرد ! ثم انطلق يتحدث بنبرات ودودة - حسبما حكى لى سمير - طالبًا منه أن يوفر على نفسه كل هذا الجهد وأن ينشر

'المجموعة الشعرية' لصاحبنا ولو فى سلسلة '**إشراقات**' (وخلاص !) ولكن سمير سرحان قال له إن لجان الفحص هى التى تقضى بالنشر أو عدم النشر ، (وكان محمود العزب هو الذى يشرف على السلسلة ، يعاونه عبد العال الحمامصى ولفيف من كبار النقاد) وإنه لا يتدخل فى تحديد ما ينشر وما لا ينشر ، وإن عليه إن أراد الحقائق كلها أن يتصل بالأستاذ سعد درويش - مدير عام النشر - أو بالأستاذ لمعى المطيعى- المشرف العام - حتى يعرف ما حدث بالتفصيل . ويبدو أن رئيس التحرير فعل ذلك لأن الصحيفة لاذت بالصمت التام إزاء الموضوع بعد ذلك وبدأت تنشد الإثارة فى مجالات أخرى أهمها السياسة والدين .

ولقد تعلمت من هذه الحادثة الكثير ، ولكننى اجتزت هذه المحنة وأمثالها مما تكرر بعد ذلك بفضل عين الكاتب ، فكنت أحافظ على المسافة التى تفصل بينى وبين ما يحدث ، إذ تحول الشاب الطامح فى نظرى إلى شخصية لها جميع المقومات الإنسانية التى تضعها فى رواية أو مسرحية ، واستعنت بما أعرفه عنه وما قرأته له - على قِلّته - فى رسم صورة تقريبية له ، وتكرر ظهور هذه الصورة فى حالات الشبان والشابات ممن كثر ظهورهم فى الحياة الأدبية بسبب وفرة وسائل النشر ، سواء فى الصحف والمجلات التى كُثرت كثرةً مَرَضيّة ، أو فى سلاسل الكتب التى تنشرها شتى الهيئات بجانب هيئة الكتاب حتى كاد دور الهيئة أن ينكمش بل وأن يتوارى فى خضم ما تنشره كل هيئة ، والملامح الأساسية للصورة هى اندفاع الشباب وحماسه ، وتصوره العجيب أن وقدة العاطفة وحدها كفيلة بصنع الأديب ، وضعف الأداة - ضعف اللغة الفصحى (فلنكتب بالعامية) وضعف آلة الشعر وعدم القدرة على النظم (فلنكتب نثرًا ولنسمّه شعرًا) وضآلة الخبرة الإنسانية أو ضحالتها ، وأخيرًا وليس آخرًا ، الهجوم على الكبار والتطاول على من أفنوا العمر فى الدرس والتحصيل والقراءة والكتابة !

وتختلف الصورة فى التفاصيل، وتتفاوت- بطبيعة الحال- فيما يحيط بها من ملابسات، ولكنها ذات جوهر ثابت، فالشاب يريد بعد نشر ديوانه الأول أو مجموعة الشعر الأولى- أيا كانت جهة النشر ومهما يكن مدى تقبل الجمهور والنقاد لها أن يصبح فى مصاف الأدباء وأكاد أقول كبار الأدباء، وأظن أن المناخ العام يساعده هو وأمثاله على ذلك،فهم يرون الكثيرين يُثْرون دون مجهود، ويرون كيف ينالون مالا يستحقون بوسائل ملتوية أو بأساليب الغش والخداع، وهو ما تشجع عليه وتُنميّه أجهزة الإعلام التى تذيع أعمالاً فنية ترسخ هذه الصور،حتى مع إدانتها، وهى الصور التى

تولدها وتنميها الرأسمالية الفاسدة، بعد أن أصبح التليفزيون (لا الكتاب) المصدر الأول للعلم والمعرفة وبثّ القيم وترسيخ مناهج الأخلاق، وبعد أن أصبح دور القراءة محصورًا فى 'المقرر'،٤١ الدراسى الذى يقبل عليه معظم الطلاب ساخطينكارهينمرغمين فما أيسر على الإنساكار يشاهد أو يسمع ، وما أشق عليه أن يقرأ ويدرس!

وتحتل هذه الصورة بأشكالها المتعددة مكانها فى ذهنى ، وهى صورة تتلون كما قلت بما يحيط بها من ملابسات ، فهى صورة حية متحركة أو دينامية كما يقولون ، قد تتجسد فى شخص شاعر أعرفه تخطى مرحلة الشباب وكان يعمل فى الهيئة ويكتب النظم ويتصور أنه عبقرى العباقرة وسيدهم ، أو فى صورة سيدة أعرفها وكانت فى أواسط العمر تكتب الشعر المنثور والمنظوم أحيانًا وتردد آى الذكر الحكيم لترهبك وتخوّفك ، أو فى صورة فتاة متحررة تكتب نثرًا جميلاً وتقول إنه شعر ، بل وفى صورة أستاذ جامعى حظه من الموهبة الإبداعية محدود ، كتب مسرحية أو رواية وظنها كفيلة بوضعه بين كبار الأدباء ، ولا شك أن لهؤلاء نظائر بين من لا أعرفهم .



بين الحياة العملية والحياة الذهنية تناقض صارخ ، ولكن الجمع بينهما لازم لكل أديب وخصوصًا لكاتب المسرح ، وحتى لو كان الكاتب متفرغًا للكتابة أى لا يمتهن مهنة سواها ، فهو يحتاج إلى الحياة العملية 'لتسويق' ما يكتب ، وكلمة 'تسويق' قد تبدو مرذولة ، نظرًا لما يحيط بها من دلالات الكسب المادى أو الربح ولو كان حلالاً، ولكن المقصود بها هنا هو إشاعة ما يكتبه الكاتب بين الناس ولفت نظرهم إليه أو حثهم على قراءته ، فالناس - القراء أو المشاهدون - هم الضلع الثالث اللازم لاكتمال 'دائرة الإبداع' التى تحدث عنها شكرى عياد فأوفاها حقها ، فإذا كان الكاتب يأخذ من الناس مادته التى تتحول إلى عمل أدبى جميل ، فعليه أن يوصّلها إليهم فى صورتها الجديدة ، وعليه أن يرى ويسمع ما يقولون عنها فى هذه الصورة ، وخصوصًا ما يقوله النقاد والأدباء ، ففى ذلك عون له على تلافى النقائص ومواصلة التجويد ، أى إنه ملزم بالارتباط بالناس ارتباطًا حميمًا قبل الإبداع وبعده ، مثلما هو ملزم بالارتباط بالتراث الأدبى الذى يحدد له الشكل الجمالى الذى يختاره لعمله .

ولكن تُرى من يكون هؤلاء الناس ؟ إنهم نحن جـميعًا ، و'نحن' آلاف الأنواع ، والكُتّاب من بيننا نوع واحد ، وهو نوع يتفرد بالجمع بين عـين البصر وعين البصيرة ، عين البصر التى لا تغادر صـغيرة ولا كبيرة إلا رصدتها ، وعين الـبصيرة التى تنفذ من خلال هذه وتلك إلى النفس الإنسانية التى تـمنح كل شىء معناه ، وهو نوع كتب عليه أن يختار وأن يتمهل فى اختياره ، مـهتديًا لا بمقتضيات الشكل 'الجمالى' وحده (فهذا يتغـير من فن إلى فن ومن عصـر إلى عصر ومـن لغة إلى لغة) بل أيضًا بمـقتضـيات الجمهـور الذى يخاطبه ، أو القارئ الذى يـتوقع أن يقرأ ما كتب ، أو الـمشاهد الذى يتوقع أن يشـاهد عمله المـسرحى، وقد يبـدأ بالعام والأساسى الذى لا خـلاف عليه ، مسترشدًا بتـقاليد الفن الذى يمارسه ، ثم يطور بعضًا منها أو يحـوّلها تحويلاً رفيقًا أى تحويلاً لا يمس الأساسيات ، وقد يختار أن يبدأ بالتطوير متوجهًا إلى شريحة معينة من القراء أو المشاهدين أو 'المتلقين' ، شريحة يثق فى تقبّلها لتطويره وإقـبالها عليه، آملاً أن يزداد عدد أفراد هذه الشريحة ، مثلما فعل الرواد فى القرن العشرين ، ولكنه فى كل حال يعمل حسابًا للقـارئ ويضعه نصب عينه ، فهو حين يكتب فـإنما يخاطب شخصًا ما، واعيًا أو دون وعى ، وما الكتابة إلا سـجل الكلام ، وأنا الآن أخاطب قارئًا تتوافر فيه صـفات قد لا تتوافر فى جمـهور المسرح، فالأرجح أنه يحب القـراءة ، وربما كان يحب الكتـابة أيضًا، أى إنه قد تلقى قـدرًا لا بأس به من التعليم وصل به إلى مـرحلة النضج ، وهو يحب اللغة العربية، وأنا أقصد الفصحى لا العامية، بل وأتصور أنه ممن يقرؤون الصـحف، وربما كان من بين القراء من قـرأ بعض كتبى المنشورة عـلى امتداد أربعين عامًا، وقد لا يتوافر هذا أيضًا فى جميع مشاهدى المسرح ، فإذا تفاءلت قلت إن كتابى قد يقـرؤه مئات القراء ، ولكننى لا أتفاءل حين أتوقع أن يشاهد مـسرحيتى آلاف المشاهدين، والواجب على كاتب المـسرح إذن أن يحدد لنفسه ملامح جمـهور مجهول يضم شتى درجات التـعليم والوعى والخبرة ، وشتى المـشارب والأذواق، ناهيك بشتى الاتجاهات المذهبية فى عصر تكاثرت فيه المذاهب واختلطت ، وتشابكت فتعقدت !

ولذلك لابد لكاتب المسرح من الحياة العـملية فى المسرح! لابد له من ذلك حتى يعرف طريقه الحق إلى قلوب الجمهور ، ولقد سبق لى الحديث فى **واحات مصرية** عن 'الموضوعات' التى تمثل القـواسم المشتركـة بين الجماهيـر، تفسيرًا لا تبـريرًا للفشل الجماهيرى الذى صادفته مسرحيتى **الغربان** ، فعوامل الفشل لا تقتصر على الموضوع ،

أو على أسلوب التقـديم والإخراج، أو على الممثلين ومـدى شعبيـتهم، أو على مكان العرض وموعده، بل هى تتضمن هذه العوامل مجتمعة ، وإلى جانبها بل على رأسها - القدرة على التواصل مع الجمهور، مما يقضى بضرورة التفرغ لذلك إذا كان يريد النجاح الجمـاهيرى حقًا ، مـثلما فعل لينـين الرملى فى المسرح، ومـثلما فعل مـحفوظ عـبد الرحمن فى التليفـزيون، ومصطفى محرم فى السينمـا وأخيرًا فى التليفزيون، فالاخـتيار الذى واجهناه - وأقصد بالجمع سمير سرحـان وفوزى فهمى وعبد العزيز حمودة وأنا - لم يكن اختيارًا سهلاً: فإما أن نتفرغ لكتابة المسرح ونضحى فى سبيل ذلك بالكثير من نشاطنا الأكاديمى (كل فى مجاله) أو نواصل كتابة المسرح ونتوقع أن يأتى يوم يكتشف أحد فيه ما تركناه من نصوص فيقدمها ! وأما علامة التعجب فمعناها أن هذا محال، لأن الدنيا تغيرت وتتغيـر بصورة تجعل القياس على الماضى مستحيـلاً ، فلم تشهد البشرية على امتداد تاريخها الطويل شاشة تعـرض صورًا متحركة داخل البيوت وبالألوان ، تغنى الشخص عن الخـروج فى زحام المواصلات ، وإنفـاق الأموال التى يحتاجـها أولاده ، ولم تشهد مـصر قبل هذه الأيام هذا المستوى مـن الكد والعناء فى سبيل الرزق ، وهو الذى يجعل العائد إلى منزله آخر اليوم يتمنى ألا يغادره حتى صباح اليوم التالى !

ومع ذلك فجمهور المسرح كبير ، لأن أهل مصر "أهل لهو وطرب وسرور" كما قال ابن بطوطة ، وفى ظنى أن هذه خصيصة مصرية قديمة ، لم تفلح جهامة التاريخ فى طمسها ، وكثيرًا مـا أعجب وأنا أقرأ تاريخ مصر ، وخصوصًا **بدائع الزهور فى وقائع الدهور** لابن إياس **والنجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة** لجمال الدين أبى المحاسن (وهو ابن تغرى بردى الأتابكى) أو كتب المقريزى مثل **الخطط وإغاثة الأمة أو الكامل فى التاريخ** لابن الأثير (وقد نَشَرْتُ مـختارات كثيـرة منها جميعًا فى مكتـبة الأسرة فى التسعينيات من القرن العشرين) أقول إننى كثيرًا ما أعجب لما كابده هذا الشعب وما مر به من بلايا ومحن وأرزاء ، وما تعرض له من غزوات وحروب ومجاعات ، ثم لم يفقد قوته ، لا بل ولم يفقد إقبـاله على الحياة وحبه لها ، بسبب تلك الخصـيصة المصرية القديمة المرتبطة بفن المسرح ، فالمصـرى الصميم رجل أقنعة، يؤمن بأن الحياة الدنيا "لهو ولعب" وبأننا نقوم بأدوارنا المرسـومة لنا (والمكتوب علينا أن "نلعبها") ونحن ندرى أنهـا أدوار، وأن وراءها حـياة أخـرى "خير وأبقى"، وأن اجتـياز هذا المعـبر الدنيوى يتطلب الصبر على الشدائد بروح تعرف معنى "اللهو واللعب"، فالذهن اللماح

يلتقط التناقضات ويضحك منها، ويرى فى مفارقات الدنيا دليلاً على أنها عابرة كاذبة مثل أدوار المسرح ، والمصرى الصميم يرتدى قناع الحزن فى المأتم ، وتولول النادبات الكاذبات، ويجتمع الناس فى تمثيليات العزاء ، ثم ينفض الجميع ويعودون لتمثيل أدوار أخرى، مثل أدوار الخنوع أو القهر ، وفى أعماق كل منهم إحساس بزيف هذا وذاك ، وأذكر أن أحد أصدقائى الخلصاء ذهب إلى "البلد" لتقديم العزاء فى وفاة ابن أخيه ، ولما انتهت المراسم بعد صلاة العصر ، وجد أن الوقت قد تأخر فقرر قضاء الليلة فى منزل أسرته ، وعندما ذهب إلى المسجد ليصلى المغرب وينتظر العشاء، جريا على عادتنا فى البلد، إذا بمن يدعوه إلى حضور زفاف أحد معارفه المقربين ، فلم يتردد بل ذهب بعد صلاة العشاء إلى حفل الزفاف ، وعندما لامه أحد أفراد الأسرة على ذلك قائلاً إنه جاء للعزاء والتعبير عن حزنه فكيف يشارك فى الزفاف الذى هو فرح وسرور ، كان رده "هذا واجب وذاك واجب" - وعندما علمت بما حدث وجدتنى أترجم هذه العبارة إلى صيغة أخرى هى "هذا قناع وذاك قناع" وفى ظنى أن الرجل لم يجد تناقضًا بين الحزن والفرح ، وربما لم يكن فى أعماقه يَصْدُقُ فى هذا أو ذاك ، فهو يلعب دورًا هنا ودورًا هناك ، وقد يكون إحساسه الصادق هو أن الموت رحمة وأن الفرح (الزفاف) بداية عذاب ، أو قل إن الحزن والفرح قناعان يتداولهما الإنسان ويستبدل الواحد بالآخر فى كل لحظة من لحظات حياته ، فلا معنى للغضب من أن يلبس أحدهما فى الظهيرة ويلبس الآخر فى المساء ، وهى نظرة أقرب عندى للروح المصرية الصميمة .

وإدراك هذه الروح كفيل بالاقتراب من طبيعة الجمهور التى أعيت الباحثين، وجذورها التاريخية أوضح من أن تذكر ، فالبعض ينشدون التسرية فى المسرح التجارى - فى الكوميديات أو الهزليات - ثم لا ينفرون من المسرحيات الجادة أو المأساوات لأن مطلبهم لا يقتصر على الضحك بل يتضمن تبديل الأقنعة أو تبادلها أو المشاركة فى ذلك ، وهو ما يهيئ للمشاهد متعة الوعى بتمثيلية الحياة ، بل وتعميق هذا الوعى ، كما أن إدراك المفارقات والضحك منها دليل على الصحة النفسية أو هو سبيل إليها ، فالوعى مثل الضحك خصيصة إنسانية ، ولقد تعلم المصرى عبر تاريخه الطويل فن استبدال الأقنعة ، وحذق فن التمثيل فى حياته ، ووجد فى التمثيل منجاة من بطش حكام أجانب لا يقيمون للفرد العادى وزنا ، فسخر منهم وضحك ، وتجلى ذلك فى لغته الدارجة التى ابتعدت كل البعد عن الفصحى بمظاهر جدها ووقارها ، فأصبحت الدارجة لغة حياة حافلة بدلائل وعيه وعمق استيعابه لتاريخه الأليم، فالبعض يراوغ

ويخـاتل ويضحك مـمن يظلمونه، وقـد ينتـهى به الأمر إلى أن يرى فى (الفـهلوة) أو (الفتـاكة) أو (الفكاكـة) امتيـازًا نادرًا، والطالب قد يظن أنه أذكى من المُعلّم ويتـحايل للنجـاح دون علم أو بأقل مجـهود، والـعامل قـد (يلكْلِكْ) إذا استطاع ذلك فى غـيبـة الرقابة، وقـد (يعُكّ) وقد (يلبخ) إن ضـمن الإفلات من المسـاءلة، لأنه لا يأخذ شـيئًا مأخذ الجد، فـالظالمون غير جديرين بالإخلاص لهم فى شىء، وحـتى بعد أن تغيرت الأوضاع بعد الثورة، أصبح 'الخريجون' يريدون التوظف فى(تكيّة) الحكومة حتى ينعموا بالكسل فيـتقاضـوا رواتب دون عمل يذكر، وهذه العـيوب مثـالب ولاشك تعوق 'بناء الوطن'، ولكنها من وجـهة نظر أخرى تفـصح عن مدى تغلغل الأقنعـة المسرحـية فى حياتنا وفى لغتنا، ويكفى أن تتأمل الألفاظ العامية التى أوردتها عامدًا فى هذه الفقرة!

ولست أزعم أننى أول من يتـحدث عـن هذه الأقنعة أو أننى أدقُّ من وصـفهـا ، ولكننى أحاول فحسب أن أبين أهمـيتها لكاتب المسرح من حيث كـونها المدخل لفهم الجمهور الذى يتوجه إليه بالخطاب ، فالوعى بالقناع هو الذى يحدد ما نسميه 'بالنغمة' (tone) أى رنة الصدق فى الحديث أو الكذب أو السخرية وما إلى ذلك بسبيل ، سواء أكان ذلك من جـانب المتكلم أم السامـع ، فإذا كان على المـمثل أن يرتدى قناعًا وأن يُقنع الجمـهور بأنه توحّد مع صـاحب ذلك القناع بالحركـة الجسدية ونبـرات الصوت ارتفـاعًا وانخفـاضًا وحِدّةً وخُفوتًا ، وإذا كـان على المـخرج المـسرحى أن يسـتعـين بالسينوغرافى ليضع له من المناظر ما يوحى للجـمهور بصدق تصوير المكان أى بإعداد قناع بصرىّ مُقْنع ، فإن عمل الكاتب لا يتوقف عند كتابة الكلمات التى ترسم أقنعة كل شخصية ، بل عليه أن يذكر أنه يوجه هذه الأقنعة إلى جمهور يرتدى معظم أفراده أقنعة اجتـماعية ، وأن يحـاول عن طريق الحدث المسرحـى إسقاط هذه الأقنعة أو خلخلتـها وهزها على الأقل ، ولو إبان فـترة العرض المـسرحى فـقط، وذلك بإقامـة علائق بين الأقنعة المسرحـية وما تخفيه أقنعـة الجمهور ، فهو يشبـه فى هذا الطبيب النفسى الذى يعمل على اكـتساب ثقة المـريض بطرائقه الخاصة فـإذا نجح فى ذلك تمكّن من تجريد المريض تـدريجيًا من أقنعتـه أى من دروعه التى يتـحصّنُ خلفـها حتى يكشـف لعين الطبيب الفاحصة عن العلة ، وربما كتب له الشفـاء بعد ذلك . أما العلائق التى يقيمها الكاتب المـسرحى فـتتـمثل فى مـدّ حبال العـناصر الأوليـة والعالمـية (primes &

universals) أى تلك العناصر البشرية التى يشترك فيها الناس جميعًا وتتخفى خلف الأقنعة ، وهى العناصر الكفيلة بأن تشد الجمهور شدًا إلى الأقنعة المسرحية ، وتهيئ لأفراده درجة معقولة من التصديق أو تعمّد عدم التكذيب مؤقتًا - وهو ما يسميه كولريدج: (the wilful suspension of disbelief) أى "تجميد التكذيب عمدًا" فإذا نجح فى ذلك يكون قد اكتسب ثقة الجمهور ودفع أفراده إلى المشاركة الوجدانية (فى المأساة) أو الذهنية (فى الملهاة) طيلة العرض أو فى معظم فتراته ، ويصبح بإمكانه أن ينفذ إلى ما تخفيه الأقنعة التى يضعها أفراد الجمهور ، بحيث يصل فى النهاية إلى خلخلتها أو إسقاطها إن توافرت لديه البراعة الكافية ، ولو لفترة زمنية محدودة .

وإذا كانت هذه هى القاعدة العامة أى القاعدة التى تنطبق على كل عمل مسرحى ناجح وتصدق على الجمهور فى كل زمان ومكان ، فإنها ذات طابع خاص فى مصر ، بسبب أقنعتنا الخاصة ، وفى هذه الأيام تحديدًا بسبب ما أوجدته ثقافة نهاية القرن العشرين من أقنعة التقوى والورع وأقنعة النصوص المقدسة ، وتجلياتها التى تتبدى فى أبسط صورها فى قشور السلوك 'الدينى' [- ألو ! - سلامو عليكم!] ومظاهر الحشمة (الطرحة والتوربان للمرأة ، والجلباب الأبيض والزبيبة للرجل) ولذلك فإن كاتب المسرح يجد أن الأقنعة التى يواجهها تشبه الدروع الصُّلبة أو القلاع الحصينة ، فهى لا تقتصر على الزرود النفسية بل تتضمن آليات دفاع عن النفس تقاوم محاولته لاكتساب الثقة ، ولا مناص له إن أراد النفاذ منها من استعمال أسلحة من نفس النوع حتى تستطيع الاختراق برفق ورقة .

والنموذج القريب على ما أقول هو المسلسل التليفزيونى عائلة **الحاج متولى** (٢٠٠١) الذى قدمه الكاتب المبدع ، مصطفى محرم ، خريج قسم اللغة الانجليزية ، الذى أراد بما قدمه إثارة قضية بالغة الأهمية وهى تعدد الزوجات فى مجتمع منقسم على نفسه ، إذ انبرى المتحررون يشتمون المسلسل لأن بطله متزوج بأربعة نساء ، وتفننوا فى إدانته ، وانبرى عدد محدود لتبيان موافقة ذلك للشريعة ، وقال فريق ثالث إن المسلسل يضع النقط على الحروف - كما يقال - فهو يكشف عن حالة التناقض والبلبلة التى تعيشها المرأة التى ترتدى قناع الإسلام (الطرحة) ثم ترفض أن تعيش فى عصور الإسلام الأولى ، وقالوا إن الطرحة سلوك ظاهرى مثل مراسيم الزواج والطلاق ، وإن كانت أقل كثيرًا فى دلالاتها ، فهى زىٌّ عربى قديم أُمرت الحرائر أن يضربن به على

جـيوبهن (أى أن يغـطين به صدورهن) تـميـيزًا لـهن عن الإماء ، حـتى 'يعرفن فلا يؤذين' ، وليست من شـرائط العقيـدة أو أركان الإسلام الخـمسة ، وليس على تاركـها حدّ، فـتركـها ليس من الكبـائر ، وارتداؤها قديم وشـائع ، ولكن الفـتاة تكتفـى بها وترفض بقية ما جاء فى تراث الملابس أو الاختلاط بالرجال وما ينص عليه الإسلام من الطاعـة للزوج و ولىّ الأمر فى كل شىء (إلا الـشرك بالله) كـما ترفض أن تعـود إلى عصر الحريم التركى أو عصر الإماء العربى ، بل وتصر على المساواة الكاملة مع الرجل ومزاحمته فى كل مكان . أما أنا فكنت أرى فـى المسلسل نغمة تورية ساخرة (irony) يقصـد بها الكاتب عكس مـا يقوله فى المـسلسل برنّة تحد سـاخرة (tongue in the cheek) حتى يثير الناس وينفّرهم من مثل هذا الاستـغراق فى الملاذ الجسدية ولو كان حلالاً ، ولقـد صارحت المـؤلف برأيى ووافقنى عليـه ، ولكن الهجوم على الـمسلسل أثبت أن أقنعه اليوم العجيبة استعصت على الانتزاع ، وكشف عن صلابه الهيكل العام، على هشاشته الظاهرة ، فكأنما أصبح على كاتب الـمسرح أو كاتب الدراما أن يواجه فيه تناقضات ثقافة حائرة ممزقة الأوصال !

ولقـد صادفت أنا هذا القناع العـجيب عنـدما كَتَبْتُ مـسرحـية **كـيلو بودرة** التى استغرَقَتْ منى وقتًا أطول مما ينبغى بسبب تعقيدات 'أقنعتها' ، فالبطلة فتحية هى نفسها الغازية فى مسرحيتى **الدرويش والغـازية** بعد أن تقـدم بها العمـر واكتسبت صـفات أم ياسين التى تحدثت عنهـا بإسهاب فى **واحات مصرية** ، فهى تمثل جمـاع قواعد الخلق الجديدة (mores) ولديها سند متين من شـخصيتها المهيـمنة، ومن الغريب أنها عندما اكتسبت أبعاد 'أم ياسين' أصبحت ترتدى قناعًا شفّافًا يكشف عن شخصيتها الجديدة - تلك التى تؤمن بالصراحة التامة ولا تعترف بالمحظورات الاجتماعية (taboos) ما دامت قد تسلحت بالنصوص المـقدسة ، ولا يجرؤ أحد على الاعتراض على كـلامها ولو مال إلى البذاءة وفقًا لتعريف الطـبقة المتوسطة خشية أن تناله بلسانهـا فلا يسلم من سخرية السـاخرين ! وأنا الآن فى حـيرة من أمـرى : هل يمكن تقـديم هذه الشخـصيـة على المسرح فى مصر - كما هى ودون تشذيب وتهذيب وتنقيح ؟

٦

ولكن ألا نستطيع أن نتساءل - بالمنطق نفسه - إن كان الفنان قادرًا على تقديم أى شخص حقيقى يعرفه فى صورة 'شخصية' درامية دون تعديل وتبديل ؟ إن للسيرة الأدبية مزية كبيرة هى الصدق ، فالكاتب يستعيض فيها بصدق التاريخ عن الصدق الفنى - بمعنى أن الأمانة فى النقل عن الحياة تعفيه من أمانة الالتزام بقواعد فنه ، فقد تقتضى هذه القواعد انتقاء خصائص دون خصائص ، أو ابتداع أحداث معينة تتجلى فيها الخصائص التى يريد الفنان التركيز عليها ، أو إقامة علائق لم تقم فى الواقع بين الشخصية المصورة وغيرها من الشخصيات، أو بينها وبين الراوى ، وفى هذا وذاك جور على الأمانة التاريخية ، فالراوى فى السيرة الأدبية مؤرخ لحياته وحياة الآخرين ، ودور الفن عنده يقتصر على الاختيار والتفسير والتنظيم ، ومع ذلك فإن هذه العوامل الثلاثة نفسها عوامل يشترك فيها المؤرخ مع الكاتب (أى مع مؤلف القصص الخيالية) مهما يكن من تحرى الأول للصدق الموضوعى ومن حرية الأخير الظاهرة فى ابتداع الأحداث وإقامة العلاقات ، فكل منهما يختار ما يكتب عنه من بين أكداس من المادة الحياتية (الحيوية) المتوافرة ، وليس فى استطاعة المؤرخ مهما يبلغ حرصه على الإحاطة والشمول أن يذكر كل شىء ، فإذا كان معاصرًا لما يؤرخ له فقد تفوته أهمية حادث شهده ، وقد يفوته العلم بوقوعه أصلاً ، وقد يسمع بوقوعه فيشك فى صدق ما سمع فلا يثبته ، وكل منهما يفسر ما يراه فى ضوء مفاهيمه وفكر عصره ، فالتفسير يخضع لفكر المؤرخ ومنطق العصر معًا ، ولذلك تتعدد صور 'الحقيقة' فى أعين المؤرخين وفى كتاباتهم ، بل قد تتفاوت تفاوتًا كبيرًا من عصر إلى عصر ، وكل من المؤرخ والكاتب 'ينظّم' المادة الحياتية وفقًا لمنهجه فى تحليل ما يحدث ، فقد يأتى بما يراه أسبابًا قبل ذكر الحادثة التى لا خلاف عليها ، فتتخذ صورتها شكلاً جديدًا بل قد تختلف تمامًا عما نعرفه أو عما جرى العرف عليه ، فالقتل بصورته المطلقة جريمة ، لكنه قد يصبح قصاصًا ، أو ثأرًا من قاتل أو ظالم ، أو يصبح إزالة لرأس الفساد ، بل قد يكون مفخرة فى الحرب ، وباستطاعة المؤرخ عن طريق التنظيم أن يتحكم فى التفسير وأن يتحكم من ثم فى تصوير الوقائع وبالتالى فى رصد 'الحقائق' التى قد تبدو وكأنما لا خلاف عليها.

وهكذا فإذا قلنا إن كاتب السيرة الأدبية مؤرخ موضوعى لم نكن نعفيه من التدخل فيما يرصده من مادة، وإذا قلنا إن الفنان مبدع يتناول مادة خيالية لم نكن ننكر الأصول الواقعية والحياتية لإبداعاته ، وعندما ذكرت خصال البواب فى بداية هذا الفصل ، ومهدت لإشارتى إلى إدمانه الكذب بأن تحدثت عن عين الكاتب وقدرتها على إقامة المسافات بينه وبين ما يرى ومن يرى بحيث يستطيع أن يرى الكذب من وجهة نظر الكاذب نفسه وقد أصبح صفة 'محببة' ، كنت فى الواقع **ألمح** إلى أن نقيصة الكذب قد تصبح فضيلة الخيال حين ننظر إلى الكاذب باعتباره مبدعًا ، فأعذب الشعر أكذبه ، ومؤلف القصص الخيالية لا يزعم أنه يروى **قصصًا** حدثت ، **فهو** 'كاذب' فى كل شيء يرويه وصادق فى فنه وفكره كل الصدق مع نفسه ، ولقد سبق أن ألمحت إلى أن الخيال عنصر أساسى من عناصر حياة المصرى الصميم ، فلقد استعاض به على مر تاريخه الطويل عن واقع مُرّ أليم ، فأبدع حكايات **ألف ليلة وليلة** التى تسودها اللهجة المصرية وسُجّلت أى دُوّنت فى مصر إبان القرن السادس عشر ، واستعان به فى فكاهاته التى اشتهر بها بين الشعوب العربية بل وفى العالم كله ، كما استفاد به فى صنع الأقنعة التى تعتبر دروعًا تحميه من غوائل الحياة ، ولقد **أَفَضْتُ** فى دور الخيال فى الشخصية المصرية فى مقدمتين بالانجليزية الأولى لترجمة رواية **وقائع حارة الزعفرانى** لجمال الغيطانى والثانية لترجمة **السماء السوداء** وهى المجموعة القصصية التى أبدعها محمود السعدنى ، ولن أضيف هنا إلا كلمات محدودة عن دور الخيال فى صنع الأقنعة المصرية التى يواجهها كاتب المسرح .

كان رشاد رشدى - رحمه الله - يقول إن كل إنسان يتكون من أربعة صور : أنا الذى أعرفه وأنا الذى أجهله ، وأنا الذى يعرفه الناس وأنا الذى يجهله الناس ! ولكن هذه الصور متداخلة إلى حد بعيد فالذى أجهله قد يجهله الناس أيضًا ، وقد يكون أنا الذى أعرفه هو ما يعرفونه بفضل القناع الذى أضعه على وجهى طول الوقت ، وكثيرًا ما أنظر إلى السابلة فى الطريق فأرى ما وصفه الشاعر وردزورث عندما زار لندن لأول مرة بأنه (volumes of mystery) أى 'مجلدات من الأسرار' ويقصد بالتعبير أن كل وجه كتاب مغلق على ما فيه من أسرار ! لكننى كنت أجد فى مصر أقنعة ليس من العسير أن تعرف ما تحتها إن بذلت الجهد اللازم لإدراك دور الخيال فى حياة الفرد ، ولنقل على سبيل التبسيط إن الخيال سوف يصنع للفرد الصورة التى يريد أن يرضى

عنها وأن يعرفها الناس عنه، حتى ولو كان يتمتع بقدر كبير من الوعى يمكّنه من إدراك زيف هذه الصورة . وإذا صحّ أن المقارنة أقدر إيضاحًا للصورة من التحليل (فبضدّها تتبينُ الأشياءُ كما يقول المتنبى) فلنا أن نحاول ذلك بأن نضع صورة المصرى بجوار صورة الانجليزى مثلاً ، فلكم شهدت من أبناء انجلترا من هم على استعداد للاعتراف بجهلهم أو بضآلة ذكائهم ، وأذكر أننى فى أول عهدى بالعمل فى انجلترا انخرطت فى مناقشة مع سكرتيرة تعمل فى قسم الترجمة ، ولما زادت المناقشة عن العبارات العامة وجدتها تصمت فجأة وتقول ما معناه إنها تأسف لعدم مجاراتى فى النقاش وأردفت قائلة "I'm sorry ! I'm not brainy !" (أى إننى محدودة الذكاء) وأما المصرى فما أندر أن تصدر عنه عبارة مماثلة ، وما أندر أن يعترف بجهله بالموضوع ، أى موضوع ، فهو على استعداد فى معظم الأحوال لإبداء الرأى والإفتاء فيما يعرف وما لا يعرف ! وكلنا يعرف رد الفعل المصرى المألوف عند طرح سؤال ما ، مهما يكن ، بل حتى عندما تذكر ولو بصورة عابرة أنك مريض – إذ لن تعدم من يتطوع للإجابة أو لوصف الدواء الكفيل بشفائك ، وقد دفعنى ذلك إلى التفكير فى علاقة ذلك بالقناع والخيال !

ولننظر أولاً إلى المثل الشعبى الشهير "أكبر منك بيوم يعرف عنك بسنة" أى إن التقدم فى العمر يزيد الخبرة أى يجعل الإنسان خبيرًا (بماذا ؟) والله تعالى يقول وما ينبئك مثل خبير ، وإذن فإن التقادم هو سبيل المعرفة ، والتقادم الذى أعنيه هو 'كر الغداة ومر العشىّ' (الذى 'أشاب الصغير وأفنى الكبير' كما يقول أبو العلاء المعرى) لا المصطلح القانونى (أى statute of limitation) فهو يأتى فى نظر المصرى بالحكمة (و'اسأل مجرب ولا تسأل طبيب') وربما كان فى هذا أصل نزوع بعض المصريين إلى التظاهر بالمعرفة أو – على الأقل – بالذكاء الذى قد يُغنى عن استقاء المعرفة من الكتب. والحق أن المصرى ذكى، بل قد يفوق ذكاؤه متوسط الذكاء عند شعوب كثيرة، ولكن التاريخ جعله يستعيض بخياله 'الذكى' عن افتقاره إلى المعلومات الموثوق بها، فهو إما لا يجد السبيل إليها بسبب حرمانه من التعليم، أو أنها ممنوعة عنه لأسباب سياسية أو اجتماعية ، وليس له إلا أن يُعمل خياله ويسرف فى ذلك وليس له من سند فيما يرسمه من صور سوى شذرات أحاديث سمعها من الناس، أو نتف من المعلومات غير المؤكدة التى تلقاها من أجهزة الإعلام، ولكنه ينسج منها نسيجًا كاملاً متجانسًا وينقله إلى غيره، ثم تدور القصة دورتها على الأفواه، وقد يسمعها مُنْشِئُها من جديد باعتبارها حقيقة مؤكدة أدلى إليه بها من هو مُطّلع على بواطن الأمور! وعندها قد يقول

القولة المألوفة "مانا عارف" التى تعنى بالعامية المصرية "أعرف ذلك" أو قد يصيح فى أعماقه صيحة هاملت"يا لقدرة روحى على التنبؤ!"["Oh my prophetic soul !"] .

وأما الجديد فى هذا القناع القديم فهو ما أشاعه ما يسمى بالخطاب الدينى من يُسر حصول المؤمن على العلم اللدنِّى وهو العلم الذى يتنزل على المرء دون قراءة ، بل يأتى بالصلاة والصوم وطاعة الله وقد أحب بعض المصريين هذه الفكرة وترسخت لديهم وخصوصًا بعدما انتشر "الدعاة" الذين لم يتخصصوا فى الفقه ولا فى أصول الدين بل يكتفون بترديد آى الذكر الحكيم منتزعًا من سياقه وبعض ما يسمعونه من المتخصصين ، وارتداء قناع الهداة الصالحين . وازدادت عناصر هذا القناع صلابة عندما أقام هؤلاء القياس بين اليقين الذى يهبه الإيمان الدينى، وهو يقينٌ مطلق ثابت دائم ، لأنه قائم على منطق الروح وهو منطق الفطرة الإنسانية السليمة فى كل زمان ومكان ، وبين سائر أنواع اليقين، سواء ذلك الذى يقوم على العلم التجريبى ، الذى يكتشف الإنسان به قوانين الطبيعة التى خلقها الله ، أم ذلك الذى نستمده من دراسات العلوم الإنسانية ، ومن بينها اللغات، وهو يقين نسبىّ لأنه يتفاوت من دارس إلى دارس ومن منهج إلى منهج ، إذ أصبح اليقين فى كل شىء عنصرًا ثابتًا من عناصر القناع الجديد .

كيف يخاطب كاتب المسرح جمهورًا يرتدى كل هذه الأقنعة المركبة ؟ إن من أشراط فن المسرح الذى نعرفه، أى الذى استوردناه من الغرب ، مخاطبة جمهور على استعداد لتلقى العمل المسرحى بذهن خالٍ من الأحكام المسبقة (with an open mind) لمدة ساعتين أو ثلاثًا، أى جمهور ينزع أقنعته مؤقتًا حتى يتيح لنفسه أن يتفاعل ذهنيًا وشعوريًا مع ما يشاهد وما يسمع ، ونحن ننجح فى ذلك فى مصر حين نقدم مسرحيات أجنبية لأن المتفرج يعلّق أو يجمد (suspends) أحكامه بسبب المسافة الثقافية التى تفصل بينه وبين ما يرى ، وننجح حين نقدم أعمالاً تاريخية لأن المسافة الزمنية المفترضة لا تتطلب أى مساس **بالأقنعة** ، سواء أكانت الأحداث تاريخية مباشرة (أو قل مستوحاة من أحداث التاريخ) أم مستقاة من **ألف ليلة وليلة** وتراث الأدب الشعبى، حتى لو كان العمل يتضمن 'إسقاطات' على الحاضر ، وننجح فى الهزليات التى تقيم مسافة ذهنية وشعورية مؤكدة بين العرض والجمهور بحيث تسمح ببقاء الأقنعة فى أماكنها، وأما ما كنت أطمح إليه فى مسرحياتى التى تستقى مادتها من حياتنا المعاصرة مثل **المجاذيب والدرويش والغازية** ثم **كيلو بودرة** (بخلاف **الغربان وجاسوس فى قصر السلطان**) فلقد واجه مشكلة لا تكمن فى تجميد الأقنعة ، ناهيك بنزعها أو

الوصول إلى ما تحتهـا ، بل فى التصدى لعناصر الأقنعة نفسها ، فلقـد كانت مواجهة هذه الأقنعة المركبة - ولا تزال - شغلى الشاغل .

ولابد لى الآن من إيضاح ما أعنيه بالتصـدى لعناصر الأقنعة . سوف أفترض بدايةً أن معظم الأقنعة التى أواجهها فى المسرح - أى فى الصالة - تتكون من أفكار رسخت فى الأذهان حتى وصلت إلى حد الاقتناع الكامل بهـا (وهى التى يطلق عليها أهل الشام 'القناعات' convictions) بعضـها عام وشائع (مثـل المعتقدات الـدينية والاجتمـاعية الخاصة بالتمييز بين الجنسين مثلاً) وبعـضها خاص يتعلق بتطبيق هذه الأفكار وتفسيرها من وجـهة نظر كل فـرد على حدة . ولأفـتـرض ثانيًا أن معظم هذه الأقنعـة 'مُركّب' تتداخل فـيه الأفكار العـامة مع الأفكار الخاصـة بحيث يصعب علـى الكاتب أن يواجه الخاص دون التـعرض للعام ، وقد يكون هذا طبـيعيًا بل قـد يكون القانون الذى يحكم صنعة أى كاتب مسرحى ، ولكن هذين الافتراضين يكتـسبان أهمية بالغة عندما يتعرض الكاتب لمحـاولة نزع الأقنعة عن طريق تفـتيت بعض عناصرها حـتى يصل إلى النفس العارية لإحداث ما يريد من تأثير ، فقد يجد نفسه مضطرًا إلى 'تكييف' نغمته فى البداية لتتفق مع الأقنعة العامة ، قـبل أن يقدم على الدس فى ثنايا تشكيله للمادة وتصويره لها بما قـد يثير التـساؤلات عن صحة بعـض العناصر أو طرح الشكوك فى بعضـها ، مع الإبقاء على إمكان ثباتها وصـحتها فى التحاور الدائب المتـصاعد بين أطراف الصراع ، وكلما تعمق التجـاذب والتحاور (وهذا غير الحوار) بين الأطراف ازداد انغـماس المشاهد فيما يشاهد ويسمع وربمـا نجح العمل فى الوصول إلى نفس المشاهد من وراء القناع ، وذلك أقصى مـا يتمناه الكاتب حـتى إذا كان واثقًا من أن المـشاهد سوف يعـيد وضع القناع على وجهـه والتدرع به بقوة بـعد إسدال الستـار ! والواضح أن الكاتب ذا الرؤية الخاصـة يواجه عمـلاً شاقًا فى 'التعامل' مع هذه الأقنعـة ، فـإذا كان علـيه أن يواجـه الجمهور فى عرض حىّ فى المسرح تضاعفت مـشقة عمله ، بسبب تضافر عوامل أخرى فى تقديم كلامه (أى مـادته الفنية) إلى الجمهور ، مثل المـمثلين وعناصر الإخراج من حركة ومناظـر وموسيقى ، وهى العوامل الـتى قد تُضعف من عمله أو تدعـمه ، وربما وجد السلامة فى نشر النص أو هجر المسرح إلى فن يستطيع فيه أن 'يتعامل' مع الأقنعة دون ضغط الآنيّة المسرحية ، قانعًا مثل الشاعر أو الروائى بمئات بدلاً من آلاف القراء، وآملاً أن يزداد عدد قـرائه على مر الزمن، وهو الأمل الذى كثيـرًا ما يكون فى حقيـقته

سرابًا خادعًا ، فالقراءة عادة منقرضـة فى بلادنا ، والفصحى مغتربة بين أهلها ، ويزداد اغترابها يومًا بعد يوم ، ولكن الكاتب يواصل الكتابة مهـما يكن مصير ما يكتب ، وما هذه الملاحظات إلا ثمـار تأمل الماضى الذى لا يتكرر أبدًا ! وأذكر أننى عندمـا قرأت كتب أحمد أمين فى منتصف الثمانينيات قلت فى نفسى لو عاش هذا الرجل فى بلد آخر لأقامـوا له تمثالاً أو لأطلقـوا اسمه على مـآثرهم الخالدة ، ولكن الأقنعـة أوجدت من يهاجـمه ، وبرز من الأراذل من يطعنون فى عبقـريته ، حتى أصبح الصـمت عن ذكره فضيلة ، ولم تعد صورته تنشر إلى جوار طه حسـين والعقاد وغيرهما ، وكاد أن يبتلعه بحر النسيان ، بسبب طغيان الأقنعة الجديدة .



وإذا كان حديثى عن الأقنعة يبدو غامضًا لأنه يعمّم ولا يخصّص ، فسوف أركز فى هذا الجزء على أقنعة معينة لأشخاص عرفتهم على امتداد عشرات السنين ، واقتربت من بعضهم اقتـرابًا شديدًا إما بسبب 'الظروف' التى جـمعتنى بهـم فى العمل أو فى غـير العمل ، وإما لرغبـتى فى استكناه ما تخفيه الأقنعة وطلبى معـرفة تلك الخبايا ، وبعض هذه الأقنعة رقيق أو هو شـبه شفاف ، وبعضـها غليظ مصمت مركبٌ معـقد ، وسوف أتناول هنا النـوعين جـمـيـعًا ، دون أن أنتـهج منهج البـاحث العـلمى فى التـصنيف والتبويب ، بل سأرصد الصور التى تلوح لى وتـلح على ذهنى رغم افتراقى عن أصحابها وما يفصلنا من مسافات ، وهى التى أطلقت عليها صفة 'اللوحات' ، أو الحكايات وفقًا لقانون التداعى الحـر المعروف ، ولقد سمـحت لنفسى بابتسار الأسماء أو حـذفها دون التفاصيل ، فأصـحابها يعيشون بيننا وقد يتأذّوْن من هذا الحـديث الصريح - وأخشى ما أخشاه أن تفصح التفاصيل عما أخفيته بإخفاء الأسماء الحقيقية .

القناع الأول ترتديه فتاة تتلمذت على يدى يومًا ما ، ثم عـملت بالتدريس فترة بعد التخرج ، ثم ساقها طموحها إلى إعداد رسالتى الماجستير والدكتوراه فى نهاية المطاف ، وكانت تستعيض عن تواضع مستوى ذكائهـا وفطنتها بالقراءة وتجميع المعلومات ، ولو أن مستواها فى ذلك المسعى كان متـواضعًا هو الآخر ، ولكنها تسلحت بالصبر فدأبت على مخالطة الأكاديميين تلتقط من أفـواههم الأفكار ، وتختزن فى ذاكرتها ما يمكن أن يفيدها فى دراسـتها العالية ، وكانت فى السـادسة والعشرين عندما التـحقت بالدراسات

العليا المؤهلة للماجستير ، وكنت أنا قد عدت لتوى من انجلترا أقضى ساعات طويلة مع طلابى ولا أضِنُّ عليهم بالشرح وإعادة الشرح ، وكنت ألاحظ أنها تكتب كل كلمة أقولها بل وتسجل أسئلة الطلاب لى وإجاباتى عليها ، فتوسمت فيها خيرًا ثم انقطعت أخبارها إلى أن عدت لمشاهدتها والحديث معها عرضًا فى الثمانينيات ، ثم توثقت علاقتنا بعد الجراحة التى غيّرت من مظهرى ، وأخيرًا وبعد عشرين سنة ونيف من الصبر والمثابرة حصلت على الدكتوراه ، وما لبثت - وقد ناهزت الخمسين - أن عُيّنت مدرّسه فى إحدى الكليّات بجامعة إقليمية .

وكان سبب توثيق العلاقة حاجتها إلى المراجع والمشورة العلمية ، فكانت تزورنى أو تحدثنى تليفونيًا وكان الحديث يتشعب ويتفرع ، فالحديث ذو شجون كما يقولون - حتى استطعت أن أرسم صورة هى أقرب ما تكون إلى ما هى عليه فى الواقع ، وأن أتبين بوضوح ملامح القناع الذى ترتديه ، فهى فى الواقع 'متوسطة' (mediocre) فى كل شىء ، فى الطاقات الذهنية (الفكرية والإبداعية واللغوية) والنفسية (رحابة الصدر وسعة الأفق) وفى الجمال والمظهر فهى غير ذات حسن ، عظيمة الجرم ذات طول فارع، وأما قناعها (persona) فكان يضم ضروبًا منوعة من الصفات التى تتناقض مع الواقع ، ولقد شهدت بعض مراحل تكوين هذا القناع ، فلم يكن فى البداية إلا صورة مؤقتة لطموحها ولما تتمنى أن تكونه ، إذ كان يقول إننى جميلة ومجتهدة وذكية وأُبشّر بالخير وعندى بعض المواهب ، وبعد خطبة غير موفقة ، أى لم تؤد إلى الزواج ، أصبح القناع يقول - إلى جانب ذلك - إننى عروس مثالية أتمتع بأسمى الأخلاق وأفضلها ، وكانت تُسرّ إلىّ برغبتها فى أن تقترن بشاب لم يسبق له الزواج ، وكنت أتعاطف مع رغبتها المشروعة ، لكنها ما إن حَصَلَتْ على الدكتوراه حتى أصبحت الصورة المؤقتة صورة دائمة ثابتة لا تتغير بتغير الأحوال ولا بتقدمها فى السن ، ولم أكن أستطيع أن أبين لها صعوبة الإصرار على الاقتران بشاب يصغرها بسنوات كثيرة ، إذ كان قناعها يؤكد لها إمكان حدوث ذلك ، بل كانت كثيرًا ما تقص علىّ أقاصيص من 'تقدم' لخطبتها فرفضته لأنها اكتشفت أنه سبق له الزواج ، وكانت تصف هؤلاء بأنهم أزواج 'سكند هاند' (second hand) أى 'نصف عمر' وهو تعبير ممجوج فالإنسان ليس سيارة ، ثم حدث ما يشبه المعجزة حين ترددت أنباء خطبتها إلى شاب يصغرها ولم يسبق له الزواج ولا حاجة به إلى الأطفال ، فحمدتُ الله وهنأتُها مع من هنأها من الأصدقاء .

ولم تمض شهور حـتى تدخل القناع ! إذ كلمتنى بالتليفون لتقول لـى إنها فسخت الخطبة لأنهـا اكتشفت أن خطيبـها يطمع فى شقتـها ، أى يريد أن يقيم معـها ، فهى تعيش بمفردها فى شقة الوالدين اللذين توفـيا ، وإنها لا تقبل إلا من يريدها لنفسها لا للشقـة ، ثم عَدَّدَتْ مناقبهـا (عناصر القناع) وكانـت فى شبه ثورة ، فـانطلقت تهاجم الغش والخداع ، وكيف أن خطيبها كان يـتحدث عن الحب والإعجاب وهو يُمنّى نفسه بالشقة ، وقلت لها بعـد أن أفرَغَتْ شحنة الغضب فهَدَأَتْ : ''وما العيب فى أن تعيشا معًا فى شقتك ؟ أَلَمْ يسمح المجتمع بالمساواة بين الرجل والمرأة فأتاح لك جميع مزايا الرجل القديمة من التعليم والعمل والاختلاط ؟ لماذا لا تسمحين إذن بالتعاون معه على مواجهة تكاليف العيش ؟'' ولكنهـا عندمـا ردّت علىّ كان القـناع هو الذى يتكلم ، إذ قالت : ''أفلا يحمد الله أننى قبلت الزواج منه وأنا الدكتورة فلانة ؟ أفلا يُقدرّ قبولى أن أظهر معه فى المجتمع ؟ ثم إنه ليس وسيمًا ولا جذابًا . . بل هو أقصر منى وأنحف ! لقد قـدمت تنازلات كثيرة ، وكـان عليه قبل أن يطمح فى الاقتـران بى أن يُعد لنا عش الزوجية اللائق حتى نبدأ حياتنا معًا'' . وكدت أضحك من تعبير 'العش' وما أعقبه من أمل فى البـداية الجديدة بعـد الخمـسين ، ولكننى تمـالكت نفسى وأصـررت على أن أنصحها بالتروّى مع إدراكى لصلابة القنـاع ، وهو قناع شفاف كما قلت ، قناع رقيق لا يصـعب على العـين أن ترى الواقع من تحـته ، ومع ذلك فلقـد انتـصر ، ومـا زالت صاحبتنا تبحث عن شاب تجـتمع فيه كل الصفات 'المطلوبة' لإرضاء القناع العجيب ، بعد أن أضـافت مطلبًا جديدًا يـتفق مع 'الطرحة' التى أصبـحت ترتديها ، وكـانت قد جرّبتها من قبل ثم عدلت عنـها ، ولكن إضافتها مطلب 'الاستقامة' هذه المرة أكد لى أنها لن تتراجع الآن أبدًا ، وقالت لى حين قابلتها مصادفة (بعد ارتدائها القناع الجديد) برنة تفاؤل وبســمة صافـية ''ما أكـثر الشبـان من ذوى الاستقـامة الذين يبحـثون عن الأخلاق . . والأخلاق فقط !'' ووافقتـها بسرعة وإن همس فى خـاطرى هامس خبيث أضاف ''ولا يملكون ثمن شقة أو إيجارها !'' .

وأما القناع الثانى فينتمى لرجل تنبه لوجوده بعد الخمسين فنزعه وألقاه وقرر الحياة فى الواقع ، بعد أن ذاق منه الأمرّين ، وكان صاحبنا قد بدأ حياته عاملاً يدويًا ، إذ فاته قطار التعليم ، ولكنه كـان ينتمى إلى الطبقـة المتوسطة فعـزّ عليه أن يقنع بذلك ، ولم تكن الفرص مـتاحـة فى الستيـنيات للعمل الحـر أى للتجـارة أو ما كان يسـمى بنظم 'الرأسمالية الوطنية' ، وبعد سنوات من العـمل اليدوى لاحت له فرصـة الانخراط فى

العمل الحزبى ، وكان الحزب الوحيد المتاح هو 'الاتحاد الاشتراكى' ، فانضم إليه بناء على نصيحة قدمها له كاتب مرموق يعطف على طموحه ، ولما كان تمثيل العمال واجبًا فى الوحدات الصغيرة لذلك الحزب فقد اختاره رئيس الوحدة لتمثيل العمال لما رأى فيه من الجد والاجتهاد ، وسرعان ما أثبت جدارته بالعمل الحزبى فارتقى فى سلم المناصب الحزبية بعد أن دعّم علاقته بالمسئولين 'الواصلين' ، فأصبح الموظفون فى الهيئة التى يعمل بها يخشون جانبه ، بل إنهم نقلوه إلى وظيفة كتابية اسمية ، أنقذته من العمل اليدوى ، وأتاحت له حرية الحركة ومراقبة العاملين والإبلاغ عن أى تقصير منهم ، أو أى انحراف عن الخط السياسى القويم ، وذاع صيته فى الوحدة ، وساعدته الظروف من جديد حين ترقى رئيس الوحدة فأصبح عضوًا فى اللجنة المركزية ، ومن ثم عيّنه نائبًا لرئيس الوحدة 'المثقف' ، وأوصاه بأن يكون العين التى يبصر بها كل ما يدور فى تلك الهيئة الكبيرة ذات الحساسية السياسية ، ونفّذ صاحبنا ما طُلب منه وهو راضٍ قرير العين ، فلبس قناع الاشتراكية المتين ، وكان - والحق يقال - صادقًا مع نفسه ، إذ كان يؤمن بكل ما يقال ، ولكن الإحساس بالقوة لديه ازداد فكان يستطيع أن يقتحم غرفة رئيس مجلس الإدارة ضاربًا الباب بقدمه (كما قال لى) فيقوم الرئيس مُهلّلاً مُرحّبًا ، وكان يحضر اجتماعات مجلس الإدارة وتلتقط أذنه كل صغيرة وكبيرة مما يدور من مناقشات ، وأصبحت لديه مفكرة يدوّن فيها ملاحظاته ، واكتشف آنذاك قدرته على الكتابة ، وعَشقَ ذلك الفن الذى كان جديدًا عليه، وبدأ يعرف لونًا آخر من ألوان الطموح ، ألا وهو طموح الشهرة وذيوع الصيت ، لم لا وكل من يقرأ لهم لا يقولون أكثر مما يعرفه خير المعرفة ، إذ عكف على الكتب الأساسية فى المذهب الاشتراكى وروافده فكاد يستظهرها ، بل إن صوته بدأ يعلو على صوت رئيسه فى 'الوحدة' الحزبية، وغدا يجد آذانًا صاغية لكل ما يقول ، و'أعجبته اللعبة' (على حد تعبيره) ولم يجد فى الطموح السياسى ما يتناقض مع مبادئه فخروشوف كان فلاحًا ، والعبرة بالمبادئ لا بالتعليم ، وآن الأوان - قال فى نفسه - للتغلب على عقدة الشهادات .

وكانت نكسة ١٩٦٧ على مرارتها خيرًا وبركة عليه إذ ألقت على كاهله وعلى كاهل كوادر الحزب من الشباب الطامح مهمة إعداد الشعب 'لإزالة آثار العدوان' ، وكان قد حصل على الثانوية العامة 'من منازلهم' وانتسب إلى إحدى الكليات النظرية التى لا تتطلب الحضور إلا لأداء الامتحان ، وشجعه نجاحه فى الدراسة على مواصلة الجد

والاجتهاد ، وتشعّبت علاقاته بمنظمات الشباب التى أنشأها الزعيم الخالد فأحس بأنه على مشارف عهد جديد يؤذن بتحقيق أحلامه التى لا حدود لها . ولم يكن ينظر إلى الإجازة الجامعية التى يعمل فى سبيلها إلا باعتبارها وسيلة لتدعيم موقعه فى الحزب إذ ربما نقلته من تمثيل العمال إلى تمثيل المثقفين ، ومن يدرى ، لعلها تأتى بمنصب أكبر من كل أحلامه !

وقال لى فى لحظة صدق ذات يوم "أنت لم تكن معنا فى تلك الأيام ، فاسمح لى أن أنقل لك إحساسى وإحساس الكثيرين الذين تأكدوا أن الهزيمة العسكرية فى موقعة واحدة لم تكن هزيمة بالمعنى المفهوم لأننا لم نحارب [وقد تأكدت من صدق ذلك وأنا فى لندن] وأنه آن لنا أن نأخذ زمام المبادرة حتى نحارب العدو فى الوقت الذى نختاره وبالأسلوب الذى نحدده ! وعندما حصلت على البكالوريوس لم أفرح به فرحتى بإعداد الشباب ذهنيًا ونفسيًا للمعركة ! لقد كانت أيام عمل مجيدة" وهكذا بدا أن كل شىء يسير وفق مراميه ، فتزوج من فتاة تصغره بنحو سبع سنوات أو ثمان ، واستأجرا شقة فى موقع جميل ، ثم توفى الزعيم الخالد.

كانت الصدمة أكبر مما يُحتمل ، وكان التغيير الذى طرأ على الحياة العامة فى مصر سريعًا ومفاجئًا ، فتعرض لأهوال متعاقبة ، وكانت السّهام التى يتصدى لها تهزّ قناعه هزًا بل وتخلخله ، فقرر الانحناء أمام العاصفة والتنازل عن بعض عناصر القناع ، وكانت مساءلة النفس تستغرق منه وقتًا طويلاً ، فالمستقبل غامض مبهم ، وكل شىء فى مهب الريح ، وشعوره بالوحشة يزداد فى كل يوم. وعندما انفتح باب السفر إلى البلاد الأجنبية فى مطلع السبعينيات ، وانطلق المصريون إلى الخارج دون قيود - إلى أوروبا وأمريكا وكندا مهاجرين ، وإلى البلاد العربية عاملين بعقود أو معارين - قرر أن يسافر هو الآخر وظل يترقب الفرصة المواتية حتى لاحت ، فاصطحب زوجته إلى بلد عربى شقيق ، ووجد لها عملاً حيث يعمل ، وهناك عكف على عناصر قناعه يعيد ترتيبها بل وطرح بعضها للنقاش من جديد ، وكان أشق عمل يواجهه هو محاولة التخلى عن حلم القوة ، أو تعديل مفهوم القوة حتى يستبدل بقوة السلطة قوة المال ، وبلذة المكانة الاجتماعية متعة الهناء العائلى ، فهو زوج مخلص ولديه طفل جميل ، ويكفى أنه ابتعد الآن عن الجو القديم وفيه ولا شك من يريدون 'الانتقام' .

وقد يطول بنا الحديث إذا تابعنا مصير صاحبنا ، وأخشى أن يتعرف على نفسه إن أنا واصلت الحديث ، أو أن يتعرف عليه أحد ، ولذلك فسوف أركز على معركته الأخيرة مع قناعه فى أواخر السبعينيات . كنا فى أكتوبر ١٩٧٨ حين زارنى فى المنزل لأول مرة مع زوجته ، واتفقنا على اللقاء يوم الجمعة ، وكان يقضى فى مصر عطلة قصيرة ، فخرجنا إلى مقهى على شاطئ النيل ، وشعرت باطمئنان شديد إلى لهجته الهادئة فى الحديث وفرحت برغبته فى الإفضاء ، ففتحت أذنى وقلبى ، وجعلت أعبُّ كلامه عبًا ، وأحاول استيعاب كل حرف يقوله، كأنما عثرت على كنز ثمين من 'المادة الإنسانية' ، وهاك موجز ما رواه على امتداد ساعات طويلة .

قال إنه أحس فى البداية بالغربة على شتى مستوياتها ، فلم يكن من السهل عليه أن يتحول إلى مواطن عادى لا سلطان له ولا علاقة ل- قطعًا- بالحياة السياسية فى البلد، فهو ضيف يؤدى عملاً محددًا وعليه ألا يتجاوز حدوده، وكانت 'أمجاد' الماضى تلوح له فتُدمى قلبه، وكانت الأيام تجرى به لاهثة دون أمان وأحلام فأحس كأنه يركب قطارًا يسرعبه إلى نهاية مثل نهاية كل فرد لم يجتهد ويكافح، فعقد العزم على أن يكسر طوق العزلة، وأن يقهر الحصار المفروض عليه، وساقت إليه المصادفة فرصة نادرة، إذ اكتشف أن رئيسه فى العمل يعيش فى محنة لأنَّ الرؤساء الكبار يرون أنه ينحدر من قبيلة خاملة الذكر، ومن ثم لم يكونوا يرونه أهلاً لشغل منصب أعلى،ناهيك بالاحتفاظ بمنصبه، وكان شغله الشاغل آنذاك أن يدحض ذلك الرأى،وأن يثبت أنه ذو حسب ونسب، وكان المال يتدفق بين يديه، وكل ما يعوزه هو الباحث فى الأنساب القادر على إثبات انتمائه إلى 'بيت عز ومجد'، وهكذا قرر صاحبنا أن يصبح هذا الباحث .

لم تكن المهمة يسيرة ، إذ كان عليه أن يستعين بباحث حقيقى ، فطرق أبوابًا كثيرة ، وسلك دروبًا متعددة ، حتى ساق إليه الحظ أستاذًا فى التاريخ من بلد عربى آخر ، كان يحضر مؤتمرًا عن تاريخ المنطقة ويطمح فى أن يحصل على عمل فى ذلك البلد ، وله دراية لا بأس بها بأنساب القبائل ، فوثّق علاقته به إبان أيام المؤتمر ، وحصل له على العمل الذى يتمناه شريطة أن يساعده فى بحث قال إنه يقوم به فى الآثار، ولم تلبث الأحداث أن أتت بما لم يكن يتوقع. قال :

''أعددنا مشروعًا للبحث فى آثار منطقة صحراوية صخرية مهجورة ، وكان المعروف فى تلك البلد أن بها نقوشًا كثيرة ، وربما تكون بها مخطوطات دفينة أيضًا ، ولم يبخل المسؤولون علينا بالمال ، إذ كانوا ينفقون بسخاء على العلم والتعليم، خصوصًا فيما يتعلق بتاريخ بلادهم ، واستمرت بعثة البحث فى التنقيب شهورًا ، وتوليت أنا تسريب الأنباء إلى الصحف المحلية عن نشاطها ، والإيحاء بأن البعثة قاب قوسين أو أدنى من اكتشاف مثير ، وسمع بعض الخبراء الأجانب بعملنا فجاءوا لزيارة الموقع ، ونشر بعضهم فى صحف بلاده أنباء عنه ، فبدأ اسمى يلمع فى مقر عملى وبين الرؤساء باعتبارى مدير المشروع ، ولكننى كنت أوجس خيفة منهم ، فربما فطن أحدهم إلى سرى الدفين ، ولم أكن بُحْتُ به لأحد ، حتى للأستاذ الذى كان قد أصبح ساعدى الأيمن ، فآثرت الكتمان فى كل شىء ، وكنت أرتدى قناع الباحث طول الوقت وأحرص على عدم الزج باسم رئيسى فى الموضوع حتى لا يتطرق الشك إلى نفس أحد ، وكنت فى غضون ذلك أستقى العلم بالبحث الأثرى من الأستاذ الذى يعمل معى ، متحصنًا بالكتمان الشديد ، حتى انقضى نحو عام كامل ، ولكن اليأس لم يتطرق إلى قلبى قط ، إذ كنت أُومن إيمان المصرى القديم بالعمل ، كما اكتشفت شغفى بالتاريخ العربى والإسلامى ، وبدأ اسمى يظهر فى الصحف المحلية ، وهو ما عوضنى بعض الشىء عن الغربة ، وإن كنت أخشى أن تذهب جهودى عبثًا فأفقد عملى وأعود إلى مصر خاوى الوفاض، وكانت تعترينى حالات ضيق وبرم ، إذ أذكر الماضى ويجرفنى الحنين إليه ، وأتأمل الحاضر فأتساءل عن المصير الغامض لهذه 'المغامرة' ، فأبيت مهمومًا أطوى السر بين جوانحى وأطلب النوم فيستعصى علىّ .

''وفى ليلة زاد الهم فيها واشتد ، قررت أن أعود إلى مصر ، وناقشت الأمر مع زوجتى، فأبدت الموافقة أولاً ثم اعترضت برفق وساقت بعض الحجج التى رأيتها مقنعة، فنحن لم ندخر ما يكفى من المال لإنشاء مشروع خاص بنا ، وابننا ما زال صغيرًا يحتاج إلى تأمين مستقبله، وعندما طال النقاش أفرغْتُ ما فى صدرى ، وأشركتها فى أمرى ، فما كان منها إلاّ أن قبّلتنى فى جبينى مثلما تقبّل طفلها وقالت لى 'إذن يفتح الله عليك ولا يضيع الله عمل عامل !' باغتتنى هذه العبارة ، فلم يكن للإيمان الدينى وجود كبير فى حياتنا ، وهزت رنة الصدق جوانحى هزًا ، ووجدت الدموع تنساب من عينى رغم أنفى ، ولم أدر إن كانت دموع فرحة بالإيمان الذى أشرق فجأة فأنار جوانب نفسى ، أو دموع امتنان لهذا الحب الصادق ، أم دموع حزن على

حالى وما أنا فيه ، فلقد اختلطت فى نفسى المشاعر وامتزجت ، فخرجت إلى الشرفة رغم الحر اللافح حتى بالليل ، وجعلت أرقب السماء والنجوم حتى غلبنى النعاس.

''وعندما عدنا بعد عطلة نهاية الأسبوع إلى العمل فى الموقع ، وحان موعد الشاى فى نحو العاشرة صباحًا ، قال لى مساعدى - أستاذ التاريخ - فى غمار الحديث عن قيظ الصيف ولهيبه : 'سمعت أنك تبحث فى أصول قبيلة (. . . .)' ونظرت إليه مشدوها ، وحدست على الفور أن زوجتى أخبرته أو أخبرت زوجته ، فأُرْتج علىّ وتلعثمت ، وقبل أن أرتب أفكارى لإعداد الرد 'المناسب' أردف قائلاً وهو يرشف الشاى دون انفعال 'لماذا لم تسألنى قبل الآن ؟' - وبعد لحظات قلت له إننى كنت أتمنى أن يؤدى البحث الأثرى إلى اكتشاف علمى يؤكد عراقتها ، فضحك وقال 'وهل هذا فى حاجة إلى دليل ؟' ودارت بى الأرض وأحسست أن كل شىء يهتز فى ناظرى، وتراقصت صور التلال التى تلوح على البعد فى السراب إذ كنا فى شهر يوليو وكنا نبدأ العمل مع تباشير الفجر وننتهى عند صلاة الظهر ، وأمسكت رأسى بيدى محاولاً مواجهة الموقف بما أستطيعه من ثبات ، وقبل أن أتكلم قال لى إن لديه الأدلة الدامغة على عراقة تلك القبيلة وجذورها الموغلة فى القدم ، وإن البحث الذى نقوم به لابد أن يسفر عن بعض آثار تلك القبيلة وغيرها من القبائل العريقة ، بل إن الجدران التى كشفت الحفريات عنها تحمل نقوشًا باللغة القديمة التى كانت تلك القبائل تتكلمها ! وسألته إن كانت اللغة عربية فقال إنها عربية ولكنها متأثرة ببعض لهجات الشعوب المجاورة التى ترجع أصولها إلى عصور ما قبل الميلاد ! وأضاف قائلاً إن ذلك معروف ومسجل ، ولذلك فلم يوله اهتمامًا كبيرًا فإنه يبحث عن آثار أقدم ودلائل على الهجرات العربية المتوالية فى تلك المنطقة !

''وسألته فى قلق إن كان يمكننى أن أنشر ذلك على الملأ - فى الصحف مثلاً - أو فى مجلة علمية أجنبية فأكّد لى إمكان ذلك ثم أضاف ضاحكًا : ''وهل ستنشره باسمك وحدك ؟'' وقلت بسرعة إننى يمكن أن أنشر دراسة باسمينا معًا إن كان يريد ذلك ولو أن ذلك غير مألوف فى الوطن العربى ، فقهقه وربت بيده على كتفى قائلاً إنه يداعبنى فقط ولى أن أفعل ما أريد بالمعلومات التى أحطت بها ، فالكشف ليس اكتشافًا والمعلومات متوافرة فى المراجع ، العربية منها قبل الأجنبية ، ولن يضيف أكاليل غار إلى قامته العلمية ، وتوقف الحوار هنا ، ولم أضع أنا الفرصة فكتبت مقالاً ضمنته ما انتهينا إليه من 'نتائج' ، وأشدت بذكر صديقى ومكانته العلمية لأوفيه حقه وأمنح 'البحث' مصداقية علمية ، وأرسلته إلى الصحف فرحبت به ، وأرسل رؤساء التحرير

بعض المصوّرين إلى الموقع لالتقاط الصور اللازمة ، وتطوع البعض للكتابة عن تاريخ العرب القديم وتضخيم أهمية الاكتشاف - كعادتنا نحن العرب - والتهليل له ، ولم تمض أيام حتى استدعانى رئيسى هاشًا باشًا وسلمنى خطابين الأول يتضمن قرار الرؤساء بمد عمل البعثة وصرف مكافآت مجزية لأعضاء الفريق العامل من كل الدرجات، ويتضمن الثانى قرارًا بترقيتى وزيادة مرتبى زيادة لم أكن أحلم بها'' .

وتوقف صديقى ، وأرجو ألا أكون قد أغفلت أية تفاصيل مهمة فى هذا الملخص المقتضب ، وعندما عاد بعد العطلة القصيرة مع زوجته إلى عمله ، كان قد ارتدى قناعًا جديدًا ، ولكنه كان على وعى كامل بعناصر هذا القناع ، يعرف شرائط الدور الذى يفرضه عليه ويلتزم بها، وعندما بدأت ألمقاطعة العربية لمصر فى الثمانينيات بسبب معاهدة السلام مع إسرائيل ، وتصاعدت النزعات الإقليمية فى أقطار الوطن العربى ، لم يجرفه التيار ، ولم يهاجم 'النظام المصرى' فى حديث عام أو خاص، بل تعلم التكتّم وأجاده، وأصبح - كما يقول- 'يمشى إلى جوار الحائط'، قانعًا بعمله الإدارى ، ووجد نفسه وقد أصبح مهتمًا برصيده فى البنك ، طامحًا فى ثراء عريض ، ويحلم بعودة مظفرة إلى مصر ينتقل فيها من حياة 'الفكر' القديم إلى حياة الحسابات والاستثمار ، مع اهتمام لم يعهده فى نفسه بالدين ، وكان يراجع نفسه من حين إلى حين ، وكلما ظن أن القناع الذى يرتديه يتضمن عناصر 'زيف' أو ابتعاد ولو طفيف عن الواقع بذل جهدًا صادقًا لتعديله ، فكان يعيش فى حالة مساءلة للنفس تشبه ما مرّ به قبل سنوات طويلة عندما فُجع وفُجعت الأمة العربية فى فقد الزعيم الخالد ، فكان حين يزور مصر ويرى حالات الفقر المدقع ويسمع من رفقاء الاشتراكية القدماء عن ضرورة تدخل الدولة لضمان عدالة توزيع الثروة ، يرتجف رغمًا عنه خوفًا على ثروته ، ثم يفزع من ذلك كأنه ينكر تنكّره لمبادئه القديمة ، وحينما تأكد أن الدولة لن تتدخل فى شىء ولن تمس ثروات الأثرياء ، وكان قد مل قناع خدمة الرؤساء فى الخارج ، عاد إلى مصر ، وقرر أن يعيش بعيدًا عن أى مجال للعمل العام ، بل وبعيدًا عن عيون الجميع بعد أن اشترى قطعة أرض من هيئة استصلاح الأراضى ، فاستصلحها وأنفق عليها الكثير ، وأصبح يقضى معظم وقته فى المزرعة ، ولم يتضح لى مدى نجاحه فى التخلص من قناعه

القديم إلا عندما التقينا يوم جمعة ، اليوم الذى اعتدت أن أقابل فيه صديق عمرى المستشار أحمد السودة ، وكان معنا فى هذه المرة على مائدة الغداء فى مطعم **فلفلة** بوسط البلد ، فى يوليو عام ١٩٩٣ بعد أن عدت من فرنسا ومنّ الله علىّ بالشفاء من المرض اللعين ، إذ لم يكن يتحدث إلا عن الزراعة وتسويق الحاصلات الزراعية .

لا يزال ذلك اليوم ماثلاً بكل تفاصيله فى ذاكرتى ، فلقد كنت سعيدًا بعودتى إلى الحياة، وكنت فرحًا لأننى استعدت القدرة على تناول الطعام ولو كان فى صورة سائلة أو مهروسة ، ولأن كلامى أصبح مفهومًا إلى حد ما ، وكنت أعجب أثناء حديثه كيف استطاع أن يطوى صفحة الماضى بل صفحاته بهذه السهولة ، وأن يتحول بإرادته إلى مُزارع (ما أصل البناء الصرفى لهذه الكلمة ؟) وكنت أرتشف نبراته الهادئة وهو يتحدث عن زراعة حاصلات بعينها ويستعين بمهارة أبناء العريش الذين يجيدون الفلاحة بالخبرة أى دون تعليم رسمى ، وكان الأستاذ أحمد السودة يشاركنى الدهشة والإعجاب ، فكلانا من ذوى الجذور الريفية ، وكان صاحبنا يتحدث حديث الواثق المتمكن من أصول صنعته ، كأنما لم يرتد قناع السياسة وقناع البحث العلمى يومًا ما ، وكان يشاركنى التفاؤل بالمستقبل والتخطيط له ، وفى هذا ما فيه من أدلة على المرونة التى يتحلى بها المصرى ، وعلى قدرة التكيّف التى تكفل البقاء .

الفصل الثانى



هبطت بنا الطائرة المصرية فى مساء يوم الأربعاء ٣٠ أغسطس ١٩٨٩ فى بلغراد وكانت تقل الوفد الرسمى المصرى برئاسة الدكتور بطرس غالى وزير الدولة للشئون الخارجية ، وفريق الترجمة الفورية والتحريرية ، والفريق الإعلامى (من الإذاعة والتليفزيون وبعض الصحف) وكانت تلك أول مرة أزور فيها يوغوسلافيا ، وآخر مرة - بطبيعة الحال - فكنت تواقًا إلى معاينة الحياة فى أوروبا الشرقية فى ظل النظام الاشتراكى ، وكانت وزارة الخارجية قد جمعت عددًا متميزًا من المترجمين ، معظمهم ممن سبق لى العمل معهم ، إما فى المؤتمرات الدولية أو فى الأمم المتحدة ، وكان بعضهم من تلاميذى السابقين مثل فايزة كامل وسلوى عبد العظيم وأحمد عبد الجواد وزين الدين الجعفرى البسطويسى وليلى زيدان ، ولو أن الأخيرين كانا ضمن بعثة الإذاعة ، إلى جانب فاطمة برادة ونور عطية ، والبعض الآخر من أقرانى مثل فكرية السويفى - زميلتى القديمة فى الدراسة الجامعية - ومثل محمد عبد النبى المتخصص فى اللغة الفرنسية ، كما كان الفريق يضم نخبة من أفضل المترجمين الفوريين من اللغة الانجليزية وإليها مثل رفعت شلتوت وهدى أبو الفرج وهما من تلاميذى السابقين فى جامعة القاهرة وعبد الله فريد وسميرة عبد السيد وهما من أقرانى النابهين ، وحشدًا من كتاب الاختزال والآلة الكاتبة العربية.

واستُقبلنا استقبالاً شبه رسمى فى المطار ، وكان المطر ينهمر فيحيل سطوح مبانى المطار وأرضيته إلى مرايا لامعة تعكس الأضواء التى انتثرت فى الظلام ، وانطلقت بنا

حافلة خاصة ، بدت جديدة وفائقة النظافة غامرة الأضواء ، إلى الفندق الذى تقرر نزول 'العاملين' به ، وهو - كمـا علمت فيمـا بعد - بيت من بيوت الشـباب أو الطلاب ، يمكن اعتباره 'مدينة جامعية' كما نقول فى مصر (ويسمونه 'الحىّ الجامعى' فى العراق) ولكنه كان يضارع الحافلة فى جدته البادية ونظافته الفائقة ، وكان الشبان الذين استقبلونا وأتموا لنا إجراءات الجوازات والجـمارك يرتدون زيًا موحدًا وكاسكيتـات تحمى عيونهم من المطر ، ويتحركون بنظام الفريق المتجانس الذى يعرف كل فرد فيه موقعه ومهمته، ولم يتركونا حتى استقر كل واحد منا فى غرفته ، واطمأن إلى برنامج العمل فى صبيحة اليوم التـالى ، خصوصًا مـوعد استخـراج بطاقة الهُوِيَّة الخاصـة بالمؤتمر ، وترتيـبات الانتقال من الفندق إلى مقر المؤتمر والعودة .

كان المؤتمر من أواخر مؤتمرات قمة بلدان عدم الانحياز ، إذ تفككت الحركة بعد انهيار الاتحاد السـوفييتى ، لكننا لم نكن ندرى ما تخبئه الأقـدار ، وكان ثم ما يدعونى إلى التفاؤل والبشْر - شـخصيًا - لأن اليوم التالى ، الخميس ٣١ أغـسطس كان موعد إذاعة مسرحيتى **الغربان** فى القناة الثانيـة بالتليفزيون المصـرى ، وكنت أوصيت ابنتى سارة أن تسجلها لى بالبديو حتى أشاهدها ، بعد أن وافقت الرقابة عليها ، فكنت أُمنّى النفس بمشاهدتها بعـد العودة ، ولكنها لم تُذع ، وأذيع بدلاً منها **نمرة ٢ يكسب** لعبد المنعم مدبولى كـما كان مـعى مخطوط **جاسوس فى قـصر السلطان** أضيف اللمـسات الأخيرة إليـه هنا وهناك حتى بعد أن كـتب على الآلة الكاتبة ، كما كـانت معى بعض كتب النقـد الحديث التى لم أكن انتهـيت من قراءتها ، فَرَتَّبْتُ محـتويات حقيـبتى فى الغرفة ، ونزلت إلى الـدكان الملحق بالفندق فاشتريـت بعض الأوراق والأقلام ، بنحو دولارين ، وضعتـها بعناية على المكتب المطل على الحديقـة ، واطمأن قلبى إلى نظام 'الإقامة' فهبطت إلى البهو حيث وجدت الزملاء يسـتعدون لطعام العشاء فلحقت بهم ، وكان الطعام متواضعًا يتكون من وجبات ثابتة ، لا تسمح بخيارات كثيرة ، وما إن بدأنا تناول الطعام حـتى وصل مندوب من السفارة الـمصرية يسأل عـن الوثائق التى سبق أن ترجمناها فى مصر حـتى تُعفينا من ترجمتهـا أثناء المؤتمر وتتيح لنا التفرغ لتـرجمة ما يستجد. وعندما أطلعناه عليها طلب اقتراضها لتصويرها ، ووعد بإعادتها فى صباح اليوم التالى ، لكنه لم يعد ولم نره بعد ذلك أبدًا .

وبَعد الإجراءات التى انتهينا منها بسرعة ، قررنا تقسيم الفريق إلى قسمين ، الأول يعمل من الثامنة صباحًا حتى الرابعة ، والثانى من الرابعة حتى الثانية عشرة ليلاً ، لأن العمل كان يقـتضى وجود فريق الترجـمة طول الوقت وذلك فى الأيام الأربعة الأولى ،

ثم يتبادل الفريقان النوبات ، وكنت أرأس نوبة الصباح ، لكننا حين ذهبنا إلى قاعة المترجمين وجدنا أن به فريقًا جزائريًا ، موازيًا لفريقنا ، يشغل جميع الأماكن ! وشرحت لنا المشرفة على السكرتارية واسمها 'سِنْا' (قالت إن معناه الربيع) أن الفريق الجزائرى وصل قبلنا على متن طائرة عسكرية خاصة ، وأن الفريق سوف يساعدنا ، ووعدت بتدبير أماكن لنا نعمل فيها ، ولم تمض ساعة حتى أعدّت لنا مكاتب وكراسىّ فى شرفة بديعة مسقوفة ، بها نوافذ واسعة نطل منها على المدينة بحدائقها وظلال الصيف المتراقصة ، وبدأنا العمل بمراجعة نص كان الجزائريون قد ترجموه ، واعترض عليه المندوبون العرب ، وأشد ما يقلق المترجم هو أن يعترض أحد الدبلوماسيين على الترجمة ، فيهدده فى مصدر رزقه أو 'يقطع عيشه' عمليًا حتى لو كان المترجم على حق، إذ يكفى أن يقف دبلوماسى شاب لا يجد ما يعترض عليه من حيث المضمون فى إحدى الوثائق ولكنه يريد أن يثبت وجوده فيقول إن الترجمة العربية خاطئة أو إن اللغة العربية ركيكة ، فتقع الطامة على رأس المترجم ، ولذلك حرصت فى مراجعتى أن أقتصر على تصحيح أية أخطاء حقيقية (أى أخطاء فى المعنى) ، ولما لم أجد فيها ما يستحق الذكر أو ما يقتضى إصدار تصويب خاص أدركت أن سر الاعتراض يرجع إلى اختلاف لغة أهل المشرق العربى عن لغة أهل المغرب، فبيّنت ذلك للمشرفة وقلت لها إن الاعتراض صياغى بحت ، ولا يمس قدرة المترجمين على فهم النص أو التعبير عن المعنى، وكنت فى هذا صادقًا غير مدفوع بالتضامن مع أبناء المهنة الواحدة ، وإن كان تعاطفى مع المترجم أى مترجم- وتضامنى معه فى مواجهة 'أصحاب السلطان' صفة لا أنكرها، مهما اختلفتُ معه وذهبتُ غير مذهبه فى الترجمة ومرت 'الأزمة' بسلام ولو أن المشرفة كانت تختصنا بالوثائق المهمة ، الأمر الذى زاد من أعباء الفريق المصرى .

ذكرتنى تلك الحادثة بآخر مرة عملت فيها بالترجمة فى 'لجنة التحرير' التابعة لمنظمة الوحدة الإفريقية فى دار السلام بتنزانيا فى يوم من أيام ١٩٧٩ ، إذ كنت مارًا فى مطعم الفندق حين نادتنى سميرة عبد السيد التى كانت تتناول الغداء مع آن مارى جريس وسامية خلاف ، وهن من أقدر المترجمات الفوريات فى العالم العربى ، وقالت لى إن المندوب الليبى اعترض على لغتك العربية ، وحاولت أن أعرف التفاصيل منهن ولكنهن اعتذرن لعدم إجادتهن العربية (فهن يترجمن إلى الانجليزية والفرنسية) فسعيت إلى المندوب الليبى فوجدته شابًا صغيرًا يتقد حماسًا وحميّة ، فسألته عن سر اعتراضه

على لغتى فقال إننى أقول "أحاطت اللجنة علمًا بكذا . . ." دون أن أذكر المفعول‌به، فالصحيح فى رأيه أن الفعل "يحيط بـ" فعل متعد يقتضى مفعولاً به، كأن تقول أحاط فلانٌ فلانًا بكذا، وقلت له إن اللجنة هى التى علمت ولم تحط أحدًا بشىء، فقال إذن أخطأت! فقلت له بل إن الفعل متعد ولازم معًا، وضربت له نماذج من القرآن منها آية الكرسى الشهيرة ومنها ﴿**أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ**﴾ (النمل- ٢٢) ولكنه أصر على موقفه وعلا صوته وتهدج ، فحاولت تهدئته فسألته ماذا يريدنى أن أقول؟ فقال 'أنا أقبل أى شىء إلا الأخطاء فى اللغة العربية!' فقلت له إننى أوافقه وأشاركه الغيرة على العربية ومكثت معه ساعة أو بعض ساعة فى نقاش نجح فى امتصاص غضبه، ولم أتركه حتى بدا عليه الرضا والارتياح،وإن كان الهامس فى أعماقى يهمس بأن تلك آخر زيارة لى للجنة التحرير فى دار السلام. وثبت صدق الهامس!

ازدادت أعباء الفريق المصرى - كما قلت - وإن خفف من وطأته جمال المكان وجمال الصقالبة أى الجنس السلافى (the slavs ومنها اشتقت slave أى العبد لأن أجمل إماء أوروبا كن يُجلبن منهم وكذلك كان المماليك فى مصر) وكان جميع العاملين فى المؤتمر رجالاً ونساءً (أو فتيانًا وفتيات) يتمتعون بقسط نادر من الجمال والرشاقة والعذوبة والرقة ، وكانت المترجمة فايزة كامل (أخت الوزير السابق محمد إبراهيم كامل) صريحة فى التعبير عما يجيش فى نفوس الفريق من الإعجاب بذلك كله، وكان أحمد عبد الجواد لا يكتفى بالصراحة فى القول بل يعبر عن إعجابه عمليًا بقبلات الترحيب والوداع ، وكنت أنا أرقب تلك الآيات الباهرة من خلق الله ثم لا أستطيع الكلام ، بل أخفى نظراتى لأن فايزة لم تكن تعفى أحدًا من تعليقاتها ، ولما كانت من زميلات نهاد زوجتى فى الدراسة (ولو أنها تكبرها كثيرًا إذ التحقت بالجامعة بعد أن تزوجت وأنجبت) فقد كانت دائمة التهديد بإخبار زوجتى بأى إعجاب أبديه أو أى كلمة أقولها ، وكانت تفعل ذلك أحيانًا بطرق 'فنية' أى غير مباشرة كأن تقول "البلوندايه دى عينيها خضرا زى نهاد !" ولكن بعض تعليقاتها الأخرى كانت لاذعة مثل وصفها المشرفة سِنًا بأنها "كبيرة ولسّه نِغْشة !" والكلمة الأخيرة من الكلم العامىّ الذى لا أجد له مقابلاً بالفصحى ، وربما كانت تقابل (a flirt) بالانجليزية ، وقد يكون المعنى أن بها دلالاً يدعو إلى المغازلة دون أن تكون لعوبًا ، وتعبير لسة (أى 'ما زالت' = 'للساعة' ، وتقابلها فى السودانية 'حَسّة' = حتى الساعة ، أو 'هسّة' = ها الساعة) يتضمن حُكْمًا مفاده أن كبر المرأة يمنعها من 'الغنج' ، مصداقًا للمثل الشعبى

"الشايب لمّا يدّلع زى البــاب لما يتخلّع" ، ولو أننى لم أشـعر فى حـديثى مع 'سنا' بأىّ من ذلك ، وربما كان 'الحدس الأنثوى' (female intuition) عند فايزة هو الذى هداها إلى ذلك ، وربما كان حكمهاخاطئًا لأنه يقوم على تفـسير لطرائق ثقافة مختلفة ، فالحـركات والنبرات والبسـمات لا تعنى فى أوروبا ما تعنـيه فى مصر ، ومـا قلته عن الفتـيات يصدق عـلى الفتيـان ، وأذكر أن 'الساعى' الذى كـان يأتى بالقهـوة ويتلقى الطلبات منا كـان وسيمًا أشـقر رشيـقًا رائع الهندام متناغم الخطو حتـى أننى ظننته من المديرين أو الرؤساء حين رأيته أول مرة ، ولم تَخْفَ علىّ نظرات الإعجاب به فى عيون أعضاء الفـريق (أحمد عبد الجـواد وفاطمة برادة ونور عطية وسلوى عـبد العظيم وفايزة كامل) ولم تفلح كثرة تردده فى إزالة الإعجاب به ، أو بالزميل الذى حلّ محلّه ، فكان يدير الرؤوس فى كل مرة يدخـل الشرفة. وكانـت فايزة تقول لى دائمًا إنهـا من سلالة المماليك ، فهى شقراء حادة الذكاء رقيقة لطيفة المعشر ، وأما الخصيصة التى ميزتها - كما ذكـرت - وهى الصراحة ، فـهى خصيصـة يشترك فيـها أبناء الذوات مع أبناء (أو لعلى أقول بنات) الفلاحين ، ولا يـعرفها أبناء الطبقة المتـوسطة ، وهى صراحة نابعة من بسـاطة تكاد تكون فطرية ، مـبـعـثهـا الثـقة فـى النفس والاطمـئنان إلى المكانة الاجتماعية، أما أبناء الطبقة المتـوسطة فيفتقرون إلى ذلك وتغيب الصراحة من نظراتهم (وأقوالهم) إمـا تعاليًا (فى مـحاولة التظاهر بالانتمـاء إلى طبقـة أعلى) أو تواضعًا زائفًا (false modesty) تأكيدًا لامتيازهم عن البسطاء .

أما الذى جعل ذلك المـؤتمر فريدًا فهو اكـتشاف نوع آخر من الصـراحة لا يتعلق بالتعبير عن الرأى أو المشاعر بل الأقرب أن نسميه صراحة الفكر ، وصراحة الفكر هى لون الصراحة التى يأتى بهـا اليقين فى عالم تعقّد وتخبّط - كـما سبق لى أن ذكرت - وهو اليقين الذى ننشده دائبـين فإذا تعذر تحقيقه عـمليًا أنشأناه إنشاءً ، وخلقناه خلقًا ، ولقد اكتـشفته فى أحمـد عبد الجواد ، وفـرحت باكتشافه بعـد عناء يوم كامل من أيام مؤتمـر القمة . بدأت جـلسة الافتـتاح فى العاشـرة ، وتوالى الرؤساء يقـولون كلمات مقتضبة ترجـمها المترجمون الفوريون أثناء إلقائها ، ثم جاء موعـد إلقاء العقيد القذافى لخطابه الافتتـاحى فانطلق يرتجل ويُسهب ، والتزم الصراحـة بالمعنى المألوف ، وهى صفة غير مطلوبة فى الدبلوماسية ولا فى السـياسة ، فهاجم الدول الإفريقية التى تصادق إسرائـيل ، وهاجم النفاق فى السـياسـة الدولية ، ثـم هاجم المندوبين الأفارقـة الذين يزعمون أنهم غير منحازين إلى الشرق أو الغرب ، وهم فى الواقع منحازون إلى الغرب الذى يساند إسرائيل ووصفهم بأن لهم وجوهًا 'كالحة' . وكان كتاب الإختزال يتناوبون

تسجيل كلامه وتـفريغه ، وكان أحمد عبد الجواد يتـولى الترجمة ثم يأتى 'السعاة' بما كتب إلىّ لأراجعه حتى يذهب إلى النسخ على الآلة الكاتبة ، وانتهى القذافى من خطابه فى الواحدة ظهرًا، واستمر عملنا فى الترجـمة والمراجعة حتى الرابعة ، ، وتوقفت عند كلمة 'كالح' ، فأقصيت على الفور من ذهنى كلمة (black) فليس من المعقول أن أشتم الأفارقة بوصفهم بالسواد ، ففى هذا من التعصب العنصرى ما فيه ، ولما كان المقصود وصف النفس لا الوجـه (ولم يكن المقـصود قطعًا جـمال الوجـه وإلا لقلت كمـا قال الشاعر العظيم فاروق شوشة وجه 'أبنوسى' ebony face - وهو عنوان أحـد دواوينه) فلقد فكرت فى صفـات نفسية مثل خسـيسة ignoble أو حقـيرة despicable ولكننى استبعدتها أيضًا لـعلو نبرتها بل وبذاءتها ، ثم اهتديت إلى bleak ، ففيها من الجهامة والقتامة ما يوحى بالمطلوب ، وغيّرت كلمة black إلى bleak ، وقلت إذا سألنى أحد عن سر ترجمة المترجم الفورى الفذّ عبد الله فريد - رحمه الله - هذه الكلمة بـ black فى الكابينة فـسوف أقـول له إنه كان يقـصد bleak القريبـة فى النطق ، وإن اللهـجة الأجنبـية هى السـبب . ولكن أحـدًا لم يسأل ، ولم يعلق أحـد من المـسئـولين على الخطاب ، وكان تعليق أحد الصحفـيين عليه أن المندوبين وجدوا الخطاب طريفًا فصمتوا عنه (They listened in amused silence) .

وبعد تعب اليوم عاد أفراد الفريق إلى الفندق ومكثنا أنا وأحمد عبد الجواد للإجابة عن استـفسارات بعض المـسئولـين ، ثم هبطنا إلى بهو مقـر المؤتمـر ، وتجولنا فى المكتبة العامرة بالكتب بشـتى اللغات ، فاشتريت لنفسى 'أطلس العالم' الجديد بثمن زهيد ، ومـجموعـات من الشعر المكتـوب باللغة الصربيـة وبعض اللغات السلافـية ، مترجمة إلى الانجليزية ، ثم قررنا المكوث حتى الـمساء ، فتناولنا الطعام فى الكافتيريا الملحقـة بقاعة المـؤتمرات ، وبدأ أحمـد عبد الـجواد حديثـه الذى كشف لى عن نوع الصراحة الذى أعنيه ، أى الصراحـة الفكرية أو قل المنهج القائم على اليقين ، والذى أجمله فى تعبير 'الحسم بين الأبيض والأسود !' .

قال أحمد إنه كان معارًا إلى الســعودية ، وكان يأتى لزيارة مصر كل عام ، وعندما توافر له مـبلغ معقول من المـال اشترى قطعة أرض فى شـارع الثلاثين بجوار أكاديـمية الفنون بالهرم ، وعندما انتـهت إعارته من الإذاعة (حيث يعمل متـرجمًا) قرر بناء منزل فيهـا . ولم يتعب نفسه مـثل غيره بالإجراءات القـانونية بل كلف مهندسًا مـعماريًا من أصدقـائه ، ومهندسًا إنشائيًا لم تبـتسم له دنيا المـشروعات الجديدة ، بإعـداد الرسوم وتحديد المطلوب من المــواد - مواد البناء ولوازمه - ومن العمال ، ثـم نزل بنفسه إلى

وكالة البلح فاشترى كل شيء واكترى العمال ، وأشرف مع صديقيه على حفر الأساس وصب الخرسانة ومدّ شبكات المرافق من المنازل المجاورة، دون أن يتدخل أحد أو يسأله ماذا يفعل ، حتى انتهى البناء كما أراده ، فإذا زاره 'مهندس التنظيم' من 'إدارة الحي' وطالبه برخصة البناء مثلاً أرضاه بما يرضى به أمثاله ووعده خيرًا ، على غرار ما فعل في قريته **سُبْك الضحّاك** إذ بنى لنفسه منزلاً صغيرًا على أرض زراعية دون أن يعبأ- مثل آلاف غيره - بالمخالفة أو المخالفات . كان منهجه : إذا أردت فعل شيء في مصر فافعله ولا تتردد (Just do it كما يقولون) وكانت تلك أولى دلائل صراحة اليقين ! فعندما سألته عن معارضة القانون أنكر أنه يخالف القانون ، أفلا يسمح القانون بالبناء على أرض يملكها الإنسان ؟ وهل في ذلك عيب ؟ وهل هو حرام ؟

وذكرت ما حدث قبل سنوات في ضاحية العجمي بالاسكندرية على شاطئ البحر ، حين اشترى سمير سرحان قطعة أرض من أحد الأعراب الذى كان قد وضع يده على مساحة شاسعة في منطقة تدعى 'أبو يوسف' - واسمه هيبة عوض - ثم بنى لنفسه عليها منزلاً من الحجر ، وتبعه مثلما سبقه عشرات من أصدقائنا - من الكُتّاب والفنانين وغيرهم - حتى نشأ حيٌّ سكنيٌّ كامل ، واضطُرت الحكومة آخر الأمر إلى الإقرار بالأمر الواقع وأصبح حي 'أبو يوسف' داخل 'التنظيم' ويتمتع بجميع المرافق التي تتمتع بها الأحياء التي بُنيت بأساليب الروتين واستغرق بناؤها عشرات السنين . ولكن الفارق هنا هو أن أحمد عبد الجواد لم يشغل نفسه أصلاً بالشكليات ، بل سأل السؤال الجوهري : هل هو حرام ؟

والسؤال عن الحرام والحلال رافد من روافد قضية اليقين التي تشغل تفكيرنا اليوم ، إذ سألني أحمد عبد الجواد ذات يوم "هل تعرية شعر المرأة حلال أم حرام ؟" وعندما بدأت أشرح له الموضوع من الزوايا الفقهية قاطعني قائلاً إنه لا يطيق صبرًا بذلك كله (I have no time for this) وإنه يريد حسمًا مريحًا يوفّر له اليقين ، فقلت له إن تغطية الشعر عادة عربية قديمة أقرها الإسلام ولكنها ليست من الأصول ولا الفروع ، فصرخ قائلاً "أقرّها يعني أمر بها - يعني التعرية حرام !" ولم أجد نفعًا من المناقشة، فلقد تنبهت آنذاك إلى صراحة الأبيض والأسود التي بدأت تتغلغل في تفكيرنا بسبب التقسيم الثنائي القديم ، وهو الذى أعتبره السبب في تمزيق أوصال الدول العربية أو الإسلامية القديمة ، لأنه يسمح بتفسيرات متعددة لما هو أبيض ولما هو أسود ، بناء على مفهوم كل طائفة بل ومفهوم كل فرد للنصوص المقدسة ، واحتمال التعدد قائم

وأكـاد أقول محتوم فـى تطبيـق المبادئ الدينيـة الفضفاضـة تطبيقًا عمليًا ، ولكن أحمـد عبـد الجواد - شـأنه شأن الكثيـرين من المثـقفـين - لم يشغل باله بدرجـات الحلال والحرام ، أو بأن الحلال نفسه إذا اتخذ طـابعًا معينًا أصبح حرامًا دون أن ندرى ، مثل اكتساب المال (الحـلال) الذى يصبح شهية مفتوحة لا تشـبع ، تلهى الإنسان عن نفسه ولو أقام شعائر دينه ، إذ قد يهمل أسـرته ولا يقتطع من وقت عمله (الحلال) ما يكفى لتنشئة الصغار أو رعاية أهله ، وقس على ذلك الولوع بالزواج (الحلال) الذى قد يشغل بال الرجل إلى درجة مَرَضيّه - مـثلما شغل تاجـرًا فى بلدنا رشيد اسـمه على (. . . .) فكان زميلى عبـد الفتاح بلال (الذى اشتـهر باسم السيد بلال) يحـادثه كل يوم عن فتاة جديدة قد تصلح زوجة أخرى له ، ويقول له إنه سمع من أخته أن صفاتها كـذا وكذا ، فيـسيل لعاب علـىّ ، وأضحك فى أعمـاقى مثلما يضـحك السيـد بلال من ردود فعل صاحبنا ، فـعيناه تبرقان وشاربه يهـتز ويصبح صورة لشخـصية من شخصـيات نجيب محفـوظ ، ولم أشغل نـفسـى آنذاك (وكنت بعـدُ صغيرًا مهـمـومًا بما أقرأ وأكتب وإن كان ذهنى يختزن الصور بخطوطهـا وألوانها) بعدد زوجات على أو عدد أولاده ، ولكن السيد بلال كـان يكبرنى بعـدة أعوام ويعمل فى وقت فراغه بوكالة الخضر والفاكهة التى يملكهـا والده ، وكان يـجلس أمام الوكـالة مع الكبـار من التجـار ويتـابع أحاديثـهم واهتماماتهم ، وكان علىّ من بينهم ، ولا أعـرف كيف اكتشف وُلُوعه بالنساء ، ولكنه جعل من ذلك مصدر تسلية مؤكدة لنا.

وعندما عدت من مـؤتمر عدم الانحياز طلب منى الكاتب والمـفكر السياسى رجب البنا وكان آنذاك يشرف على صفحة قضايا وآراء فى **الأهرام** الغراء،أن أساهم فى سلسلة المقـالات التى ينشرها لبـعض المفكرين **عن آفاق التسـعينيات**،فكتبت مقـالاًعن ثنائية الأبيض والأسود التى تعيب تفكيرنا، وقال لى المستشار أحمد السودة إن ابن عمه محمد قرأه وأعجب به،كـما كتبت مـقالاً عن اليقين الذى أصـبح كما قلت سمـة من سمات تفكيرنا فى أسبوعيات **الأهرام**،وحادثتنى الدكتورة منى أبوسنة تليفونيا لمناقشة ماجاء فيه



ولكن المصرى لايـحافظ على هذه الثنائية إلا بالقول، فـحياته الواقعيـة تجمع بين أضداد لا شك فيها، بل وبين تناقضات من الـمحال أن تجتمع منطقيًا، أى إنها متنافية

(أو mutually exclusive) لكنه يقبلهـا (مثلما يقـبلها أبناء الشعوب الأخـرى) وربما اعتبرها جزءًا من قنـاع الحياة العامة ، فإذا صادف موقفًا يرغـمه على الفصل بين الأسود والأبيض ، وكان يريد لأحدهمـا أن يكتسب صفة الآخر ، لم يجد فى نفـسه ما يمنعه من ذلك ، وربما ابتـدع فى هذه الأيام تبريرات عـجيبـة قد تصل إلى حـد الاستشـهاد بالنصوص المـقدسة. وقـد تسنى لى شخصـيًا أن أطّلع على أحد هذه التبـريرات حين قابلت فى أواخر التسـعينيات رجلاً لم أكن قابلته من عشـرين سنة ، وكان هرمًا مهدّمًا زرىّ الهيئة ، وقـد هبّ من مقعده حين رآنى وأنا أوقف سيارتى أمـام المقهى الذى كان يجلس فيه فى ميدان الدقى بالجيزة، فتصورت أنه يريد منعى من الوقوف فصحت فيه ما الخبر لكنه أسرع يعرفنى بنفسه فإذا هو السـائق القديم الذى كان يعمل لدى أسرة محمد على جستنية (السـعودى الذى كان مديرًا لفرع شركة الطيـران السعودية بالقاهرة) والذى كان يقوم بتوصيل 'شيخة' (واسمها بالكامل شيخة سلـمان قراطة) ابنة زوجته المصرية عايدة، إلى الـكلية حينمـا كانت تدرس لدينا فى قـسم اللغة الانجليـزية . ودهشت من تذكره إياى وتعرفه علىّ رغم ما أصاب وجهى من تبـدّل ، فسألته عن أحواله فأقسم أن أشاركه كوبًا من الشاى ، وغلّظ الأيمان فلم أجـد بُدًّا من القبول ، وغمرنى بدعواته لى وآيات الترحيب فحدست أنه فى ضائقة ماليـة وقررت أن أساعده بما أستطيع فسألته عن أحواله فقال إنه ترك العمل لديهم من مدة وإنه عمل لدى رجل غنى آخر صاحبه سنوات طويلة ثم تنكر له بسبب خلاف طفيف، وإنه أحيل منذ زمن إلى التقاعد ومعاشه محدود لكنه يحمـد الله على الستر ، ودفـعنى الفضول إلى السـؤال عن الخلاف الذى ترك من أجله العمل لدى 'الغنى' فقص قصة طويلة أوجزها فيما يلى :

كـان من عادته – شـأنه فى هذا شـأن أولاد 'الكار' (أى الحـرفة) – أن يضـيف ''قروشًا زهيدة'' إلى تكاليف تسييـر السيارة ، من وقود وزيت وتكاليف غسـيل وصيانة وإصلاح ، فهى عـمولة مشروعة فى نظره ، أو أجـر خفىّ يتلقاه فى مقـابل خدمات لا تدخل فى حساب القيادة ، وكان أصحـاب العمل والمتاجر يعطونه الفواتير 'المضروبة' اللازمة عن طيب خاطر ، و'المضروبة' تعنى الكاذبة أو 'الملعوب فيها' (doctored) لا المزيفة (forged) فهم يعرفـون أن صاحب السيارة لن يشعر بالزيادة بل هـو معتاد على ذلك ولم يعرف قط أسعارًا أقل ، وكنت أنصت إليه صامتًا فى انتظار نهاية القصة التى كنت أحدسها وأتوقعها ، لكنه عندما بدأ يكثر من ترديد لفظ الجلالة أو يردف كل

عبارة يقولها بتعبير ''ربنا يجازى ولاد الحرام'' وجدت نفسى أسأله بصوت خفيض ''يعنى ده موش حرام؟'' فإذابه يصيح''حرام إزاى يا بيه؟ ده ربنا بيقول وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم! وهوه فيه محروم أكتر منى ومن عيالى؟ ده حق ربنا يا بيه!''

ولم أعترض ولم أناقش فمن العبث المناقشة فى هذه الأمور ، فالرجل مؤمن بالله وبتفسيره الخاص لما أنزل الله فى كتابه ، والله أعلم من أين أتى بهذا التفسير الذى شغلنى حتى ذهلت عن بقية القصة ، ولم أُفق إلا على صوته وهو يردد أنه وأولاده فى ضنك ، ثم أشار إلى سيارتى قائلاً ''موش عايز سواق ؟'' ولم أجب بل أخرجت ورقة مالية دفعت بها إليه وهو يعترض ويؤكد لى أنه ''فى خدمتى'' وأننى أستطيع أن أجده متى شئت فى هذا المقهى .

أين الثنائية ؟ كان بإمكان السائق لو كان فصيحًا أن يقول إن سرقة مخدومه سرقة طفيفة، ودرجة الحرام فيها محدودة ، وكان بوسعه - لو أراد التحذلق - أن يقول إن الحصول على هذه العمولات السرية أصبح من باب الخطأ المتعارف عليه ، وشيوع الخطأ يجعله عُرْفًا من أعراف المجتمع ، ولمرتكبه أن يطالب بالتغاضى عنه ، ولكنه لا يقول إنه حرام أو مكروه أو خطأ بل يزعم أنه حق ، وربما كان يعنى 'حقا مكتسبًا' (vested right) أى الحق الذى يستند إلى الواقع بالعرف وطول الممارسة ولو لم تكن له أسانيد 'أصيلة' فى القانون أو فى الدين ، بل إن الرجل يستشهد بآية قرآنية يعلم الله - كما قلت - من فسرها له هذا التفسير ! ولم تكن تلك أول حادثة من نوعها ، ولكنها كانت المرة الأولى التى يُستشهد فيها بالقرآن أمامى لتبرير السرقة (أو الاختلاس)، وقد ذكرتنى بما كاد الزمن أن يطمسه لكثرة ما تراكم عليه من أحداث:

كان أحمد (. . . . .) زميلاً لى فى مدرسة رشيد الثانوية ، وكان يجلس إلى جوارى فى السنتين الثانية (تعادل الإعدادية حاليًا) والثالثة ، وكان أبوه فرّاشًا فى أحد المساجد ، وما لبث أن ارتدى الجبة والكاكولة والعمة ، أى الزى الرسمى لطلاب التعليم الدينى ، أو لخريجى المعاهد الأزهرية ، دون أن يعترض أحد ، إما لأنه ارتداه على مراحل حتى لا يفاجئ أحدًا بالتغيير ، وإما لأنه كان فعلاً من تلاميذ الكُتّاب ثم انقطع عن الدراسة واحتفظ بالزى ، وهذا ما أرجّحه ، وإما لأنه غاب فترة عن البلد ليوحى بأنه كان يدرس فى معهد الاسكندرية الدينى ثم عاد مرتديًا هذا الزى ، إذا صدقت رواية الشيخ 'حمدتو' (تنطق حَمَتُّو) إمام مسجد الجندى المواجه لوكالة الباشا

(والد نجيب محفوظ الكاتب المشهور) وإما لأنه نجح فى امتحان عقدته وزارة الأوقاف لخدم المساجد فارتدى هذا الزى رسميًا ، كما يقول حسين ابنه الأكبر ، وأيا كان الأمر فقد كان يتولى الأذان ويؤم الناس فى الصلاة أحيانًا إلى جانب أعمال التنظيف والصيانة- عمله الأساسى - مع من يتطوع لذلك من أبناء البلد ، كما اكتسب على مر الأيام احترامًا صامتًا وعطفًا دفينًا من جميع أهل البلد بسبب دماثة خلقه ، فكان الجميع يكرمونه ولا يبخلون عليه بشىء ، خصوصًا لأن له سبعة أبناء ، الولدان فى المدرسة ، والبنات الخمس ينتظرن الزواج ، وآمال الحراك الاجتماعى (social mobility) شبه معدومة ، فلا مال ولا جمال ، بل فقر وستر من الله سبحانه وتعالى .

وجاءت الثورة المصرية بالخير للأسرة ، فأعفت الوالد من دفع المصروفات الدراسية، وأمرت بصرف وجبات غذاء للتلاميذ (كانت تسمى 'التغذية المدرسية') فكان الولدان يحملان طعامهما من خبز وجبن وحلاوة (أو موز وبرتقال) مع الفائض من وجبات القادرين، إلى المنزل، كما نظمت الثورة توزيع 'معونة الشتاء' من لباس متواضع وكساء خشن على المعوزين ، فتمكن الولدان من مواصلة التعليم الثانوى، وتمكنت بعض البنات من الزواج وتخفيف أعباء رب الأسرة، وكان أحمد يلازمنى فى فترة المراهقة فيقصّ علىّ قصص الزملاء و'شقاوتهم' فى فترة البلوغ، فقد كان معظمهم أكبر منّا سنًا وسبقونا إلى البلوغ بعام أو عامين، فكانت لدينا اهتمامات مشتركة ، وكنت أسمع ما يقال بأذن نهمة ، وإن قل اختلاطى بالكبار عندما انتقلنا إلى شهادة الثقافة العامة (الثانية الثانوية حاليًا) وهى الشهادة العامة التى ألغيت فى العام التالى ، وتوثقت علاقتى بأحمد فى التوجيهية (الثانوية العامة حاليًا) وكنا معًا فى الشعبة العلمية فلم يكن بالمدرسة سواها ، فكنا نستذكر دروسنا معًا فى غرفة من غرف الطابق الأعلى بمنزل عائلتنا ، وكنا نقضى وقتًا طويلاً فى 'السمر' - 'لزوم المراهقة' - ثم حصل هو على الشهادة بمجموع يكفى لدخوله كلية الزراعة (٥١ ٪) فانتقل إلى الاسكندرية ليقيم مع بعض زملائه من البلد ، وانتقلت أسرتنا نحن إلى القاهرة - كما سبق أن رويت فى **واحات العمر** (ج ١) .

كان أحمد مجدًا مجتهدًا ، وكانت حياته الجامعية فى الاسكندرية مثالاً للسعى نحو تعويض حرمان الطفولة والصبا ، فوقف نفسه على الدرس حتى تميز - مثل غيره من أبناء البلدة فى الكليات الأخرى - وحصل فى الفصل الدراسى الأول على أعلى تقدير ، وعندما كنا نلتقى فى الصيف فى رشيد كان الجميع يتبادلون أخبار دراستهم وتفوقهم ،

وعلمت منهم أن حياة الطلاب 'المغتربين' فى الاسكندرية تنحصر فى الدرس ، وتخلو مما قد يشغل أبناء المدينة من مشاغل المراهقة أو اليفوع ، فيما عدا زيارات بعض الفتيات لهم ، وهو ما كان البعض ينفرون منه ويخافونه ، ويقبله البعض باعتباره انحرافًا عابرًا 'مفهومًا' ، وكان الحديث عنه يشى بالإحساس بالذنب ، وبوصمة الخطيئة والعار ، ولكن الامتياز فى الدراسة جلب الخير للجميع ، فى صورة مكافأة امتياز شهرية تدفعها حكومة الثورة تشجيعًا للعلم والتعلم ، فعرف أحمد طريق الأطعمة الفاخرة وقوى جسده ، بعد أن ظل سنينًا نحيلاً ضئيلاً قصيرًا ، بل إن المكافأة الشهرية كانت تكفى لاستئجار شقة كاملة للأسرة كلها ، فانتقل الجميع إلى الاسكندرية ، حيث وجد الوالد عملاً فى مسجد صغير (زاوية) فى السيّالة وهو حى شعبى مجاور لرأس التين فى منطقة 'بحرى' ، وحيث عمل أخوه فى إحدى الشركات الحكومية (قطاع عام) فابتسمت الدنيا للأسرة، وعندما وصل أحمد إلى السنة الرابعة (تخصص مبيدات) وكان أول الدفعة ، جاءه عرض للعمل فى مزرعة سلماوى بك (والد محمد سلماوى الكاتب الشهير) القريبة من رشيد ، وكنا فى عطلة منتصف العام (١٩٥٨) حين وجدته يدق باب منزلنا فى العجوزة ، المكان الوحيد الذى يعرفه فى القاهرة ، ويقص علىّ القصص .

واصطحبته إلى الفندق الذى كان سلماوى بك قد حجز له فيه غرفة ، تمهيدًا للمقابلة الشخصية لإتمام إجراءات التعيين ، وكان فندق 'منيزا' فى شارع سليمان (طلعت حرب حاليًا) وكان أجر الليلة خمسين قرشًا كاملة . وجلسنا ساعة نتحدث فحكى لى عن فتاة بيضاء سمينة من جيرانه فى المنزل تزورهم فى شقتهم ، وأنه استيقظ ذات يوم على شقة بطيخ تمس الفتاة بها شفتيه ، وسألنى إن كان هذا دليلاً على الحب ، فسألته أنا إن كان يحبها ، فقال لى إنها بيضاء ، كأنما حسم الأمر بهذه الإجابة، فقد كان هو أسمر اللون شديد السمرة ، فعدْتُ أسأله إن كان قد طلب الخروج معها - فهذا ما كنا نفعله فى القاهرة - فقال لى إن الخروج مكلّف وهو يضيّع الوقت فيما لا غَناء فيه، وهو يحتاج إلى كل دقيقة للدرس، حتى أنه لا يقرأ الصحف مطلقًا ، ولا يستمع إلى الراديو ، ثم أضاف قائلاً إن للفتاة كابينة على شاطئ البحر وقد دعته إلى زيارتها يومًا ما والنزول إلى البحر لو أراد! وسَأَلْتُه إن كان سيفعل ذلك فقال بسرعة "بحر إيه يا عم! احنا فى إيه والا فى إيه!" وبعد أن اجتاز المقابلة الشخصية بنجاح فى اليوم التالى رحل إلى المزرعة ، ولم أقابله حتى تخرج وعين معيدًا فى الكلية .

وفى أوائل صيف عام١٩٦١ فاجأنى ثانيًا بزيارتى فى المنزل، وكنت وحدى بعد أن سافرت الأسرة إلى رشيد، فقضى معى أيامًا فى شقتنا، وكانت معه أوراق كثيرة

بالانجليزية يريد أن يفهم ما فيها، وبعض استمارات التقديم إلى الجامعات الأوروبية والأمريكية، فقرأتها معه وترجمتها له، وساعدته فى ملء الاستمارات، واصطحبته إلى إدارة البعثات لأنه كان مرشحًا للسفر فى بعثة دراسية للحصول على الدكتوراة فى علم المبيدات الحشرية، وقص علىّ كيف أنه يعمل بعض الوقت 'خبيرًا' بشركة سيكلام للألبان، ويتقاضى منها مرتبًا مجزيًا، وأنه ترك العمل لدى سلماوى بك،كما حكى لى عن قصة غرامه بإحدى الفلاحات فى مزرعة البيك وأسهب فى وصف ما جرى بينهما، ثم انتهى إلى حبيبته البيضاء قائلاً إنها تشغله الآن عن كل ما ومن عداها!واصطحبته ذات يوم إلى شقة الأستاذ أحمد السودة الذى كان قد عُيِّن وكيلاً للنيابة (فى النيابة الإدارية المستحدثة فى آخر الخمسينيات) وكان أخوه عاطف طالبًا فى كلية الزراعة فقابله وتحادث معه، وسأله الأستاذ أحمد السودة عن رأيه فى الشعر الذى أكتبه فنظر إليه صاحبنا فى دهشة وقال "شعر إيه؟" فضحك الأستاذ أحمد وقال له لابد أن وراءه قصص غرام! فضحك صاحبنا باستخفاف وقال "لا . . لا"وتعجب الأستاذ أحمد من رأى صاحبنا فى حياتى العاطفية وسخريته منها، ولم يدرك مرمى صاحبنا إلاحين قال فى النهاية "كله كلام . . كلام !" وأما أنا فلم أدرك ما يعنيه حقًا إلاحين زارنى فى أواخر شتاء١٩٦٢بعد أن حصل على البعثة، فزرنا مكتب البعثات لإتمام الإجراءات بمساعدة أحد أصدقائنا الرشيديين وهو حسن الإبيارى (وهو قريب لأسرتنا قرابة بعيدة) وجلسنا نتناول الشاى فى مقهى إيزايتش بميدان التحرير، فحكى لى القصة، وأوجزها فيما يلى:

عندما حصلت حبيبته البيضاء على دبلوم التربية عملت مدرسة فى إحدى مدارس الإسكندرية القريبة من البحر ، وجعلت تشجعه على الخروج معها وهو متردد ، فغرام الفلاّحة كان لا يزال ماثلاً فى ذهنه بعد أن نجا من أهلها بشق النفس ، فذكرت له أن أباها قد استأجر لها شقة وفرشها بالفرش اللازم وأنه مدعو لزيارتها ، فخاف وتقاعس ، ولكنها جعلت تلوّح له بسعادة غامرة إن هو 'استجاب إلى نداء قلبه' ، ومن ثَمّ قبل أن يصحبها فقط إلى الكابينة ، فهى خالية فى الشتاء ، ومرة بعد مرة زال خوفه واطمأن ، فأفضى بعضهما إلى بعض ، وكانا يقضيان الساعات فى أحاديث لا تنتهى وسعادة لا توصف ، فأحس بأن الدنيا دانت له ، ومرت الشهور وهو ينعم بصحبتها وخلوتها فى الكابينة ، حتى جاء يوم أغبر ، إذ اقتحم الكابينة عليهما مساءً بعض أفراد أسرتها وأوسعوه ضربًا ولكمًا حتى كاد أن يفقد الوعى ، وهى تصيح إنه زوجى وتبكى

وتولول، ولم تفلح استغاثتها فى طلب العون ، فالشاطئ مهجور، ولم يتوقف الضرب إلا عندما صاح أحدهم 'الولد مات !' وقال لى إنه خاف أن يفتح عينيه خشية استئناف الضرب ، وظل فى ذهوله فسمع أباها يسألها إن كانت قد تزوجته حقًا فأجابت وهى ما زالت فى نشيجها العصبى إن الأمر كذلك ، وأخرجت لهم من حقيبتها ورقة زواج عرفى (لم يكن صاحبنا يدرى عنها شيئًا) فهدأت ثائرة الوالد وقال إذن نوثّق الزواج شرعيًا ، وحملوا صاحبنا حملاً إلى شقة صغيرة على البحر ، وقيل له إن الأسرة تؤجرها للمصيّفين ، ولو أن عقد الإيجار مكتوب باسم الفتاة ، وفيها عُقد القران فبات ليلته يتوجع ويتألم دون أن يشكو ، وكان ينام نومًا متقطعًا وكلما فتح عينيه رآها تبكى (وتلطم خديها) فرّق لحالها وأشفق عليها ، وعندما طلع الصبح وجدها لا تزال جالسة تبكى وقد أعدت له الشاى ، وقبل أن يفتح فمه قالت له إنها ستنتحر حزنًا على ما أصابه ، ولكن عليه أن يطلقها أولاً فهى لا تقبل زواجًا قسريًا ، وقالت إنها المسئولة عن كل ما حدث بسبب حبها له ، فذنبها الوحيد هو الحب ، وأقسمت أغلظ الأيمان بأنها كانت تتمنى أن تتلقى الضرب بدلاً منه ، وبأنها لم تكن تدرى أن أهلها يعلمون، وقال لى إنه شعر فى أعماقه بسعادة نادرة – رغم كل شىء – فها هى امرأة تحبه لذاته ، وتعذب نفسها من أجله ، وعندما سألها عن الورقة 'المُنقذة' قالت إنها كانت قد أعدتها 'للطوارئ' ، فنحن فى مصر ، ولا نعرف ما يأتى به الغد ، فاقتنع ، وعندما حاول الوقوف خذلته قدماه ، فتقدمت لمساندته حتى سار إلى الحمّام ، ثم أعدت له الإفطار (وكان فيه ما لذ وطاب) وقالت له أثناء الإفطار إنهما لا حاجة بهما إلى الخروج اليوم ، وإن عليهما ألا يناقشا المستقبل أبدًا ، بل أن يهبا النهار للشفاء من كابوس الأمس ، وجعلت تذكره بحبها له وهو طالب وأحاديثها الرقيقة قبل 'الزواج' فدبت الحياة فى أعضائه من جديد وأقبل على زوجته يمسح دموعها ويؤكد انقشاع السحابة السوداء .

ولم تمض أيام حتى علم بنبأ نجاح ترشيحه للبعثة ، فلم يخبر أحدًا من أسرته ولم يخبر زوجته ، وها هو فى القاهرة ليستكمل الأوراق ويَستخرج جواز السفر ، وسألنى عما عساه يفعل فلم أجب ، إذ لم أكن قد استوعبت القصة تمامًا ، وكانت الصور التى استدعاها حديثه غائمة فى عينى ، كما كانت الحقائق متداخلة ، ولكن الذى هزنى هو فرحه الطفولى بحب زوجته إذ كان يقول فى سعادة "دى بتحبنى ياله !" [ياله = يا ولد باللهجة الرشيدية وهى تقابل يا بوى بالصعيدية] وكان يلمح أثناء رواية 'العلقة' (الضرب المبرّح) إلى أن أهلها تجنبوا ضربه على وجهه أو على رأسه ، مما

يدل على 'ذوق' وتحضّر ، وقال إن غير هؤلاء كان يمكن أن يقتلوه ! ومع ذلك فلم أفهم سر تكتمه خبر البعثة ، فهو ذاهب إلى جامعة نبراسكا بالولايات المتحدة الأمريكية ، وذلك ما لا يتأتى للكثيرين ، وله أن يزهو ويفخر ، وقلت له ذلك فلم يحر جوابًا وحلّفنى ألا أقول لأحد ، فقلت له إن الجميع سوف يعرفون حتمًا ، عاجلاً أم آجلاً – كما يقولون – والأفضل للأسرة ولزوجته أن تعرف حتى تُعدّ للأمر عُدّته ، لكنه ألحّ وأصرّ على الكتمان فقلت إن له ما أراد . وانتهى أحمد من جميع الإجراءات بسرعة قياسية ، فهو مثابر عنيد ، وعاد إلى الاسكندرية .

حافظت على السر الذى ائتمننى عليه طيلة شهور عام ١٩٦٢، وشُغلت بدراستى للماجستير وبالترجمة وبكتابة المسرح حتى حل شهر سبتمبر، وكانت الأسرة فى رشيد كدأبها دائمًا، وعندها وجدته يطرق باب منزلنا حاملاً حقيبة ضخمة ساعَدْتُه فى حملها وتعجّبتُ من خفة وزنها، وعلمت منه أنه سوف يسافر صباح اليوم التالى إلى أمريكا فهنأْتُه وقلت له إننى سوف أسافر أيضًا فى العام التالى، وجلسنا نتحدث عن الدراسة فقال إنه قلق بشأن اللغة الانجليزية فهو لا يكاد يعرفها واشتكى من كلمة بعينها يراها تتردد فى نصوص المبيدات، وقال إنه حار فيها وهى كلمة (approximately) فقلت له إن معناها ''تقريبًا'' فتعجب وقال إنه سأل الكثيرين فاختلفوا بشأنها ، ورأيت ذلك مُسلّيًا فضحكتُ فقال لا تضحك! هناك كلمات أخرى عُقْر، ثم سألته عن أحوال الأسرة فقال فى هلع إنه لم يكن يتصور رد الفعل الذى قابلوا به نبأ سفره ولم يبحه لهم إلا عشية سفره إلى القاهرة، فبدلاً من أن يفرحوا به ويهنئوه حاولوا إثناءه عن السفر، وجعلت والدته تبكى وتنتحب كأنما فقدته إلى الأبد، وحَذَّرَتْهُ أختُه من مخاطر ركوب الطائرة، وقال لهم أبوه إنه سوف يحصل على الدكتوراه ويعود مظفرًا وفق رؤيًا رآها فى المنام، وأما زوجته فكادت ترقص طربًا عندما سمعت النبأ وقالت له سوف ألحق بك فى أمريكا فأتعلم الانجليزية وأنجب أطفالاً أمريكيين، وسألنى أحمد إن كان ذلك صحيحًا ، وأردف يشرح سؤاله: يعنى هل يمكن أن ينجب ذرية أمريكية؟ وقلت له إنها ستكون ذرية مصرية ولو حملت الجنسية الأمريكية فقال فى حزن : يعنى مافيش فايدة ؟ وضحكنا، ثم تذكر شيئًا عاد بالغمام إلى وجهه إذ قال: أبوها قال لى إنه سوف يستخرج جواز سفر لابنته ويرسلها إليه حالما يعرف عنوانه فى أمريكا، ولديه عقد الزواج اللازم لاستخراج الجواز والحصول على تأشيرتى الخروج (من المجمّع) والدخول

(من القنصلية الأمريكية) وهددنى بأننى إذا لم أرسل دعوة صريحة لزوجتى، أو إن حادثتنى نفسى أن أنكص على عقبىَ فسوف "يرسل خلفى البوليس الدولى ويحضرنى إلى مصر مقيدًا بالسلاسل!" وسألنى أحمد إن كان ذلك ممكنًا فسألته بدورى عما التزم به فى عقد الزواج- وبدا عليه عدم الفهم فقلت له إن من الالتزامات 'مؤخر الصداق' فى حالة الطلاق- لا سمح الله- أو ما إلى هذا بسبيل، فقال إنه لا يعرف وإن همه الأول هو الانتهاء من الدكتوراه وإنه جاد فى مطلبه ولن يعبأ بشىء سوى ذلك. واصطحبته فى الصباح إلى مطار القاهرة الدولى حيث استقل طائرة مصر للطيران بحقيبته شبه الفارغة، وجيب فيه خمسة جنيهات استرلينية، وكانت تلك آخر مرة أراه فيها ، إذ استقر فى أمريكا، وقابلت أخاه (حسين) فى القاهرة بعد ذلك بنحو عام واصطحبته إلى وزارة الخارجية فى ميدان التحرير لتوثيق ورقة الطلاق الموثقة من القنصلية المصرية فى أمريكا (لا أذكر فى أى بلد) وسألته عن أحمد فقال إنه سعيد وجاد فى دراسته كالعهد به .

إنها قصة عادية تتكرر كثيرًا ، ولقد تكررت كثيرًا فى حياتى مع أصدقاء الصبا وغيرهم ، وهى من القصص 'المفتوحة' التى لا نعرف لها نهاية، ولا تقبل الحكم أو التحليل باللونين الأبيض والأسود! وكثيرًا ما أتساءل فى نفسى عن حقيقة ما حدث وقد رويته بصدق حسبما سجلت آنذاك من مذكرات صادقة، وأصحابها أحياء (معظمهم على الأقل) وقد يقرأون هذا الكتاب فيعجبون، وقد يختلف بعضهم معى فى تفسيرى للأحداث أو فى رصدها ، فأنا أروى القصة من وجهة نظر فرد واحد ، وأترجم لغته العامية إلى فصحى، وأختصر وأوجز وأضغط ، فأختار وأحذف مما وَسِعَتْه الذاكرة، وأستكمل ما ضاع منها من معرفتى بصاحبها وأهله وبالإنسان، أى إن لى وجودًا- شئت أم أبيت- ينفى أو يجعل من العسير إصدار حكم أو رأى نقىّ من الشوائب ، فكيف يُفتى مُفْتٍ فى أحوال الإنسان ويطلب اليقين وهو لا يستطيع حتى أن يتحقق مما حدث؟

أين الأبيض والأسود فى هذه القصة ؟ لو كانت من نسج الخيال لأَضَفْتُ الظلال لتأكيد اللونين وفق ما يتراءى لعينى ، ولأَوْحَيْتُ للقارئ فى ثنايا السرد بما أريده أن يتعاطف معه وما أريده أن ينفر منه ، فالقصة الخيالية حبل لا يمكن شده إلا إذا أمسك القارئ بطرفه الآخر ، ولكن الحياة تتكون من حبال مقطوعة أو ذات أطراف سائبة ، وقد يكون من اليسير أن ندين البطل أو البطلة وفق معايير دينية نحكم بها على الظاهر، ولكن الظاهر خادع بطبعه ، فقد يكون ما نرى ناقصًا ، والنقص يبتعد بالرواية عن الصدق المنشود ، إذ قد تكون لما خفى عنا دلالة تغيّر تمامًا من معنى ما نشهد ، والله سبحانه وتعالى هو الذى يحكم على ما ظهر وما بطن ، وهكذا سأدعو القارئ إلى النظر

فى 'فجوات' القصة التى رواها أحمد ، والاحتمالات التى يمكن أن تترتب على ملء هذه الفجوات ، ولنبدأ بحكمنا باللون الأسود على الخطأ الظاهر والمؤكد ، وهو المعاشرة قبل الزواج .

نعلم أن الأسرتين يسكنان معًا فى المنزل نفسه ، وأنهما يتزاوران ، وأن الفتاة البيضاء السمينة كانت تدخل إلى غرفة أحمد الطالب ، وتوقظه من النوم بشقة بطيخ ، تحت سمع وبصر الأسرتين ، ونعلم أن ذلك استمر سنوات ، ومن المحال ألا يعلم أهل الفتاة بموقفها حتى وإن غابت عنهم التفاصيل ، أو أن يجهل ذلك أهله ، أى أن شرط العلانية متوافر منذ البداية ، إلى جانب الرضا والقبول بطبيعة الحال ، حتى ولو تصور أحمد غير ذلك ، وسعد بجو السرية الذى يولع به المحب فى فترة المراهقة ، فيظن أن أحدًا لا يعلم والجميع يعلمون ، خصوصًا فى مجتمعاتنا العربية المغلقة ، كما نعلم أن أباها كان يوافق على مشروع زواجها منه وإن لم يُعلن ذلك المشروع ، وأنه استأجر شقة خصيصًا لها وأثثها انتظارًا ليوم تخرجه وتنفيذ المشروع ، فإذا افترضنا أن الوالد كان يعرف بمواعيد لقائهما ، وإن كان يستبعد تجاوزهما الحد المعروف ، فالجميع من المؤمنين الذين ينفرون من الخطيئة ويدينونها ، وإذا افترضنا أنه لم يكن يعلم أنهما يذهبان إلى الكابينة وأنه حين علم غلى الدم فى عروقه مثل أى أب مصرى ففعل ما فعل ، إذا افترضنا هذا وذاك وجدنا أن الخطأ الذى ارتكبه أحمد هو الزواج الفعلى قبل الزواج الرسمى ، وهو خطأ بكل المقاييس ، ولكن درجة السواد فيه تقل حين نذكر كل هذه العوامل مجتمعة ، وتقل كذلك حين نشرك الفتاة فى المسئولية ، فالواضح أنها عاشت قصة حب عنيفة دفعتها إلى إغواء أحمد ، وقد يشتط بنا الخيال فنفترض أن أحد أفراد الأسرة هو الذى أعطى الفتاة مفتاح الكابينة وكان يعلم بما يحدث، مما يقلل أيضًا من درجة اللون الأسود . ولسوف تظل هذه الاحتمالات قائمة ما قامت للإنسان قائمة على الأرض ، وما دام البشر يخطئون ويتوبون ، وما داموا يشتركون فى تشكيل حياتهم معًا ، فحياة أحمد لا تنفصل عن حياة أسرته الفقيرة ، وربما كان يخشى الزواج على الرغم من نيته الصادقة فيه وحبه للفتاة بسبب التزامات مالية يخاف أن ترهق أسرته ، فلقد أصبح عائلها الأول فى الاسكندرية ، وأخواته يحتجن إلى مساعدته المالية ، والبنت لها الأولوية فى مجتمعنا ، أو قل إن ذلك هو ما درج عليه . نعم ! إن ظلال السواد تخفّ كثيرًا كلما أمعنّا النظر فى هذه القصة – سواء

من وجهة نظر الفتى أو وجهة نظر الفـتاة - ونحن نطلب المزيد من العلم حتى نستطيع إصدار الأحكام ، ولكن العلم الذى نطلبـه محال ، فهو يتضـمن العلم بالظاهر والباطن وهو ما لا يحيط به إلا الله سبحانه وتعالى .

لقد أدنْتُ السائق الذى يسرق مخدومه ، وأدنْتُ الخاطئيْن وفقًا لما أعلم من علم ، ولكن اليقين فى الحالين بعـيد المنال ، ولذلك تظل شكوكى قائمة فى اللونين الأبيض والأسود ، ويظل حـذرى كبيرًا من اليـقين فى أحكامى ، فالبشـر خطّاءون ، والأجدر بالخطّاء ألا يحكم على الخاطئ .



أرجو ألا يُفـهم من كلامى أننى أنـكر وجود اللونين الأبيض والأسـود ، فالخـير موجود والشر موجـود ، ولكن الخير والشر مفهومان أو قيمـتان مجردتان لا نعرف إلا درجات من كل منهمـا ، والدرجات متفاوتة فى الواقع ، أى فى واقع الحيـاة العملية ، لأن المطلق لا يوجد فى دنيانا ، بل هو مقصور على الله سبحانه وتعالى ، فهو المطلق الوحيـد - كمـا يقول هيـجل - ونحن نتوسل فى سـبيل الوصـول إلى معرفـة المطلق بالاستعارة ، واعـين بأن تلك المعرفة ذاتها ليـست فى طوق الكثيرين ، ومن ثم فنحن نستعين بمصادر معرفية غير العقل المحدود ، ونأمل أن توصلنا إلى الإحساس بالمطلق، مثل الروح ، فلـلروح طاقات غيـر محدودة إذا انتـبهنا لهـا ونمّيناها - كمـا ذكرت فى **واحات مصرية** - ومثل الفن بشتى طرائقه وأشكاله ، ومثل الشـعائر الدينية التى تساعد الروح على الشفـافية ، وتساعـدنا على الخروج من الاهتمـامات الدنيوية الصغـيرة ولو للحظات قصيرة من الصدق ، ولكن الأقنعـة التى تحدثت عنها فى الفصل الأول تدفعنا فى أحيان كثيـرة - وتدفع العامة دائمًا - إلى الارتكان إلى اللون الأبيض المطلق واللون الأسود المطلق ، فـهذا حـسنٌ وذاك قبيح ، وهذا خـير وذاك شر ، ونحـن نفعل ذلك لأسباب عـملية تتعلق بالفـعل لا بالفكر أو الإحساس ، لأن علينا أن نتـخذ قرارات فى حياتنا اليـومية (أو نأخذ بخيارات) لا تحتـمل الانتظار ، ونحكم بالصواب الكامل على الصواب النسـبى ، وبالخطأ الكامل على الخطأ النسـبى ، ونستخـدم فى الحكم معـايير

مستقاة من ضروب منوعة من أنساق القيم أو نظمها (systems of values) ، مثل قيم الدين المطلقة ، وقيم النفع الدنيوى أى ما فيه صالح الإنسان فى الدنيا ، وقيم الجمال والقبح ، وقيم المشاعر أو الانفعالات ، وأحيانًا ما يكون الخلط بين هذه المعايير راجعًا إلى تكامل أنساق القيم المذكورة فى حياة الإنسان واستحالة فصل بعضها عن بعض ، فنفس الإنسان مركبة مثل حياته ، وقيمها متداخلة تداخل العوامل التى تغرسها فى النفس وتغيّر بعضها أو الكثير منها على مدار الزمن ، وأخطر أحكامنا هى التى لا يتوافر لنا الوعى الكامل بها ، ولكنها تتجلى فيما نقدم عليه من أفعال وما نقوله من أقوال ، وبعضنا يحاول أن يكون واعيًا كل الوعى بكل ما يفعله أو يقوله ، وهؤلاء ثُلَّةٌ من المفكرين وقليل من المثقفين ، فالوعى من وظائف العقل الخالص ولا يُقدم على الاستناد إليه وحده إلا من تعلم وقرأ فآمن به ، وأما أكثر الناس فهم يعيشون حياة مركبة تشغلهم بتفاصيلها حتى ما يكاد أحد يجد الوقت الكافى للاستئناس بالعقل الخالص – أى المجرد من الدوافع التى تحجب الوعى – ومن ثم فهو يجد فى تفكير غيره منارًا يهتدى به ، خصوصًا إذا كان هذا التفكير قائمًا على أنساق القيم ذات الأولوية لديه ، مهما كانت الدوافع من ورائها لدى هذا أو لدى ذاك .

وحين يهتدى الفرد برأى غيره فقد يكون فى الواقع يهتدى بهوى نفسه ، وتعريف الهوى فى هذا السياق يختلف عن معنى الكلمة الدينى (ونهى النفس عن الهوى) بل معنى الكلمة هنا هو ما قصدت إليه من تعبير **أنساق القيم ذات الأولوية** ، ووصف القيم بالأولوية هنا مهم ، لأن الإنسان لا يولى جميع القيم الأولوية نفسها ، وإذا كان الجميع، فيما يبدو ، يولون القيم الدينية الأولوية فى حياتهم فإنهم يختارون منها ما يتمتع بأولوية أكبر لأسباب ترجع كما قلت إلى دوافعهم الخاصة ، فالغالبية يولون 'التكاليف' أى الفرائض الدينية أولوية قصوى ، حتى ولو أهملوا فيها فأحسوا بالذنب ، وأما قيم الدين الأساسية فهى تخضع للتأويل فى ضوء أنساق قيم أخرى تحتل (ولو كان ذلك دون وعى) مكانًا أرفع فى حياتهم ، فالصدق قيمة تتلون بألوان الحياة العملية ، فقد لا يتورع التاجر عن الكذب ، من منطلق أن التجارة 'شطارة' أو قل إنها حرب والحرب خُدعة ، وقس على ذلك قيم الأمانة ، والوفاء بالوعد ، والإخلاص ، والامتناع عن الأذى (بالقول والفعل) وعن الغش ، وعن الغيبة والنميمة ، وعن التجسس ، إلى آخر القيم التى يزخر بها الدين ، والتى تنص عليها الشرائع السماوية و'تنصح' بها الشرائع الإنسانية ، فكلها يخضع للتأويل ابتغاء تحويل إحدى القيم إلى

قيمة أخرى ، من باب 'قولة الحق التى يراد بها باطل' - على حد تعبير علىّ بن أبى طالب - أو من باب 'إلباس طاقية هذا لذاك' - أى إلباس الشىء لباس غيره ، فالرشوة تصبح 'إكرامية' أو 'حلاوة' أو 'مكافأة' ، ومن يمتنع عن الغش فى الامتحان يصبح أنانيًا محبًا لذاته ، والأجدر به أن يساعد أخاه المؤمن فى محنته (فالامتحان محنة) ، ومن يتجسس يصبح طالبًا للمعلومات فى عصر المعلومات أو العلم الذى أمر به الدين، وقس على ذلك كثيرًا مما يعرفه القارئ خير المعرفة .

والواقع أننى لم أكن أريد هذا الاستطراد بل كنت أريد التركيز على مفهوم القيمة نفسها ، وربط هذا المفهوم بموضوع الأبيض والأسود - موضوع هذا الفصل من الواحات - ولكن فكرة الأولوية فرضت نفسها فرضًا ، إذ لا يوجد فى الدنيا ما يمكن اعتباره قيمة مطلقة ، فالقيم المطلقة مفاهيم مجردة ، أى أننا نجردها من الحياة العملية للإنسان وأحداث الدنيا الواقعية ، ولذلك فهى مفاهيم يعتمد معناها على سياقها ، وتخضع لشرائط كثيرة ، وأخطر ما نعانى منه فى تفكيرنا هو نسيان ذلك السياق وتلك الشرائط ، فنحن نتفق طالما نحينا السياق والشرائط ونختلف حين نوردها ونبحثها ، وأقرب الأمثلة هو خلاف المؤرخين فى الحكم على ما فعله الظاهر بيبرس البندقدارى ، السلطان المملوكى الذى ترك آثارًا مجيدة فى مصر ونُسجت حول سيرته الأساطير ، عندما طعن قُطُز ، السلطان المملوكى الذى انتصر على التتار وكسر شوكتهم وأنقذ مصر والعالم العربى من خطرهم الداهم والذى اشتهر بصيحته المشهورة 'وا إسلاماه !' فجمع الجند من حوله وحارب حتى النصر . لقد طعنه غيلةً وغدرًا ، وهُما فى طريق العودة من الشام ، أثناء توقف الجيش الظافر فى بلبيس ، ثم أعلن أنه أصبح السلطان الجديد ، وبدلاً من أن تستقبل القاهرةُ السلطان المنتصر قُطُز ، استقبلت وهلّلت للسلطان الجديد (الخائن ؟) بيبرس . لا خلاف على الواقعة ، فالمؤرخون المعاصرون يروونها بدقة ، ولكن الخلاف يدور حول مفهوم الخيانة - وهى الكلمة التى وضعتُ أمامها علامة استفهام . لقد طعن قائدٌ حربىٌّ بخنجره سلطانًا وثق به وعيّنه قائدًا لفيلق من فيالق الجيش المصرى ، ولكن بعض المؤرخين يقولون إن قُطُز كان قد وعد بيبرس بتوليته إمارة الكرك فى الشام ثم نكث بوعده (فاستحق القتل ؟) والبعض يقول إنه وعده بجارية ، ومهما يُفِضْ المؤرخون فى التبرير ، نظرًا لعظمة الملك الجديد، فلا مهرب لنا من مواجهة واقعة القتل - وأقصى ما نستطيعه هو تحديد درجة ما من درجات

الخيانة، وأن نحبس حكمنا - أى أن نمتنع عن إصدار حكم أخلاقى - لأننا لا نحيط بدقائق السياق الحقيقى والشرائط الفعلية التى وقعت فيها تلك الواقعة . وقس على ذلك موقفنا من وقائع كثيرة فى التاريخ البعيد والقريب ، فهل كان على بن أبى طالب ، وهو من هو فى الإسلام ، على حق فى حروبه ضد المسلمين ؟ فى حربه ضد عائشة $، وضد غيرها ؟ وهل كانت عائشة أم المؤمنين على حق فى حربها ضده ؟ وهل يجرؤ أحد على إصدار حكم يمس أحدهما ؟ الإجابة تكمن فى مفهوم كلمة 'الحق' ، والعيب يكمن فى تفكيرنا الذى يعامل هذا المفهوم معاملة القيم المطلقة الخارجة عن السياق وشرائط الحياة العملية ، والمجردة عن غيرها من أنساق القيم ، فنحن نريد اليقين والقطع حتى نستريح ، ولذلك فنحن نقلق من مجرد طرح السؤال ، لأن السؤال معناه التساؤل ، والتساؤل قد يعنى الشك ، والشك مرذول ، والتشكيك جريمة فى نظر أصحاب اليقين ، سواء كانوا فى القيادة السياسية أم فى غيرها من القيادات الفكرية ، مع أن التساؤل هو أول شرائط البحث العلمى ، فى التاريخ أو فى غيره ، بل هو الطريق المؤكد إلى درجة ما من درجات اليقين .

وانظر معى هذه القصة الموجزة التى بدأت أحداثها فى السبعينيات ولم تنته آثارها حتى مطلع القرن الحادى والعشرين . إنها قصة موظف مصرى فى إحدى الهيئات الأجنبية جمعتنى به صداقة عميقة ، وجمعنا احترام متبادل ، وهو يصغرنى بنحو عشرة أعوام . وبدأت فصول القصة حين اغترب صاحبنا ، مثلما اغترب المئات بل والآلاف ، طلبًا للرزق فى أمريكا ، لكنه لم يسمح لأمواج الغربة أن تجرفه ، فلم يضع فى الزحام مثلما ضاع صديقى أحمد (. . . . .) وضاع كثيرون غيره ، بل ظل على صلة وثيقة بأسرته فى مصر ، وكان يزور أهله بانتظام كلما سنحت له الفرصة ، ولكن الوحشة فى الغربة قد تصبح قاتلة ، والوحشة عندى هى الإحساس بالغربة والوحدة ، ولقد كابدها الشاب أعوامًا وهو يكد ويكدح حتى بلغ مرحلة الضّجر ، والإنسان قد يشعر بالوحشة ويصل إلى الضجر حتى وهو فى بلده إذا لم يكن لديه من يأتنس به فكرًا وروحًا فيبقى على الصلة الحيوية بينه وبين دنيا الإنس ، والائتناس إذن لون من الانتماء إلى الإنسانية وحياتها الثرية الحافلة ، ولابد لى هنا أيضًا أن أفرق بين الضجر الذى أعنيه وبين السأم أو الملل ، فالضجر هو المرحلة الأخيرة من الملل التى يضج فيها المرء من رتابة العيش وتكرار الصور حتى تفقد معناها ، فإذا ضج المرء أصبح مهيئًا للانفجار ، وذلك ما حدث للأديب والمترجم فؤاد كامل الذى كان يعمل فى اليونسكو ثم أصابه الضجر

وبدأ زملاؤه يشهدون سـأمه وقد بدأ يؤثر فى سلوكه، إذ أصبح عـزوفًا كتومًا، وقال لى زميلى المتـرجم كمال عزت إنه شهـد ذلك بنفسه، وكان يقول له بالفـرنسية (J'en ai assez) أى ''حسبى ذلك'' أو ''لقيت ما فيه الكفاية''- وإذا بفؤاد كامل ذات يوم يترك مكتبه أثناء الـعمل، ودون وداع أو كلام ، يتجه إلى مطار باريس الـدولى ويستقل أول طائرة إلى مصر دون نظرة واحـدة إلى الوراء كما قال كمـال عزت الذى أردف قائلاً إنه يعـجب من سلوك فـؤاد كـامل لأن باريس فـيهـا كل شىء ولكنه كـان قـد 'زهق !' وأعجبتنى كلمة 'زهق' العامية لعلاقتها الوثيقة بصورتها الفصحى، ومعناها الذى يوضح معنى الضجر .

وقد يجد الإنسان وهو فى هذه الـحالة مخرجًا فى الزواج ، فالزواج علاقة حـميمة تتيح للزوجين إذا صدقت عـلاقتهما تمازجًا وثيقًا وألفـةً دافئة ، وفى ظنى أن ذلك كان سبب زواج صـديقى من الفتاة الأمريكيـة التى آنسته فأنس إليـها ، ولا شك أن الزواج قضى على الضجـر فترة ما ، وأتاح لصديقى لونًا من الاستـقرار ، ولكنه كان يعنى أن يتكيف مع الحـياة الأجنبـية وينضم بحكم الزواج إلى أسـرة جديدة تخـتلف تقالـيدها وأعرافهـا عن كل ما درج عليه فى مصـر ، وكان ذلك شاقًا فى البداية ، لكنه اسـتعان بقناع خاص ، وما أمهر الـمصرى فى استعمال القناع ، فاستطاع تـجاوز بعض العقبات بنجاح ، لكنه سرعان ما واجه عقبة كبرى هزت حياته هزًا .

كانت لزوجتـه أختٌ أنجبَتْ بنتًا سفاحًا ثم وقعت فى هوة الإدمان وفـرّ والد الفتاة فاخـتفى فى أرض الله الواسعـة ، ثم حكم على الأم بالسجن ، وأصـبحت البنت دون مأوى فـتأثرت زوجة صـديقى لما حدث وعـرضت عليه أن يتبنّيـاها ، ورفض صديقى بطبيعة الحـال فالتبنىّ محرّم شرعًا ولا يستطيع المـسلم أن ينسب نسل أحد إلى نفسه ، واشتعل الخلاف بينهـما فلجأت إلى المحكمة فحكمت المحكمـة لها بجواز التبنىّ رغم معارضة زوجها ، وطعن صديقى فى الحكم فقيل له إنه ما دام على أرض أمريكية فلابد أن ينصـاع إلى القوانين الأمـريكية ، وإن له أن يثبت رفضـه لأسباب دينيـة ، ولكن القـانون يبيح لزوجـتـه تبنى طفلة أختـهـا ، والقـانون يناصر المـسـتضـعفـين (the vulnerable) ولما جـاء حكم الاستئناف لصـالح الزوجة ، فُرض على الزوج أن يوقع على استمارة 'بيان حالة' (استخدمت فيما بعد للتدليل قانونًا على موافقته الضمنية) .

وأظهرت المـعركة القانونـية أن ما كان صـاحبى ينشده من ائتناس قـد تحوّل إلى كراهية باطنة غير معلنة ، والكراهية ليسـت عاطفة سلبية ، فليس معناها غياب الحب ، بل هى قوة دافعـة فى الاتجاه المضاد ، والغريب أن الحب عندمـا يفشل قد ينقلب إلى كراهية مثل القطب الموجب فى المغناطيس الذى يتحول إلى قطب سالب ، ينفر منه ما كان ينجذب إليه ، وهو لا يتحول بين الزوجين عادة إلى حالة حياد عاطفى أو لا مبالاة (apathy) بل قد يصبح نفـورًا شبيهًا بالبغـضاء التى تولد العداوة ، مثل مـا قد يحدث عندمـا تنقلب الكراهية إلى حب أو العـداوة إلى صداقـة و وُدٍّ بل وحبّ ! وهكذا بات الطلاق السبيل الأمثل للخروج من وَهْدة الكراهية ، وبات صديقى نادمًا على زواجه غير المـوفق ، ولكن المكتـوب مكتـوب كمـا يقـولون، والطلاق فى الغـرب كـارثة بكل المقـاييس، فهو يعنى اقتـسام كل شىء بين الزوجين من مـال وعقار ومنقولات ، مـما يقتضى الاستعـانة بخبير مُثمِّن (valuer) قانونى ، لتـحديد قـيمة كل شىء وحـسم ما يخص الزوج وما يخص الزوجـة ، وهى إجراءات طعمها مـر أو مقيت - على الأقل - ولكن أمـرّ ما فى الأمر هو الحـكم بنفقة لـتنشئة ابـنة أخت الزوجة ، بعـد أن أصبح القانون يقـول إنها ابنة صديقى (ولو بالتبنى) . ووكّلت الـزوجة أمهر المحـامين الذين يعرفون دخائل القوانين الأمريكية ويجيدون نصب الشباك القانونية لإيقاع ''ابن العرب'' فيها ، فصدر الحكم بنفقة تعادل مرتبه ''حفاظًا على مستوى المعيشة الذى كانت البنت تتمتع به قبل الطلاق'' . ولم تكتف بذلك بل حكمت بخـصم هذا المبلغ شـهريًا من مرتبه الذى تدفعه الهـيئة الأجنبية ، وظل صديقى يدفع نفقات فتـاة غريبة عنه حتى بعد أن كبرت ولم تعد تستحق النفقة ، فرفع من جـانبه قضية عن طريق محامٍ مصرى يعمل فى أمريكا لاسترداد ما خصم من مرتبه دون وجـه حق ، ولكن الهيئة التى يعمل بها ما زالت تخصم نصف مرتبه ، ولا يجرؤ أحد علـى تغيير أى شىء ، إذ يبقى الحال على ما هو عليه حتى تصـدر المحكمة حكمًا نهائيًا فى القضيـة التى لا تزال المحاكم تنظرها حتى اليوم (٢٠٠٢) ولا يجرؤ أحد فى تلك الهيـئة على أن يعترف بأن خطأً ما قد وقع لأن ذلك معناه محاسبة المسئول عن ارتكاب ذلك الخطأ - وكيف يعترف أمريكى بخطأ أمريكى آخر فى حق عربى ؟

هذا هو موجز القصة الموجعـة ، وقد يخفّف من ألمها أن صديقى تزوج من جديد ولكن من فتاة عـربية هذه المرة ، ووُفِّق والحمـد لله فى هذا الزواج ، وأنجب منها بنتًا جميلة ، بل وترك أمريكا إلى الأبد ولم يعد يقـبل الإغراء بالعودة إليها ولو فى منصب

أعلى ، ولكن الألم – ولو خفّ – ما زال قائمًا ، وأنا حائر فيما عساى أن أقوله بشأن هذه القصة التى لم تنته فصولها بعد، فهل أخطأ صديقى بالزواج من أمريكية ؟ أم هل أخطأ بالزواج من هذه المرأة تحديدًا ؟ وهل أخطأ حين رفض التكيّف الكامل مع المجتمع الأمريكى ما دام قد قبل الحياة فيه ؟ وهل أخطأ حين وقّع استمارة بيان الحالة– وهى التى استخدمت ضده فى المحاكم فيما بعد ؟ وهل كان عليه أن يُصرّ على الطلاق قبل أن يقبل دخول الابنة المتبناة منزله ؟ إننى أميل – بطبيعة الحال – إلى تبرئته تبرئة كاملة ، ولكن موقفى هو موقف العربى الذى يعتنق مبادئه نفسها ويتعاطف معه بسبب مشاركته قيمه وشتى ظلال الأبيض والأسود فى تلك القيم ، ومع ذلك فسوف أجد بين القراء العرب أنفسهم من يختلف معى ، وقد يجيب بالإيجاب على سؤال أو أكثر من الأسئلة الخمسة التى طرحتها . وأما القراء الأجانب – أى من غير العرب – فلا أظن أننى سوف أجد من بينهم من يشاركنى موقفى ، فإذا وجدت بين الأوروبيين من يتعاطف معى ولو لأسباب منطقية محضة ، فلن أجد بين الأمريكيين من يوافقنى على مساندتى لموقف صديقى بل سيرى فى القصة انتصارًا للطفولة البريئة ، وتأكيدًا لحق الإنسان فى الحياة بغض النظر عن أى شىء ! فأنساق القيم التى تحدد درجات اللونين الأبيض والأسود أنساق لا تخلو من العصبيات العرقية ، وهى عصبيات تتنافى تمامًا مع القيم الدينية السماوية – سواء كان ذلك فى المسيحية أو الإسلام– كما تتناقض مع قيم العدالة التى تنص عليها الشرائع التى وضعها الإنسان ، ولكنها قوى حقيقية بل وأحيانًا ما تكون القيم الرئيسية التى تتحكم فى الأحداث لا على المستوى الفردى فقط بل على المستوى الجماعى أيضًا ، على نحو ما نشهد فى السياسة الدولية ، فليس صحيحًا أن السياسات الدولية لا تمليها إلا مصالح الشعوب وحدها ، أو مصالح 'الطبقات الحاكمة' وحدها ، أو حتى 'مصالح' أفراد بعينهم فى حكومة هذا البلد أو ذاك وحدها ، لأن افتراض دوافع المصالح يعنى أن الإنسان يحكّم عقله دائمًا ويختار ما يخدم 'مصالحه' دون غيره ، والمقصود بالمصالح هنا الفوائد المادية التى تعود على الإنسان فى الحياة الدنيا ، وهو يعنى أن الإنسان لا ينشد إلا الرخاء مثلاً وفرض السيطرة التى تؤمّن الرخاء وتفى بمطلب الإحساس بالقوة ، والرخاء مطلب تمليه طبيعة الحياة ، والقوة من العوامل

النفسية التى تحدث عنها الفلاسفة وعلـماء النفس فأفاضوا ، وسوف نجد تحليلاً لها فى نظرية تصارع الإرادات عند شوبنهاور ، وفى نظرية الغلبة والسـيادة عند نيتشه ، وجدليّة الخادم والسيد عند هيـجل ، ونظرية السلطة أو القوة عند عالم النفس أدلر ، ولن يصح لنا افتراض المصالح المادية حتى لو ربطنا هذه الدوافع النفسية بدوافع اقتصادية خالصة ، أو قصر الدوافع التى تحرك الإنسان على مـقتضيات الحياة المادية المحـضة ، فقد يقدم البعض على أعمال يعرفون خير المعرفة أنها مدمرة لحياتهم الاقتصادية أو المادية إرضاء لدوافع غير عقلانية - مثل المشاعر أو العـصبية أو الثأر - وقد تبلغ المشاعر من العنف ما يجعلها تكتسى صورة العاطفة المشبـوبة ، حبًا كانت أم كراهية ، وقد تُعمى العصبية الإنسان عن مصالحه حتى الواضح والقريب منها ، وأما الثأر فحدّث عنه ولا حرج !

وعندما قصصت هذه الـقصة على الأستاذ دايد فـرانكلين ، أستاذ تاريخ الفنون فى جامـعة بيتـسبيـرج فى مطلع عام ١٩٩٩ ، أثناء زيارتى للجـامعـة ، قال لى ونحن فى الطائرة المصرية التى ركـبناها فى طريقنا إلى القاهرة ، فهو مولع بمـصر وفنونها ، قال لى : ومن أدراك أن صديقك لم يتزوج الأمريكية إلا ليحصل على الجنسية الأمريكية ؟ فلمّا أنكرت ذلك وقلت له إنه لم يحـصل على تلك الجنسـية بل حـافظ على جنسيـته المصرية ، وما زال يحـمل جنسية بلده إلى الآن ، قال لى : القضـاء الأمريكى يفترض ذلك فى كل الأحوال أو هو يظن ذلك فى جميع هذه الحالات لتواترها وكثرتها ، فقلتُ له أحاوره : ولماذا لا يحسن القضاء الظن بالناس فـيقيم العدل الذى يسعى - تعريفًا - إلى إقامـته ؟ فضـحك وقال : وهل العـدل أن تتزوج وتطلق كمـا يحلو لك ؟ ورأيت التعبير مستفزًا فقلت له إن صاحبى ليس مزواجًا بل هو اتبع السبيل القويم فختم علاقته بزواج مشـروع ! فازداد ضحكه وقـال ما مـعناه إننى أتحدث بلسان الـمثل الأعلى الذى سقط وهوى فى الغرب منذ زمن بعيـد ، فالزواج ليس ما تُصوِّره الفنون والآداب - أى ليس علاقة حب بين اثنين ، بل هو مـؤسسة 'قانونية' (a legal institution) الغرض منها إضـفاء الشرعية على الأبـناء واستقرار صورة المـجتمع ، لكنه فى جوهـره يتجاوز العلاقة الثنائية ، فيسمح 'باللعب' لكل من الزوجين إما سرًا وإمّا علنًا ، وأضاف قائلاً ''ولا تزعم أن ذلك غريب عن المجتـمعات الشرقية ! كل ما نخـتلف عنكم فيه هو أننا نخدع أنفـسنا بإضفاء قـداسة مطلقة على رباط الزواج ، إيهـامًا للعامة بأننا نقـدسه من

حيث هو رباط مقدس ، وإن كنا نسخر عمليًا من هذه القداسة ، وكان الأجدر بصديقك أن يدرك ذلك" فقلت له إنه كان صادقًا مع نفسه ، وأتوقع منه أن يكون كذلك دائمًا حتى لو أدرك ما تقول . واختتم فرانكلين الحوار قائلاً : لا يوجد اليوم فى الغرب من يصدق مع نفسه كل هذا الصدق ، وإن حدث فهو الاستثناء الذى يؤكد القاعدة ولا ينفيها ، وكان يمكن لصديقك أن يعيش مع تلك المرأة دون زواج ! فأسرعت أقول : حتى لو أنجب أطفالاً ؟ فقال بلهجة من اكتفى بما قيل : وهل يعارض القانون الأمريكى ذلك ؟ وانظر ما حدث مع أختها وابنتها !

وذكرتُ حادثةً شهدْتُ نهايتها ولم أشهد بدايتها ، إذ ساقت الأقدار إلىّ فتاة فى عمر ابنتى ، قرر والدها ذات يوم أن يهجر عمله فى القاهرة وأن يعود إلى قريته حيث يملك أرضًا زراعية لا أعرف مساحتها ولكنها تكفى فيما يبدو لإعالته هو وأبنائه الكثيرين ، ولكنها قررت استكمال دراستها فى الجامعة ، فكانت بذلك تعصى أمر الوالد ، فكان يتنكر لها حينًا ويشفق عليها حينًا ، فعاشت فى ضنكٍ مع زميلة لها زمنًا ثم تزوجت زواجًا عُرفيًا من أحد زملائها ، وكانت فيما يبدو تأمل أن يتحول إلى زواج رسمى ، إذ كان يحبها حبًا جمًا - كما تقول- ولا يطيق فراقها ، ويبدى الإخلاص كل الإخلاص لها ويستأجر لها شقة مفروشة فى حى شعبى يعترف بزواجهما ويباركه ، فأحست بأنها اقتربت من تحقيق أحلامها ، وكانت تعرف أنها يجب أن تتجنب إنجاب أطفال فى هذه المرحلة فاحتاطت لذلك ولكنها حملت وأنجبت ، واشتعلت الخلافات مع زوجها ، فانفصمت عرى الزواج ، فعادت إلى والدها مهيضة الجناح كسيرة الخاطر فوقف إلى جوارها فى هذه المحنة وعندما وُلد الطفل سجّله فى دفتر قيد المواليد باسمه هو ، فأصبح ابنُها رسميًا أخًا لها ، وتركته فى البلد وعادت إلى القاهرة لاستكمال دراستها حتى حصلت على الدرجة الجامعية ، وحصلت على وظيفة لا بأس بها ، ولكنها كانت تعانى دائمًا من ضيق ذات اليد ؛ ولم أبخل عليها بالنصح والإرشاد حين وثقت بى واعترفت لى بكل شىء ، ثم أَتَحْتُ لها من الأعمال الإضافية ما قدّرنى الله عليه ، فكانت تزورنى فى الجامعة بانتظام طيلة سنوات عملى رئيسًا للقسم ، حتى جاء يوم قالت لى فيه إنها فوجئت برجل يتقدم لطلب يدها ولا تعرف ماذا تفعل ، وقالت إنه رجل سبق له الزواج ويعمل فى بلد أجنبى ، وإنها ذكرت له الحقيقة كاملة فأبدى

التفاهم والتعاطف ، وكـانت قد قدمته لها زميلة من زميـلاتها المخلصات ، وقالت إنه أكّد لزميلتها أنه معجب بصراحتها معه ومصرٌّ على الزواج منها . ولم أجد ما أقوله لها سوى أن تستشير والدها وحبذا لو اصطحبت هذا الرجل إلى 'البلد' لمقابلته . وتوقَّفَتْ أنباؤها عنى شـهورًا ثم اتصلت بى تليفـونيًا لتقول لى إنهـا تزوجت وسوف ترحل مع زوجها بعد قـضاء أسبوع 'العسل' فى أحد الفنادق ، وتناول السـماعة زوجُهـا فشكرنى على مسـاعدتى إياها ، وأرسل لى فـاكسًا بعنوانه فى ذلك البلد الأجـنبى – وفى أواخر أغسطس ١٩٩٨ رحـلا معًا ، ولم أسـمع صوتها بعـد ذلك إلا مرة واحـدة إذ حادثتنى بالتليفون بعد نحو عام لتسأل عن 'صحتى' ، ثم انقطعت أخبارها منذ ذلك الحين.

لقد حدث هذا فى مصر ، وحدث ذلك فى أمريكا ، فكيف نحدد – اهتداءً بأنساق القـيم هنا أو هناك درجات اللونين الأبيـض والأسود ؟ إن افتـراض أى معـايير مطلـقة للحكم يظل افـتراضًا نظريًا ، وكل الافـتراضـات النظرية تنهـار أمام تعـقيـدات الواقع وتشابكاته ، ويندر أن يحيط الإنسـان علمًا بكل التفاصيل وكل الحقـائق ، ولذلك فقد تعلمت أن أتوقع من الأحداث أن تفسر بعضها البعض ، لأنها تكشف عن دوافع بشرية قد تظل طىّ الكتـمان أو قيد المجـهول إلى الأبد ، فلا يُماط اللثـام عنها إلا يوم الحق (الحـاقّة) وأما الإنسـان فى هذه الدنيـا فهـو ينتـقل بين كهـوف النفـوس التى لا تضئ الأحداث إلا جوانب محدودة منها .



قد يكون تعبير كهوف النفوس من قبيل المجاز الشعرى ، إذ يتحدث وردزورث عن المغارات الخبيئة فى النفس التى لا تنفذ أشعة الشمس إليها أبدًا قائلاً :

> Caverns there were within my mind, which sun
> Could never penetrate
>
> (*The Prelude*, 1805, iii, 246)

أى [كانت فى نفسى بعض كهوف لا يصل إليها ضوء الشمس على الإطلاق]

ويتحدث غيره من الشعراء- مثلما تحدث هو- عن الكهوف البحرية (grottoes) التى كان يحب الغوص إليها فى أعماق ذاته، وهى الصورة التى استعارها عالم النفس يونج (Jung) للإشارة إلى أعماق الوعى ثم اللاوعى (الفردى والجماعى) ففى أعماق النفس مغارات نرثها من الطبيعة البشرية، بعضها مشترك بين أبناء البشر، ويتفاوت بعضها من فرد إلى فرد، ومن يجهد نفسه فى الغوص والتعمق يجد المزيد من الألغاز التى قد لا تظهر إلاّ فى الأحلام، سواء كانت من أحلام النوم أو أحلام اليقظة، ومواجهة هذه الألغاز عسيرة مرهقة، والاستبطان محفوف بالمخاطر، وقد تأتى الشاعر لحظة المواجهة دون انتظار فتفاجئه، وقد تأتيه بعد مجالدة طويلة، وقد يسعد بها أو يشقى، لكنه يدرك فى الحالين أنه قد كُتب عليه أن يرى ما لا يراه غيره، ومن هنا كان تشبيه الشعراء بالأنبياء، فالوحى الذى يوحى للأنبياء أو لذوى الشفافية الروحية قبس علوى يبعثه الله سبحانه وتعالى حتى يضئ لهم بعض تلك الأغوار، وقد لايجد الشاعر مثل الصوفى سوى الرموز التى تشير وحسب إلى تلك الألغاز، فيعبر عنها بالرمز وبالاستعارة، وقد يشق فهمه على من يتجاهل تلك اللحظات الكاشفة، وما أكثر ما تشغلنا الدنيا حتى عن نفوسنا، وما أندر من يرى فى شعر الشاعر الحق تلك اللحظات ليدرك عبث سعيه اليومى فى الكسب والإنفاق كما يقول وردزورث فى مطلع إحدى سونيتاته :

ما أكثر ما تشغلنا الدنيا
اليوم وبالأمس
فى الكسب وفى الإنفاق
فنبدّد طاقاتِ النفس !

[The world is too much with us late and soon
Getting and spending, we lay waste our powers]

والواقع أن كل إنسان يمر بهذه اللحظات ، ولكنه قد يمرّ بها أو تمرّ به دون أن يعرفها أو دون أن تستوقفه ، أو قل دون أن يوليها ما هى جديرة به من اهتمام ، فالذى لا يقرأ ولا يكتب لا يستطيع التعبير عنها ، أى يعجز عن وضع إحساسه بها فى كلمات أى أن يحيلها إلى أفكار واضحة ، أو قد يترجم إحساسه بها إلى ما درج عليه من شعائر أو من عادات أو من أساطير ، ولكن المعنى يظل قائمًا ، وقد نجده فى قول من يقول لك إنه قد هتف به هاتف ، أو إنه قد رأى فيما يرى النائم ما يوحى له بفعل كذا أو الامتناع عن فعل كذا وكذا ، وقد تتجاوز هذه الهواتف والرؤى ظلال الأبيض والأسود ، بل قد تتجاوز منطق الحواس تجاوزًا تامًا ، لكنها فى كل حال دليل على

صدق حياة الروح ، وكثيرًا ما أجد فيها عندما تمر بى نورًا يذكرنى بالنور الأعظم ، ويساعدنى فى مجالدة الدنيا .

ولا أزعم أننى أقدر من غيرى على الكشف عما يدور فى كهوف النفس ، ولكن إحساسى بوجود الكهوف قد ساعدنى على امتداد سنوات طويلة فى مواجهة من شغلتهم الدنيا حتى أنستهم أنفسهم ، وقد يجد رجل الدين فى هذا تفسيرًا لقول الله تعالى إن هؤلاء قد نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، على الرغم من كل ما يتبدى من حسن صنيعهم ، (فهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا) وقد يجد الشاعر فيهم مثالاً لذوى الأرواح الخامدة – على نحو ما وصف شيكسبير فى مسرحية **تاجر البندقية** من لا تدف الموسيقى بين جوانحه (على لسان لورنزو يخاطب حبيبته جسيكا) :

The man that hath no music in himself
Nor is moved with concord of sweet sounds
Is fit for treasons, stratagems and spoils :
The motions of his spirit are dull as night
And his affections dark as Erebus :
Let no such man be trusted. Mark the music !

The Merchant of Venice, V, i. 83-88

من لا يحمل بين جوانحه الموسيقى
أو من لا يتأثر بالأصوات المتوافقة العذبة
لا يربأ أن يرتكب خيانة
أو يمكر أو يتآمر أو يسلب أو ينهب !
جيشان الروح لديه خمد
شأن الليل الأبهم
ومشاعره ظلماء
مثل القبو المعتم
لا تولى أيا منهم ثقتك ! فلتصغى للموسيقى !

ولكننى كنت أرى فى هؤلاء وأضـرابهم مثالاً للغـافل فأشفق عليـه ، ولا أقيم له وزنًا ، وما الموسيقى - عند شيكسبير وغيره - إلا مثال التناغم والتوافق داخل النفس ، وأزيد على ذلك فى سـياق حـديثى عن درجات اللونين الأبيـض والأسود ، أنهـا رمز للتناسق بين أولويات حياتنا، أو بين ألوانها المتبـاينة ، أو قل إنها تمثل نجاح محاولة إيجاد التناغم بين المتنافر من عناصـرها ، وذلك بالعودة إلى حقائق الوجود وتذكّر أن الإنسان قد خـلق ضعيفًا ، ومن ثم فلابـد له من مصادر قوة تـتـمثل فيما يمـتاز به على سـائر الكائنات ألا وهو الوعى ، أى حـيـاة الذهن والنفس مـعًا ، وهى حيـاة حـافلة بالمتناقضـات التى تتطلب التنسيق والاتساق بجهـد واع ، أى بجهد متعمـد ، وقد يجد بعضنا أن العمل قد شغله حتى أنساه التناسق ، أو - ويا للعجب - أن الراحة قد ألهته حتى أنسـته معنى التناغم ، وهو فى هذا وذاك يجد من المـبررات ما يساعـده على تقبل واقعه والرضى عـنه ، بل إن أكثرنا لا يتوقف فى العـمل أو الراحة ليتسـاءل عما يريده لنفسه أو لمجـتمعه أو لوطنه ، وما أكثر ما تتـبدل درجات اللونين الأبيض والأسود كل يوم حتى يختفى التناغم تمامًا ويسود النشاز .

بالقراءة وإلى البعض الآخـر بالاستبطان ، وأحيانًا كنـت أجلس مع بعض معارفى لأستمع لما يقولون وقد جعلت همّى محاولة النفاذ إلى بعض كهوفهم، فمعظم الكهوف مشتركة بين البشر، وكنت دائمًا أعرف أننى نجحت (أو أننى بسبيلى إلى النجاح) حين أنجح فى دفع أحدهم إلى أن يقص علىّ طرفًا من حـياته الأولى،فعادة مـا يبدأ الحديث بإطلاق العنان للقناع(persona)حتى يتكلم وهو يتوقع أن ينتـهى بعد لحظات، فكأنما يلقى خطابًا حفظه من طول تكراره على نفسه وعلى السـامعين ،فإذا اطمأن إلى أن القناع قد ثبتت ملامحه أمامى، وكنت لا أزال استحـثه على الحديث بالتهوين من نقاط ضعفه الصغيرة (petty foibles)وتأكيدى له أنها نقاط ضعف بشرية عامة لايسلم منها إنسان، وخصـوصًا إذا رسخ فى يقينه أننى أتعاطف مـعه كل التعـاطف، ما دامت تلك طبيـعة الإنسـان التى خلقهـا الله والله توّاب رحـيم،أقول إذا اطمـأن إلى ذلك بدأ يتـخلى عن دروعه ويخرج بعض ما يخفى فى كهوف نفسه، فإذا ما كان القناع يصوره على أنه أبيض ناصع وقد اكـتسى حلكة الليل،وإذا مـا كان يصوره عـلى أنه أسود وقد خـفّت درجات سواده كـثيـرًاحتى كـادت تتلاشى أو قل إنهـا أصبـحت تتراوح بين درجـات الأبيض والأسود، فى مـواطن الزلل الطفيـفة (peccadilloes)وفى الخطايا المتعـمدة التى يقدم عليهـا المرء مدفـوعًا بنوازع دفينة ومخاوف باطـنة ينكرها قناعه ويمجّهـا عقله الواعى، ويستـوى فى ذلك غير المـتعلم الذى لايستطيع التـعبير المـحكم عما يدور فى نفـسه،

ناهيك بما يختبئ فى كهوف النفس المظلمة ، والمتعلم الذى يتمتع بالقدرة على التعبير، مهما تكن حدود تلك القدرة ، فهى قدرة يحكمها ما اكتسبه من المجتمع من مفردات اللغة ومصطلحها ومن دلالات هذا وذاك .

ولقد درجت على اختزان صور هذا وذاك وتذكر العبارات الدالة التى يلقون بها فى غمار الأحاديث العامة أو العابرة ، وكنت دائمًا ولا أزال أسعد بالاستماع إلى أحاديث هذا أو ذاك حتى ألمح فيها خيطًا يقودنى إلى ما قد يختفى فى 'الكهوف' ، وأذكر أن الأقدار ساقتنى إلى جلسة مطولة مع علىّ (. . . . .) التاجر المزواج الذى أشرت إليه من قبل ، وذلك فى أواسط الثمانينيات، وكنت فى زيارة قصيرة إلى بلدى رشيد ، وقد تعرفت عليه فور مقابلته ، على كثرة ما كسا وجهه من الغضون وما كسا شعره من الشيب ، ورحب بى ترحيبًا لم أكن أتوقعه، وكان يردد 'حمد لله بالسلامة' واكتشفت أنه يقصد العودة من انجلترا لا الوصول من القاهرة إلى رشيد عندما بدأنا الحديث فى مقهى 'أبو علفة' على شاطئ النيل (الذى كانوا يسمونه كازينو أبو علفة فى أيام طفولتى). وأحسست منذ البداية أنه يريد أن يحادثنى على انفراد فكان يوحى لكل من يشاركنا المجلس بأن ينصرف ، وكنا قد قصدنا إلى المقهى بعد صلاة العشاء ، وأضواء الليل تنعكس فى صفحة النيل الساجى كالمرآة ، ولاحظت أنه يسعل سعالاً خفيفًا كأنه 'سعال عصبى' أى لا يرجع إلى مرض فى الصدر ، لكنه كان يزداد كلما 'أخذ نفسًا' من الشيشة ، واستمرت أحاديثنا حتى امتدت ساعات طويلة، وكان قد بدأها بالشكوى مما فعله أبناء أسرته الذين هاجروا واستقروا فى الاسكندرية من تغيير اسم أسرتهم إلى الرشيدى كأنما يتنكرون لجذورهم ، بل ولانتمائهم الحقيقى لهذه الأسرة العريقة (وكان ذلك ما فعلته أسر رشيدية كثيرة فى الواقع) ، وما عتم أن حول دفة الحديث إلى انجلترا، فسألنى عن الانجليزيات وأوصافهن ، وكان يطلق صفة 'الانجليزية' على أى امرأة أجنبية ، أوروبية كانت أم أمريكية ، من اللائى كان يشاهدهن فى المسلسلات التى يذيعها التليفزيون أو فى أفلام السينما ، وكنت أجيبه إجابات مقتضبة ، فكان يستزيدنى ويلح علىّ أن أذكر التفاصيل الدقيقة ، ثم انتقل إلى الرجال 'الانجليز' ، وسألنى عن حقيقة ما يسمع من افتقارهم إلى الفحولة .

ولم أدرك الدلالة الكاملة لذلك إلا حين تحوّل الحديث إلى زيجاته الكثيرة ، وأبناء من صاهر من العائلات 'المحترمة' ، وقضايا الطلاق والنفقة ، وصفات بعض زوجاته 'المحترمات' الكتومات ، وبدأ يركز على آخر زوجة طلّقها ولم تكن 'محترمة' إذ أشاعت عنه عيبًا تستنكف المحترمة من الحديث عنه . وسألنى إن كان هذا يحدث

فى بلاد الانجليز فقلت له إن المجتمع فى الخارج مجتمع مفتوح لكنه يحترم الحرية الشخصية ولا يُفيض فى تفاصيل العلاقات الحميمة (intimate) أو يلوك سمعة أحد ، إلا فى بعض مناطق الريف ، فتنهد وتأوّه آهة كبيرة وقال إنه يحلم بالذهاب إلى انجلترا، وأن يقضى بقية عمره بين هؤلاء 'المحترمين' ، وإنه يتساءل كم يكفى الإنسان من المال إذا أراد أن يعيش 'مستريحًا' (comfortable) فى انجلترا دون حاجة إلى العمل . وذكرت له بعض الأرقام وأنا أعجب فى نفسى لذلك الحلم الغريب ، وإن يكن حلمًا مشروعًا ، خصوصًا والرجل فى خريف العمر .

وذكرت عاطف السيد، الضابط السابق الذى حصل على ليسانس التاريخ بامتياز وعلى الماجستير فى تاريخ البحر الأحمر فى حروب المنطقة، وكتب أكثر من كتاب فى الموضوع، ثم جاءنى قبل سنوات لإعداد خطة لدراسة الدكتوراه فى الأدب المقارن، وساعدته، وأهدانى دمية صغيرة لطائر يشبه الببغاء (من الفخار)وضعته فوق التليفزيون ثم انكسر،وكان يراسلنى من جامعة إكستر بانجلترا حيث كانت زوجتى تدرس للدكتوراه، وقد باع أرضًا زراعية كان يمتلكها أو- كما قال لى- ''صفّى أعماله فى مصر'' فى سبيل الدكتوراه، ولا أعرف إن كان قد حصل على الدرجة أم لا،ولكن المقام قد استقربه فى إكستر، كما علمت من الدكتور زياد الشكعة الذى كان يدرس فى الجامعة نفسها، وبلغنى أنه أصبح يُعين الدارسين المصريين فى كتابة رسائلهم الجامعية، وقد يكون ذلك الآن مصدر رزقه ، وربما كانت لديه أرصدة حوّلها من مصر إلى انجلترا .

لم يكن الحلم محالاً إذن ، وإن كان غريبًا بسبب دوافعه الغامضة، أو التى كانت غامضة آنذاك، فحينما توغل الليل وأقفر المقهى من رواده، وازداد إقبال 'على' على الشيشة حتى بدا عليه ما يشبه الخدر وانتظمت نبرات صوته حتى أصبحت مثل النغمات الرتيبة المنخفضة، وتراخى جفناه كمن يغالب النوم، بدأت تخرج من شفتيه عبارات كشفت عن بعض 'الكهوف' التى قرأتُ عنها فيما قرأتُ من أعمال أدبية، والتى لم أكن أتوقع أن يُطلّ منها أى شىء فى جلسة واحدة ، أو أنفذ إلى أحدها بهذه السرعة، فحدست 'العيب' الذى قال إنه أشيع عنه، وأسرعتُ برواية قصة حقيقية وقعت لأحد أصدقائى فى انجلترا حتى أهوّن عليه الأمر ، وهى قصةٌ مطابقةٌ لما كان يكمن فى أحد تلك 'الكهوف' وما حدست أنه يمثل لُبّ المشكلة ، وقلت له إن مثل هذا 'السر' يظل بين المرء وزوجته إلى الأبد، وكنت أتصوره شبيهًا بما شاع عن امرئ القيس وما نقضه العقاد فى كتابه اللغة الشاعرة، وتمنيت من أعماقى أن تجعله تلك القصة يصرح بما

أخفى، ولكنه استمر فى حديثه بالنبرات الرتيبة التى كست كلماته ببطء مَلَلْته، فحثثْته على النهوض ونهضنا.

وشغلتنى القصة - بطبيعة الحال - فى اليوم التالى وجعلت أسأل كل من أعرفه من أصدقاء الصبا ، ولكنهم كانوا لا يعرفون عنه إلا القناع ، فهو المزواج الناجح ، وكان بعضهم يتحدث عن ذلك بإعجاب ، إذ كان معظمهم قد نزح إلى الاسكندرية فتلقى التعليم الجامعى والتحق بعمل أو وظيفة ما وتزوج من غير بنات البلدة ولم يعد هذا الموضوع يمثل له إلا ذكريات المراهقة واليفوع ، وكان بعضهم يحن شوقًا إلى حياة الفراغ وضعف الإحساس بالزمن الذى يبدو كأنما يمتد بلا نهاية فى الريف ، وربما كان البعض يحن شوقًا إلى أسلوب الحياة المطمئنة ، وهو الأسلوب الذى يتيح الزواج وتعدد الزيجات أو الزوجات بلا مشاكل ظاهرة ، وهو ما بدا أن عليًّا قد حققه ، وكدت أيأس من معرفة ما رأيت أنه أشباح تسكن 'كهف' صاحبنا ، حينما ساقت المصادفة إلىّ امرأة من 'ألاضيشنا' ، أى من المترددات على منزل الأسرة اللائى عرفناهن صغارًا واعتدناهن كبارًا ، فسألتها بلهجة لا تنم عن اكتراث عن صاحبنا ، وكانت من 'الاضيش' أسرته كذلك ، فإذا بها تُفصح وتُسهب فيما اعْتَبَرَتْهُ عيبًا يعيب الرجال ، وذلك بألفاظ صريحة إلى حد الصراحة الموجعة ، وكنا نقف فى بهو المنزل ، ويبدو أن والدتى التى كانت فى غرفة بعيدة قد سمعت طرفًا مما كان يقال فصاحت بالمرأة تنهرها ، فتوقفَتْ عن الحديث ، ولكنها كانت قد قالت ما يكفى .

وعندما خلوت إلى نفسى وضممت أطراف القصة بعضها إلى بعض ، وجدت أن أحد الأشباح التى كنت أبحث عنها هو سخرية أمه منه منذ الطفولة بسبب ما ضنّت الطبيعة به عليه بما حبت به إخوته الذكور من دلائل الفحولة الظاهرة ، وأن والدته كانت تفصح عن ذلك دون مواراة ودون مراعاة لما قد يترسب فى نفسه من مرارة ، ولكن الأم الجاهلة لم تكن ترى فى ذلك غضاضة بل مصدر تفكّه وتندّر ، بل إن أخواته كن يتفاخرن بما حبت الطبيعة به أزواجهن ، ولا شك عندى فى أن ذلك ترك آثاره العميقة فى نفس الصبىّ ، فلم يكن يشارك الصبيان تفاخرهم بهبات الطبيعة ، بل كان يكتم فى نفسه الغيظ ويحلم بيوم الزواج الّذى يغادر فيه منزل أمه وتصبح له زوجة تؤكد له أنه لا يختلف عن سواه . ووجدتُ شبحًا آخر يتمثل فى رغبته الدفينة فى تعذيب امرأته ، إما بالعنف أو بالحرمان أو بالطلاق ، كأنما لينتقم من أمه فى كل أنثى ، ورأيت أن أمامى 'حالة مرضيّة' - كما يقول علماء النفس - ولكنها حالة يصعب فيها التوغل فى أعماق ما أسميته بالكهوف ، وقد أكون مخطئًا فى هذا

'التشخيص' ، وقد تكون هناك أسباب أخرى لولوعه بالزواج والطلاق وانشغاله المبالغ فيه بذلك ، ولكننى أذكر عندما قابلتـه قبل رحيلى بيوم أنه كان لا يزال يتكلم عن حلم السفـر إلى إنجلترا ، ويوصـينى بأن 'أسأل وأستفسر' ، وكنت أعـجـب لأنه لا يريد الرحيل إلى الاسكندرية مثـلاً أو القاهرة ، بل أن يترك مصر كلها وأهل مـصر ، كأنما ليهرب من تراث كامل يرميه فى ذلك العذاب .

وكنت كلما زرت رشـيد أو الاسكندرية وقابلت أحـد معارفنا سـألته عن 'على' ، ولكن أخباره انقطعت ، وإن كانت قصته الفريدة قد علمتنى دروسًا أفيد منها فى محاولة النفاذ إلى كهـوف أخرى ، ما أكثرها فـيما نشاهد وما شـاهدته بعد ذلك ، إذ تكررت بعض ملامح هذه القصة ، وشهدت بعض أطرافها من ناحية الرجل وناحية المرأة معًا .

٥

وأصل الآن إلى ذروة الحديث عن اللونين الأبيض والأسود ودرجاتـهما - موضوع هذا الفصل ، وأقـصد بالذروة المفاهيم التى تعـتبر مسـئولة إلى حد كبـير عن أحكامنا المطلقـة ، ونزوعنا إلى التـبسـيط المُخلّ بل والمضـلّل وعلى رأسهـا مفـهوم الحـرام والحلال، وهو المفهوم الذى نشأ فى غمار التيار الذى اجتاح العالم فى الربع الأخير من القرن العشرين ، والذى يشار إليه عادة باسم الأصولية الدينية ، على ما فى هذه التسمية من عدم الدقة ، وهو ما ناقَشَتْه كـارين آرمسترونج فى كتابهـا الذى ترجمناه - الدكتوره فاطمـة نصر وأنا - فى عـام ٢٠٠٠ ، بعنوان "**معـارك فى سبيل الإله : الأصـولية فى اليهودية والمسيحية والإسلام**" ، ولذلك فلن أعرض لما جـاء فى هذا الكتاب من نشأة التيـار وأسبابه وظواهره ، ولكننى سـأقف عند ما يخصنا نحن فى مـصر ، وما لمسـته بنفسى من آثاره على التفكير الفردى والجماهيرى .

فأمـا أول تأثير فـهو الخلط بين العـبادات والمعـاملات ، فـالعبادات التـى تسمى التكاليف فى الإسلام شعـائر محددة منصوص علـيها فى القرآن وموضـحة فى السُّنّة ، وهناك من الكتب ما يُفـيض فيها ويفـرّق بين الأصول - أى أصول العقـيدة والتكاليف المرتبطة بهـا - وبين الفروع أى أساليب الوفـاء بهذه التكاليف ، فالأصـول لا خلاف

عليهـا ، وأما الفروع فـهى تخضع للاجـتهاد، وقـد اتفق المسلمـون على أن المذاهب الأربعة (الشافـعى والحنفى والحنبلى والمالكى) قد أوفت هذه الفروع حقـها إلى جانب بعض ما يتصل بالفـروع من أساليب المعاملات ، والأخيرة مـحدودة إلى أقصى حد ، وأما المعامـلات فعلى رأسها 'الحدود' أى العقـوبات المنصوص عليهـا فى القرآن، أو المستوحاة من نصوص القرآن ، وهى العقوبات المفروضة على من ينتهك شرعة الله **فى المجتمع** ، وأنا أؤكد التعبير الأخير لأن المعـاملات - تعريفًا - تفترض علاقة ما بين الفرد والغـير ، سواء أكـان ذلك الغير فـردًا أو جماعـة ، وبعض هذه الحدود يرد فى القرآن مطلقًا وتفسره السُّنّة ، وبعضـها يخضع لتفسير أئمة المـسلمين الأوائل فهم قريبو العهد بالسُّنّة ومن ثم فـهم أقرب الناس إلى تفهم المقاصـد الحقيقيـة للتشريع وتطويع التطبيق بـما يلائم تطور المجـتمع وتغيـره ، مثل الخلفـاء الراشـديـن الأربعة (أبو بكر وعمـر وعثمان وعلىّ) ومثـل بعض المتأخرين نسبيًا مثل عمر بن عبد العزيز . ولا نكاد نرى خلافًا فى معانى هذه الحدود وتطبيقاتها فى تفسيرات علماء الإسلام المحدثين ، إذ تولوا وضع ما يمكن تسمـيته 'باللوائح التنفيذية' للشريعة ، فنشأت علوم قـائمة برأسها فى كل مجال ، ولم يعد الفـقهاء يختلفون حول المعانى والمقـاصد وإن اختلفوا بعض الشىء فى ظروف التطبيق وشرائطه وحدوده .

ولمـا كان تاريخ الناس على اخـتلافـهم ، تاريخ الأكـثرية التى لا تقـرأ ولا تعلم والأقلية التى تقـرأ وتعلم وتفكر ، فقـد احتاجـوا دائمًا إلى العلماء حـتى يصدروا لهم الأحكام أو الفتاوى فى كل مـا يختلفون عليه فى كل مكان فى العالم ، فـالفتوى حكم (ruling) يصدره العالم الذى يصبح فى هذه الحالة قاضيًا يقضى بما يطمئن إليه ضميره من أحكام تناسب الظـروف والملابسـات والشـرائط التى أشرت إليـهـا، وقد تُضـاف أحكامهم إلى ما أسـميته 'اللوائح التنفيذية' ، وقـد يصبح أحـد الأحكام أو الفتـاوى 'سابقة' يقاس عليها ، وهكذا أصـبحت قواعد المعاملات (وتطـبيق هذه القواعد) نظامًا قضائيًا يستند إلى أصول نظرية وتفسيرات عملية مـستمدة من الممارسة ، فنشأ فى مصر ما كان يسمى بالقـضاء الشرعى الذى ساد فى عصور طويلة حتـى إنشاء النظام القضائى الحديث فأصـبحت المحاكم الشـرعية مقصـورة على المسائل الشخـصية المحـضة مثل الزواج والطلاق والوصاية ، ثم ألغيت فى منتصف الخمسينيـات بعد قضية الشيخ الفيل والشيخ سيف اللذين اتهما بالفسق والفجور وأودعا السجن .

كل هذا معروف ، ولكم تـناوله كبار المفكرين المعـاصرين فى كتاباتهم فـأفاضوا فيه، سواء كانوا من المتخصصين فى الفقه الإسلامى أو من غيرهم ممن قرأوا واجتهدوا فأصبحوا أهلاً للتصدى للموضوع ، ولكننى أورده لتبيان الخلط فى تفكير الجيل الجديد بين العبادات والمعاملات وما أدى إليه ذلك من الإيمان بوجود لونين خالصين لا ثالث لهما ولا درجات ، هما الأبيض والأسود ، إذ سـاد الاعتقاد بأن من يؤدى الفرائض أو التكاليف الدينية يكتسى اللون الأبيض الناصع ، ومن لا يؤديهـا - على صعوبة التحقق من ذلك - يكتسى اللون الأسـود الفاحم ، وأن التميّز فى أداء الفرائـض والنوافل يسمو بالمسلم على أقرانه فيصبح قادرًا عـلى إصدار الأحكام فى المعاملات ، وأهلاً للإفتاء فى شئون المجتمع، حتى دون درس ، اسـتنادًا إلى ما قيل مـن أن الإنسان له أن يسأل قلبه إذا استشكل عليـه الأمـر ، فقلب المؤمن لا يخطئ ، وهكذا أصبـح الإيمان وحده منبع الأحكام ، بل وأصبـحت الألفاظ - حتى ألفـاظ النصوص المقـدسة - تعاويذ يُهـتدى بوقعهـا وترديدها لا بمعناها ، ووجدت من يسهـر الليل فى المسجد - كـما حدث فى ميت عقبة - حتى الصباح ليلة الجمعة أى مـساء الخميس حتى صباح الجمعة فى ترديد الأوراد والتسابيح تعميقًا للإيمان واستلهامًا للعلم اللَّدُنّى ، وفى ذلك يستخدمون مكبرات الصوت التـى تذهب النوم عن الجفـون ، فإذا اشتكى أحـد ، مثلمـا اشتكت الأسـتاذة 'علية' (وكانت تلميذة لزوجتى فى المعهد العالى للنقد الفنى) وزوجها الأستاذ 'ربيع' ، تسابق الخطباء فى الهجـوم عليهما بأشد الألفاظ قسوة ورمـوهما بالكفر بأعلى صوت فى الميكروفـونات ، حتى اضطرت الأسرة إلى الرحـيل من القرية ، فمن يعـارض المؤمن كافر والتضاد بين اللونين الأبيض والأسود أوضح من أن يحتاج إلى دليل .

والذى شهدته فى الثمانينيات هو أن يعين أحد الأتقياء الورعين الغيورين على الدين نفسه حكمًا يصدر الفتاوى ، ثم يـجتمع حوله نفر من المفتونين بمسعاه وقـوة شخصيته وجاذبيتها والمدفـوعين بغيرة مماثلة على الدين ، فينشأ ما درجنا على تسمـيته بالجماعة الدينية ، وهى تخـوّل لنفسهـا ، بقوة إيمان أعضـائها ، مهـمة إصدار الفتـاوى ، وقد تستقل برأيهـا حتى تناوئ الفقهاء الـمتخصصين وتـتهمهم بممـالأة السلطة المدنية (أى الزمنية) بل قـد تناوئ جماعات أخرى إذا اخـتلفت معها ، فـغير الأبيض **أسود** ، ولا توجد بينهما ظلال ، وقد تشتعل حدة المـزايدات وتتبارى الجماعات فى إصدار الفتاوى والأحكام ، فإذا وجـدت إحداها من أهل الخير ، فى أى مـكان كانوا ، من ينفق على أنشطتها طبعت الكتب والمنشورات ، وتصور زعـماؤها أنهم قادة مصلحون كُلِّفوا تكليفًا سماويًا بهداية الأكثرية الضالة ، وقد يتصور أحدهم أنه مبعوث العناية الإلهية ، فيرتدى

مسوح الرهبان ويتشبه بالأنبياء ، ويكفيه فى ذلك كله أن يظهر بمظهر التقىّ الورع ، وقد يكون فى الواقع تقيًا ورعًا حقًا، دون أن يكون مؤهلاً للحكم فيما حكم فيه الفقهاء القدماء ، فيصدر 'اللوائح التنفيذية' للأحكام الدينية العامة ، ويأخذ على كاهله مهمة تطبيق أحكامه الجديدة ، وهى أحكام قد تفتقر إلى الدقة أو إلى الصواب أحيانًا لأنه يستقيها كما قلت 'من قلبه' أى من 'وحى ضميره' أى من مصدر ذاتى ، فنجده يخطئ فى القياس ، ويجهل قواعد الاستدلال ، وقد يأخذ بالظن ، مستعينًا بالهاتف الداخلى الذى قد يكون صادرًا من أحد كهوف النفس التى تحدثت عنها فى القسم السابق ، ولا يكفى التقى والورع لتولى منصب القضاء - مدنيًا كان أم شرعيًا .

ولو كانت هذه الجماعات قد شغلت نفسها بمسائل الأصول (مثل العقيدة) لقلنا إنها فرق إسلامية جديدة تنسج على منوال الفرق التى تحدث عنها الشهرستانى والبغدادى وابن حزم ، وكلنا يعرف ما أدى إليه تناحرها من تفتت فى جسد الأمة الإسلامية وانهيار سلطانها الذى ساد يومًا ما ، ولكنها جماعات شغل أفرادها أنفسهم بإصدار الأحكام وتنفيذها دون أن يختلفوا مع الناس فى أصول العقيدة ، والعيب الأول فى هذه الأحكام هو اقتصارها - كما قلت - على اللونين الأسود الفاحم والأبيض الناصع ، فكل ما يخالف ما ذهبوا إليه من أحكام أسود فاحم السواد يُرمى صاحبه بالخروج عن الدين ومن ثَمّ بالكُفْر ، مهما يكن حجم الخلاف أو تكن طبيعة المختلف عليه ، وتسربت أحكام هؤلاء الأفراد ، بعد أن شتتت الدولة شمل الجماعات ، إلى المجتمع، فأصبح التفكير بمنطق الأبيض والأسود شائعًا ومقبولاً ، ولم يعد التفريق بين درجات اللونين واردًا فى فكر الناس ، ولو كان ذلك مقصورًا على الغالبية التى لا تقرأ ولا تكتب لهان الأمر ، ولكنه بدأ يؤثر فى فكر الحاصلين على الشهادات الجامعية سواء اعتبرناهم من المثقفين أم التكنوقراطيين أى 'أصحاب المهنة' الذين يتحكمون (أو يحكمون) فى المجتمع ، أى من بيدهم مصائر الأمور ، وكان منهم زعيم جماعة ميت عقبة الحاصل على بكالوريوس علوم ، وأما الشبان فقد شغلوا أنفسهم بالمرأة ، وجعلوا ذلك المجال الرئيسى لإصدار فتاواهم وأحكامهم ، وكثيرًا ما كنت أَرِقُّ لحالهم وهم ينظرون إلى النساء نظرة جوع وحسرة ، خصوصًا طلاب الجامعات الذين ينتمون إلى الطبقات الوسطى ، فهم يرون الفقراء قادرين على الزواج وإن ازدادوا به فقرًا ، والأغنياء وقد تزوجوا وسعدوا (فيما يبدو على الأقل) وهم لا يستطيعون تحقيق حلم الثورة المصرية القديم فى التخرج فى الجامعة والالتحاق بعمل يعود بدخل يكفى لبناء أسرة

جديدة ، فعيـونهم تتنازعها نوازع الرغبة والحرمـان ، فكأنما حُرّم الزواج عليهم ، وإذا كان قد أصبح محرمًا فعْليًا فلم لا يحرمون المرأة نفسها نظريًا ، مع إيمانهم بأن الله قد شرع الزواج بل وحضّ المؤمنين عليه؟

وتدريجيًا أصبحت المرأة المجـال الرئيسى لما يسمى بالفكر الإسلامى الذى يتولاه الرجال بطبيعـة الحال، ولما كانت المرأة قد خرجت إلى الحيـاة العامة رغم أنوفهم ، فقـد اضطروا إلى تعديل مـفهومـهم على ضوء الواقع للّونين الأبيض والأسـود والإقرار بوجود درجات لهما ، فأما اللون الأبيض الناصع فهو أن تحتجب المرأة عن العالم فهو عالم رجـال ، وحبذا لو لزمت بيـتها حـتى يأتى الفرج ، وكـان ذلك ولا يزال المثل الأعلى فى نظر من يريدون اللون الأبيض الكامل ، وكـان لديهم من النماذج فى بعض البلدان الشـقيقـة ما يدعم هذا المـثل ، وأما أولى درجـات اللون الأسود فـتتمـثل فى الاختلاط الذى هو منشأ البلاء فهو يسمح بزنا العين ويثير شهوات أعتى وأشد ضراوة ، وثانى الدرجات هو التخاطب بين الجنسين ، وثالثـها هو تعرية بعض أعضاء الجسم ، خصـوصًا شعر الرأس لأنه - مـهما يـكن حاله - مكمن الفتنـة ومصدرها المـؤكد فى نظرهم ، وكذلك الأطراف ، فهى تجعل الرجل على وعى بأنوثة المرأة بسبب اختلافها عن أطرافه ، كما قال لى الدكتور محمد (. . . . . .) ، وهو زميل قديم فى مدرسة رشيد الثانوية قـابلته ذات يوم فى مبنى المـجمع الحكومى بميـدان التحرير أثناء تجـديد جواز سفرى عـشية إعارتى إلـى المملكة العربية السـعودية فى أكتوبر ١٩٨٢ ، فـخرجنا إلى الشـرفة وجـعل يحكى لى عن 'المهازل' التى صـادفهـا فى كليـة طب الاسكندرية من مـحادثات بين الطلاب والطـالبات بل وصـداقات قـد تنتـهى بالحب والزواج ، وينعى الحشمة الضائعة ، ويبكـى اليوم الذى كانت المرأة فيه 'بيضة خدر لا يرام خباؤها' ، وإن لم يكمل بيت الشعر المشـهور ، وقال لى إنه سمع فتوى صادقـة مفادها أن وجود المرأة مع الرجل باعث لأفـكار الشر (فى نفس الرجل طبعًا) فـما بالك وهى تجاورك وتجالسك وتحادثك ؟ وكـان الدكتور محمد على يقين من أنه يـحادث ابن رشيد الوفى وابن الكُتّاب الذى قضى سنوات يحفظ القرآن وأنه سوف يتـعاطف معه التعاطف كله ، ولذلك أمسكت لسـانى وكنت أوشك أن أقول له إن النسـاء من الفلاحات والعـاملات والتـاجرات يخـتلطن بالرجال فى رشـيد وفى إدكـو (بلده) وأن المرأة المـسلمة طالـما

شاركت المسلم حياته فى الزمن الغابر ، دون مساس بحيائهن ، وأيقنت آنذاك أن حديثنا لابد أن يتوقف.

وما لبث اهتمام الشبان بقضية ستر المرأة أن ولّد اهتمامًا موازيًا لدى الشابات ، فاهتمت الأسرة المصرية بالموضوع ، ورأت أجهزة الإعلام أن قضية ستر المرأة أى حجبها عن العيون قد أصبحت قضية قومية ، وخافت أن تؤدى إلى قلق واضطراب فى المجتمع ، فأقامت مناقشة بين مذهبين الأول يقضى بستر المرأة كلها ، فكلها عورة، وكلها محرم ، والثانى يقضى بالسماح لها بالكشف عن الوجه واليدين والقدمين ، وتبارى الكتاب فى الدفاع عن وجهتى النظر ، ثم حُسمت النتيجة لصالح الحل الأخير ، وأصبح الحلُّ الأول يسمى النقاب أو الخمار (وصاحبته منقبة أو مخمرة) والثانى يسمى الحجاب (وصاحبته محجبة) وقد رضى الشبان ورضيت الشابات بالحل الأخير فهو مريح من جميع الزوايا ، بل هو عبقرى فى نظرى بمعنى أنه لا يتفتق عنه إلا ذهنٌ مصرى قادر على التلاعب بالألفاظ والمعانى ، إذ عمد ببراعة مصرية إلى تعديل مفهوم الاحتجاب أى الاختفاء والاستتار عن العيون بحيث أصبح يعنى تغطية الشعر فحسب ، وهو يسمح للمرأة بجميع الحريات التى يتمتع بها الرجل بشرط ارتداء الطرحة أى غطاء الرأس ، وهو ما يرتديه الرجال أيضًا فى بلدان شقيقة ، بعد أن أُطلق عليه اسم الحجاب ! وبدا أن الأزمة انفرجت ، وسرعان ما رأينا محلات أزياء حديثة تبيع ما يصلح لتغطية الشعر من أغطية منوعة، وتبيع الفساتين الطويلة الجذابة للقادرات ، والطرحة 'السادة' (وهى كلمة فارسية تحولت إلى ساذج العربية) أى العاطلة من 'الزركشة' ، للفقيرات (والزركشة فارسية أيضًا تعنى الموشى بالذهب) ، وكان من روافد تيار الحرام والحلال الجديد أن ظهر نوع من الكتابة أستطيع مطمئنًا أن أطلق عليه صفة البورنوغرافيا (أى الأدب المكشوف أو الفن المكشوف) المتستر بالدين ، وهو ما سأخصص له السطور التالية .

كانت البداية فى أواخر السبعينيات حين أصدر أحد المحامين ، واسمه 'عبد اللطيف' كتابًا عن أحكام الزواج فى الإسلام ، وكان يعلن عنه على الجدران بحروف كبيرة، الأمر الذى أثارنى فحاولت شراءه لكنه كان قد نفد ، فاستعرت نسخة من أحد أصدقائى بعد أن شاهدتها معه مصادفة أثناء زيارته لى فى الجامعة للتوصية على ابنته التى التحقت بقسم اللغة الانجليزية ، وقرأت الكتاب فى جلسة واحدة ، وأعدته له بعد

أن شعرت بتقديره البالغ له، لكننى استوعبته ، إذ وجدته يفوق فى 'صراحته' ما عرفناه فى فتـرة المراهقة من كتب مكشـوفة، فهـو فى الظاهر يفسر آية كريمـة مثل ﴿ **نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ** ﴾ (البقرة ٢٢٣) ويفيض فى تفسير 'أنّى' ، معارضًا من أباح التوسع فى التفسير استنادًا إلى الآية السابقة عليها ﴿ **فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ** ﴾ (٢٢٢) ثم ينتقل إلى بقية الآية وهى ﴿ **وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ** ﴾ (٢٢٣) فيخصص فصلاً كاملاً للحديث عن مـاهية 'التقديم' المقـصود ، فـالجمـهور على أن ذلك بالقُبلـة أو ما فى حكمها ، وبعض 'العلماء' يذهبون مذاهب أخرى توسع المؤلف فى شرحها وتبيانها ، وهكذا وجـدت أن الكتـاب الذى يحـمل عنوانه لفظ 'الأحكام' قد انصب على الحـياة الجنسيـة بين الزوجين ، وكانت طبعـاته التالية والمتـوالية تنفد فور صـدورها ، وكان المؤلف يبرر صراحته بأن ذلك كتـاب فى الدين ، ولا حياء فى الدين ، كما أنه كتاب فى العلم ، ولا حياء فى العلم أيضًا .

وتنبـهت السلطات (فى وقت مـتأخـر) للغاية من الـكتاب، وهو الكسب المـادى لصاحبه، ولتـأثيره غير المباشر فى نفـوس الشباب فصادرته ، فأصـبح سلعة سرية تباع بثمن باهظ ، وكانت حجة المنع أو الحظر هى عـدم موافقة الأزهر عليه، ولذلك حصل محمـد جلال كشك على تصريح من الأزهر قبل نشـر كتابه **تأملات مسلم فـى المسألة الجنسية** وهو الذى أعاره لى صديقى (وتلميذى السابق) الدكتور محمد عبد العاطى، كما سلك الآخرون مسالك مشابهة، ولم يتوقف تيار الكتب التى تفصح عن تحول الانشغال بالدين إلى المرأة ، مـهما يكن من مواقف مـؤلفيها على اخـتلافها، مـثل كتاب **زواج المتعة** لمؤلفه الدكتور فرج فوده ، الذى اغتاله المتطرفون، ومثل كتاب **هداية المريد فى شراء الجوارى وتقليب العبيد** لمؤلفه محمد مختار الذى يقول فى التصدير إنه يريد وجه الله فيـما يكتب، ويضع عنوانًا آخـر لكتابه هو الأوضاع الاجـتماعـية للرقيق فى مـصر ٦٤٢-١٩٢٤م، ويطول بى الحديث إن أنا عـددت ما اطلعت عليه من كتب عـلى امتداد ربع القرن الأخير ، ولكننى أورد هذه الكتب التى صدرت من نحو عام ١٩٧٧ حتى عام ١٩٩٧ فقط للتدليل على الوجهة المحددة التى جنح إليـها ما يسمى بالتيار الدينى ، وما رسّخه هذا التـيار من منطق الأبيض والأسود فى الأذهان ، حـتى أصبحت تغطية شـعر الرأس للفتـاة تمثل نصف الإيمان أو الإسلام ، وكـانت إحدى تلميذاتى السـابقات من أوائل من ارتدين الطرحة فى قسـمنا ، ثم تخلّت عنها ثم عادت ترتديها وعندما سـألتها

عن ذلك قالت: "نصف العمى ولا العمى كله" ، أى إن الطرحة توفر لها ٥٠ ٪ من أركان الإسلام (ولا بأس لو نجحت هنا بتقدير مقبول) .

ولما كان العيب فى المنطق المذكور (الذى شغلنى ويشغلنى) قد امتد إلى منهج تفكير الشباب من الجنسين فى سائر مناحى الحياة فلقد دأبت على مناقشة من يستطيعون النقاش منهم فى ذلك المنطق ، على ندرتهم ، فالغالبية يتكلمون ولا يستمعون ، وإذا استمعوا فهم لا ينصتون ، وإذا أنصتوا فهم لا يستوعبون ، وأما من يفعلون فهم يفصحون عن حيرة وتخبط، فكثرة الدلالات التى تتزاحم فى عالم 'ما بعد الحداثة' قد أحدثت من الخلط والبلبلة ما يستعصى على التصنيف باللونين الأبيض والأسود ، بل وعلى درجات كثيرة من درجاتهما، الأمر الذى دفع الغالبية إلى نشدان الاطمئنان فيما يقوله أصحاب 'الإفتاء' ، والارتكان إلى ما يبعث على الراحة فيه من يقين ، ومن العبث طرح الأسئلة أو التفكير المستقل فيما يسمعه المرء ، فذلك يقتضى القراءة والبحث ، وليس من تقاليد المجتمع الجديد تشجيع أيهما .

وأختتم هذا الفصل بالإشارة إلى ظاهرة تفشت أو هى تتفشى كل يوم ، حتى جعلت أبناء الجيل الذى أنتمى إليه يشكّون فيما أسماه طه حسين مستقبل الثقافة فى مصر ، ألا وهى ترديد ما يقال ، إذا صادف هوى فى نفس السامع، مسبوقًا بكلمة 'سمعت'، أو 'يقال' ، وعلاقة ذلك بموضوع هذا الفصل فى حاجة إلى إيضاح ، فالباحث عن اليقين يرسم فى خياله صورة مثالية لحياته ، تغيب منها جميع ظلال اللون الأسود وتنطق بالبياض الناصع ، ولذلك فهو يفتح أذنيه لكل ما يقال وينتقى ما يبدو أنه يؤكد له تلك الصورة ، وأقول 'ما يبدو له' عامدًا ، فكهوف نفسه عامرة بالأشباح المتصارعة ، وهو يبغى إشاعة السلم بينها فيستعين بما تُصوّره ذاته فى صورة الركن الركين والسند المتين ، أى إنه يرجع فى تحديد اللونين الأبيض والأسود إلى معايير ذاتية ، وقد تتغير هذه المعايير بتغير ظروفه وأحواله ، فتتغير ظلال اللونين ودرجاتهما، وقد يعى ذلك أو لا يعيه ، ولكنه دائمًا ما يبحث عمّا يؤكد له صحة موقفه ، ولذلك كان أنجح المتحدثين فى أجهزة الإعلام من المؤمنين باليقين ، الذين يؤكدون الانفصال التام بين اللونين الأبيض والأسود ، والذين يتحاشون التفاصيل التى قد تثير الشك فى 'القضية' موضوع الحكم ، أو تدعو إلى إعادة النظر فى المعايير الذاتية التى يستند إليها المستمع ، وهل هناك يقين أعمق من يقين الإيمان الدينى ؟ ولذلك كان أنجح

المتحدثين فى كل موقع من مواقع الحياة العامة من الذين يستندون إلى هذا الإيمان **لدى المستمع** ، خصوصًا إذا كـان هذا المستمع ينشـد ذلك ويسعى إليه ، فالذيـن يعمرون مسـاجد الله مؤمنون بالغـيب ، وهم لا يتوقعـون من خطيب المسجـد أن يهديهم إلى الإيمان بالله ، لكنهم يتوقعون أن يحكى لهم ما يؤكد صدق إيمانهم ، فإذا خرجوا من المسجد وانتشروا فى الأرض ظنوا أن إيمانهم بالله يكفى دون غيره ، أو يؤهلهم للحكم بالأبيض والأسود على ما يعرض لهم من شئون الحياة ، وهم يـستمدون مما سمعوه فى المسجد قوة على ذلك ، بل ومما قد يسمـعونه خارج المسجد مما يتفق مع نظراتهم فى أحوال الدنيـا وشئـون العيش ، فيـزيدون فى خيـالهم من بياض الأبيض حـتى يصبح ملائكيًا ، ومن سـواد الأسود حتى يصبح كـالحًا (حالكًا) كالليل البهـيم ، ثم يؤكدون لأنفســهم عناصر الصورة المثـالية التى يرسمهـا خيالهم لأنفسـهم ، دون وعى بكهوف النفس وما فيها ، وفى ذلك مكمن الخطر .

الفصل الثالث



قلت فى التمهيد إن الدائرة صورة الخلود ، فالعلماء يصفونها بأنها الشكل الكامل، إذ لا بداية لهـا ولا نهـاية ، وهى من الأنمـاط الفطرية (archetypes) وهو المصطلح الذى أتى به يونج (Jung) ويعنى - كما يقول المعجم المتخصص :

> any of several **innate** ideas or patterns in the psyche expressed in dreams, art etc. as certain basic symbols or images (my emphasis)

أى :

> إحدى الأفكـار أو الأنساق **الفطرية** المتعددة فى نفـس الإنسان ، والتى يُعبر عنها فى الأحلام أو فى الفن ومـا إلى هذا بسبيل، باعتبـارها رموزًا أو صورًا أساسية .

والواضح أننى ترجمت المعـنى الأساسى للمصطلح وضحيت بمـعانٍ أخرى ثانوية أهمها صـفة القدم، واحتلال هذه الأنماط مـركزًا رئيسيًا بين شـتى الرموز والصور التى تزخر بها نفس الإنسـان، فأما صفة القدم فيـوحى بها المقطع الأول (arche) الذى قد يكون مشـتقًا من الصفة اليـونانية archaios ومـعناه قديم والاسم منهـا arche ويعنى البداية، والاسم archos ويعنى الأول أو الحـاكم، والفـعل archein بمعنـى يبدأ أو يحكم، وأشـهر نمـاذج الكلمات الـتى تدخل عليهـا هذه البـادئة فى الإنجليزية كلمـة

(archaeology) أى علم الآثار القديمة وكلمة archaic بمعنى قديم (أو مهجور - فى اللغة مثلاً) ، وتتصل بهذا المعنى دلالة الرئاسة ، فالحاكم رئيس ، وهو الأول فى المرتبة بين الناس ، ولهذا دخلت اللغة الانجليزية كلمات مثل الملاك الأكبر archangel ورئيس الأساقفة (archbishop) وغيرها ، كما استخدم أهل الانجليزية البادئة المذكورة فى تكوين كلمات أخرى على غرارها للإشارة إلى معنى الرئاسة ، وربما كان هذا هو السبب الذى جعل آخرين يترجمون المصطلح بتعبير النماذج العليا أو النماذج القديمة ، ولكن الواضح أن هذين الخيارين قد ينطبقان على ما ليس بفطرى ، وقد يكون النموذج القديم للطائرة مثلاً ، مجرد نموذج مبدئى أو بدائى (prototype or primitive model) وأنا أفضل ترجمة المعنى على أى حال ، وألتزم هنا بالتفريق بين النمط (type) والنسق (pattern) والنموذج (model) ومن ثم أَشْعَتُ فى الستينيات مصطلح 'الأنماط الفطرية' ، وإن لم يثبت المصطلح حتى الآن ، وأرجو أن تتضح فى غضون مناقشتى للدائرة أسباب استمساكى به فيما قرأته ، وفيما خبرته من الأحداث .

يقول علماء النفس إن الإنسان يولد ولديه إدراك فطرى لصورة الدائرة ، أى إنه ليس فى حاجة إلى أن يتعلم إدراك هذا الشكل ، وقد ذهب الفلاسفة فى تفسير ذلك مذاهب كثيرة ، بل إن علماء الفيزياء أدلوا بدلوهم فى هذا الدّلاء ، فنسبوا الإدراك الفطرى (أى غير المكتسب) للشكل إلى خصائص مغناطيسية أو قل إنها كهرومغناطيسية ما دمنا نترجم (أو ما دام بعضنا قد ترجم) الإلكترون بالكهرب فى كيان الإنسان بحيث تربطه بصور الحركة الدائرية للأجرام السماوية ، وأهمها حركة الأرض الكروية حيث يتحكم دورانها وجاذبيتها فى أشكال الحياة على سطحها ، وانتهى الباحثون فى القرن العشرين إلى أن نظرية 'الطاقة الكروية' أو الدائرية قادرة على تفسير كل شىء بمعنى أن أصل كل شكل من أشكال الوجود هو الشكل الدائرى ، سواء كانت دائرة كاملة أم ناقصة ، وجميع أنواع الحركة مساراتها مقوسة ولو بدت للعين مستقيمة، لأن الأرض فى حركة دائمة وما تراه يسير مستقيمًا عليها أو يسقط مستقيمًا فوقها يسير فى الواقع معها فى سيرها أى فى مسارمقوس ، كما أنه إذا سار شىء فى الفضاء فى خط ظاهر الاستقامة حول الأرض ، أو سقط شىء من السماء وبدا أنه يهبط فى خط مستقيم مارًا بطبقة شبه الفراغ وطبقات الهواء المخلخل ثم الغلاف الجوى الذى يتحرك مع الأرض ، فإنه يتحرك فى الحالين إزاء شىء دائرى يدور دائمًا، مما يغير من مسار حركته وسكونه بالنسبة إليه، فيحوّل الخط المستقيم إلى قوس ، وإذا كان الأمر

كذلك بالنسبة للأرض فهو يصدق بدرجة أكبر إذا رأيناه بالنسبة لسائر كواكب المجموعة الشمسية، وهى جميعًا تتحرك، بل إن المجموعة الشمسية نفسها تتحرك داخل المجرة الخاصة بنا (galaxy) والمجرة نفسها تتحرك، وقد طبق ألبرت أينشتاين ذلك على كل شيء (فكل شيء وفق نظريته طاقةٌ، وإن اختلفت صورها وتفاوتت فى عيون البشر) حتى الضوء نفسه، وانتهى من نظريته النسبية العامة ، القائمة على أخذ قوانين الحركة فى الحسبان، إلى إدراج بُعْدٍ رابع هو الزمن إلى الأبعاد الثلاثة المعروفة وهى الطول والعرض والارتفاع فى حساباته للكون وحالات الوجود الكبير من حولنا ، ولم يكتشف العلماء صدق ما ذهب إليه أينشتاين إلا فى السنوات الأخيرة من القرن العشرين بفضل التطور المذهل فى الكمبيوتر أو الحاسوب، وهو الذى مكّن ستيفن هوكنجز (Hawkings) من إعداد حسابات لم يكن فى مقدور أبناء جيل أينشتاين أن ينجزوها. ويطبق العلماء نظرية الدائرة على الذَّرّة التى تعتبر فى معظمها فراغًا كرويًا، ولا تشغل فيه الشحنات الكهربية (أى الطاقة ونسميها النواة والإلكترونات) التى تمثل الوجود أو الكيان الذى يمكن للإنسان أن يدركه أى أن يستدل ذهنيًا على وجوده (وإن لم يشاهده أو يسمعه) إلا حيزًا بالغ الضآلة إلى الحد الذى يسمح بتجاهله فى حساباته الأخرى للوجود والعدم القائمة على المعايير المادية . وهذه الشحنات تدور فى دوائر دائمة دائبة، ولو لم تكن هذه الحركة لما أمكن للعلماء إدراك وجودها أصلاً، وهكذا أقر العلماء أخيرًا فكرة الدوران أو الدائرة فى تفسيرهم أو محاولة تفسيرهم للظواهر التى أعيت الأسلاف فى الطبيعة والكون .

وأما الشعراء وأصحاب البصائر النافذة فقد سبقوا العلماء (الطبيعيين) فى التوصل عن طريق الحدس والشفافية إلى فكرة الدائرة أو صورة الدورة الدائمة ، وأشد ما اجتذبنى فى هذه النظرة التى تصدق مهما تكن الزاوية التى تنظر إليها منها هو الدوام فالدوام معناه الخلود ، وهذا ما وَضَعْتُه نُصْبَ عينى وأنا أتابع حلقات البرنامج العلمى الذى قدمته محطة بى بى سى بعنوان عالم ستيفن هوكنجز (عام ٢٠٠١) ، وعجبت من تفكير كاتب البرنامج الذى يحاول اجتذاب المشاهد بأن يسأل فى كل لحظة عن نظرية البداية - كيف بدأ الكون ؟ - ونظرية النهاية - كيف سينتهى ؟

وعندما شاهدت الحلقات مرة ثانية ، وكنت قد حرصت على تسجيلها جميعًا ، بدا لى أنه - أى الكاتب - يخطئ الخطأ الذى حذر منه تجنشتاين (Wittgenstein) وغيره ألا وهو تطبيق قانون مستقى من حياة الإنسان (المحدود الفانى) ، ومن حواسه الضئيلة

المقيـدة ، على كون يختلف اختلافًا شـاسعًا عن الإنسان وعن دنياه ! فافـتراض البداية وافتراض النهاية افـتراضان مستقان من مولد الإنســان وموته، ومن نشوء النبات وذبوله! وإذا سمحنا لهـذين الافتراضين أن يسودا تفكيرنا أو أن يجـعلانا نتوقع لكل شيء بداية ونهاية فسوف نكون قد نقضنا حـقيقة الدائرة وحقيقة الديمومة وهما حقـيقتان متداخلتان اهتدى إليهما الإنسان ببصيرته قبل أن يؤكدهما العلم الطبيعى وما اكتشفه فى ختام القرن العـشرين! صـحيح أن فكرة الأزل (اللابداية) عـسيـرة مثل فكرة الأبد (اللانهـاية) وأن الإنسان ينفر من العسير ويهوى اليسيـر، ولكن الدائرة ترغمنا إرغامًا على قبول العسير، ولعلنا واجدون فيما اهتدى إليه علماء النفس من نظريات الأنماط الفطرية عونًا على تقبل ذلك العسير !

وإذا كان ڤـجنشتاين وغيـره قد اعتمـدوا على ما أشرت إليه من قـبل باسم العقل الخالص ، دون أن أشيـر إلى أن هذا المصطلح من وضع الفيلسوف الألـمانى إيمانويل كانْط (Kant) ، فإن غـيره من علماء فلسفـة اللغة (linguistic philosophy) أو ما اصطلح على تسميته بفلسفة التحليل اللغوى بالعـربية ، قد اكتشفوا مثالب أعمق فى هذا القياس الخاطئ (false analogy) لأن الاستـدلال (deduction) هنا يتجاهل طبـيعة العدد ، وهى طبيعة لا نهائية ، ولكن هؤلاء لا يقولون بما قاله فيثاغورس من أن العدد هو أصل الأشيـاء جمـيعًا ، بل يقولون - ابتـداء من برتراند راسل (Russell) - إن النظام العددى هو النـظام التجريدى الوحـيد القادر على ربط العـدم بالوجود عن طريق الإحالة دائمًا إلى مـوجود ، فأنت حـين تقول 'ناقص واحد' أى حين تعبـر عن قيمة سلبية ، فإنك تفـترض وجود زائد واحد أى وجود قيمـة إيجابية ، فكلامُك عن 'غياب الواحد' يفتـرض وجوده ، سواء كان وجـوده حقيقـة ذهنية خالصـة أو حقيقـة مادية ، وكذلك حين تقول 'صفر' ، وهو التعبير الذى نعـبر به عن نقيض الوجود أى العدم ، فإنك بذلك تعبر عن افتـراض وجود شيء ما ، وهكذا فإن جلبرت رايل (Ryle) يُرجع أخطاء التفكير فى هذا البـاب إلى عدم دقة التعريفات التى درجنا عليهـا ، ويقيم الحجة فى كتابه **مفهوم العقل The Concept of Mind** (وهو كـتـاب لم يلق حظه من الاهتمام فى الوطن العـربى ، ولا أعرف إذا كان قد ترجم إلى العـربية أم لا) أقول إنه يقيم الحـجة على أن عـدم دقة المفـاهيم واختلاطهـا هما السبب فى أخطـاء تفكيرنا ، ويضرب عشرات الأمـثلة بأسلوب متئد ومنطق متمهل لا يلـبث أن يقنعك بدعواه ، فما

نسميه البداية لا يعدو أن يكون نقطة مفترضة أو مصطلحًا عليها على محور الدوام (continuum) وهو خط دائرى مستمر لا يمكن تحديد بداية مطلقة له ، وكذلك ما نسميه نهاية ، ولكننا نغير على الدوام من تعريفاتنا ومن أوصافنا المضمرة (implicit definitions and qualifications) لهذه النقاط التى لابد أن تنسب إلى غيرها أى أن تُرى فى علاقتها بغيرها ، وإلا ما عادت بداية ولا نهاية ، فبداية السباق فى حلبة ما تتضمن إضمار مفهوم للمضمار ، مفترض أو متفق عليه ، وكذا نهايته ، وفى ظنى أن الكتاب المذكور قد أثر تأثيرًا كبيرًا فى تفكير أصحاب الذين يدرسون علم الدلالة ، وهما فئتان فالفئة الأولى تختص بعلم الدلالة الصورى (Formal semantics) القريب من علم المنطق الصورى (formal logic) والفئة الثانية تختص بعلم الدلالة اللغوى ويشار إليها أحيانًا باسم (informal semantics) أو باسم قريب المأخذ هو (linguistic semantics) وقد برع من الفئة الأولى جاكندوف (Jackendoff) الذى كتب كتابًا بعنوان علم الدلالة والمعرفة (Semantics and Cognition) عام ١٩٨٣ ومن الثانية جون ليونز (Lyons) الذى كتب كتابًا بعنوان (Linguistic Semantics) عام ١٩٩٥ يطور فيه آراءه القديمة وقد تأثرت أنا كثيرًا بكتاب أصدره إيمون باك Emmon Bach عام ١٩٨٩ بعنوان :

Informal Lectures on Formal Semantics

قبل أن انتقل إلى كتابات جاكندو وغيره من الفئة الأولى ثم إلى ليونز (١٩٩٥) وغيره من الفئة الثانية ، فى غضون انشغالى بعلم الدلالة بفرعيه ، وبأهميته لدارس اللغة وللمترجم ، وهو ما أفادنى كثيرًا فى تناول ما أعدت قراءته من كتب فلاسفة التحليل اللغوى ، فوجدتنى أزداد قدرة على تفهمها واقترابًا من إدراك مراميها ، ووجدت إجلالى يزداد للمعلم العظيم زكى نجيب محمود ، الذى اعتمد تلك الفلسفة منهجًا نجح فى تطبيقه فى دراسته للثقافة العربية .

أقول إننى دُهشت لوقوع كاتب البرنامج المذكور فى خطأ تصور بداية ونهاية ، لكننى عندما أنعمت النظر فيما قيل وجدت أن الخطأ يرجع إلى أننى لم أفرق بين الكون والوجود (أى The Universe and Existence) إذ وازيت بينهما بالعربية فكل منهما مصدر لفعل يفيد الكينونة أى الوجود ، فالفعل كان من الأفعال الناقصة بالعربية (أى an auxiliary) لكنه قد يأتى كاملاً إذا كان يعنى الوجود ، كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس - ٨٢) و ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا

﴿يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (غافر - ٦٨) وأمثـال هاتين الآيتـين فى سورة البـقرة (١١٧) وآل عمـران (٤٧) و (٥٩) والأنعام (٧٣) والـنحل (٤٠) ومريم (٣٥) وفى كل منهـا يعنى الفعل الأمر بالوجـود فـالوجـود ويماثله فعل الكينونة فى اللغـات الأوروبية وفى الكتاب المقدس بطبيعة الحال ، وإن كان فعل الكينونة لا يستعمل فعلاً للدلالة على الوجود إلا فى سياقـات محدودة ، ولذلك فإن اللغويين المـحدثين يسمونه فـعل الوجود أو الفعل الوجودى (existential verb) ونقرأ فى سـفر التكوين (١/ ٤) : God said, "Let there *be* light', and there *was* light) وهكذا وجدت أننى أخطأت لأن المـقصود بكلمة الكـون الانجليزية (universe) يختلف عن الـمقصـود بالوجود (existence) ، فكلمة الكون هنا تعنى النجوم والكـواكب وما عليها وما بينها ، والمقـصود بالبداية هو تشكّل هذه الأجرام السماوية فى الصورة التى نعـرفها اليوم ، لا الوجود (Being) الذى هو نقيض العدم (nothingness) ومن ثم فلنا أن نعتـبر تلك البداية نقطة على مـسار دائرة الوجود ، الذى قد لا تكون له بداية ، فقـد يكون أزليًا ، وقد لا تكون له نهاية ، فقد يكون أبديًا ومن ثم لا يكون كاتب البرنامج قد أخطأ !

ولا شك أن تجربة المرض الذى كدت أرى الهـلاك فيه رأى العين كانت من وراء انشغـالى بصورة الدائرة وتجليـاتها فى الفكر والأدب ، فـالصورة عـسيرة لأنـها توحى للأذهان التى لم تعـتد التفكيـر النظرى بالعودة إلى نقطة البـداية أو إلى نقطة من نقط البداية ، وذلك - كما هو واضح - محال ، فالدائرة تعنى الحـركة مثلما تعنى التغير ، والحركة والتغير هما أساس الدوام الذى أشـرت إليه فى البداية ، وتفكيرنا المستمد من الفطرة السليمـة يقبل الحركة والتـغير والدوام ، لكن منطق الحـياة الواقعية قـد لا يقبل ذلك، فكما ذكرت فى التمهيد كثـيرًا ما يقلق الإنسان من التغيير لظنه أنه يناقض الدوام أو ينفيه ، فهو يحس فطريًا بمعنى الديمومة ويخشى أن يـقبل التغيّر (الصيرورة) فيفسد هذا المعنى أو ينقضه ، والإنسـان يحس فطريًا بالحركة ، فجيشان الدم فى جـسده أكبر دليل عليه ، ونشاط ذهنه ، مهما يكن من خمول بدنه ، دليل عليه ، وحركة الكون من حوله فى الأرض وفى السماء تشهـد به ، ولكنه يخشى أن تؤدى الحركة إلى سكون أو خمود وهمود فيفزع ، فهو دون أن يشعر يطبق فكرة البداية والنهاية ، أما إذا تأمل معنى الدائرة الحقيقى فسوف يـجد أن الدوران يعنى أن الدائرة تفضى إلى دائرة أخرى تختلف معانيهـا ومبادئ صيرورتها عن الدائرة الأولى ، لـكنها تشترك معها فـى جوهر الحركة الدائرية الدائمة، أى إنه يخشى الدائرة لأنها قد تعنى له العودة إلى ما كان عليه أو انتهاء

ما هو فيه ، ولذلك فـهو يُقصى التفكير فى موضوع الحـركة الذى يوحى له بالنهاية ، ولكن الدائرة قد تتغير فى حركتها وقد تفضى إلى دوائر أخرى دون أن تتوقف أبدًا .

أقول إن تجربة المرض أفادتنى فى هذا البـاب ، لأن العزلة التى فرضها القدر علىّ فى المستشـفى خمسة أشهر كاملة أتاحت لى أن أقـرأ على مهل وأن أتأمل ما أقرأ ليلة بعد ليلة ، كـما أن ظلال المـجهول كـانت تواجهنى فى ظلام ليل الشـتاء الطويل فى باريس فتشحذ فى نفسى القدرة على نوع جديد من الحدس ، وأنا أصفه بالجدّة لأننى لم أكن خبرته من قبل ، وإن كنت عرفت فيما بعد أنه مألوف لكل من استغرق فى التأمل حتى غـاب عنه 'وعى اليقظة' بمـا حوله ، ومـا أكـثر هؤلاء بين الشـعـراء والفنانين والمتصوفة ، وبين الكثيرين ممن يخلصون فى عبادتهم لله حتى تشف أرواحهم وتصفو نفوسهم فيـعرفوا معنى السكينة الحقة ، ولو كان مـظهرهم لا يدل على وجود مثل هذه القدرة على الحدس ، ووجدتـنى أستعيد لحظات بعد بها الزمن حـتى كاد العقل الواعى أن يلفظها أو ينكرها ، ولكنها كانت لحظات صفـاء مؤكد أتاحت لى هذا الحدس نفسه على امتـداد حياتـى كلها ، ووجدتنى - مـثل الشاعـر وردزورث - أرجع إلى الماضى لأشهد من جديد هذه اللحظات ، وهى التى يسميها (spots of time) أى بقاع زمنية ، ويقول إن ارتيادها يهبـه طاقة نفسية ترسخ إيمانه وتتيح له رؤى قشـيبة ، وكان ارتيادى هذه اللحظات أول الأمر فـى الأحلام أو - إن شئت الدقـة - فيما بيـن النوم واليقظة ، خصوصًا قبيل الصحو حين تدب الحركة فى أطراف المستشفى ، أو تعصف ريح الشتاء الباردة بذوائب الشـجر العارى خـارج النافذة فى المساء ، أو تهـطل شآبيب الربيع فى غسق الصبح فتحدث هديرًا خافتًا يتردد صداه فى أذنى فأسمع ما يشبه صوت والدى وهو يلقى الشعر العربى (وكان جميل الإلقاء) وأرى كأنما يسير معى فى حديقتنا فى رشيد ، وكأنما نـسمع أصوات طيور الشـمال المهاجرة ، وكـأنما أرى ضوءًا خافـتًا ينبعث من مسكن الحاج غضبـان شعير حارس الحديقة المقيم فيهـا ، فأتصور أن الوقت مساءً وأنه أوقد الكانون لزوجته 'أم سميح' لإعداد العشاء ، بل وأكاد أشم رائحـة اشتعال الوقود الريفى ، وكانت تلك الرؤيا تتكرر فأجد أن بعض عناصرها قد اختلط بعناصر معاصرة فلا أعجب أو أدهش ، كأن أرى أحد أصدقاء القـاهرة معى فى رشيد ، أو أرى المشهد وقد أصبح يضم غرفة مكتبى فى منزلنا فى 'داربى رود' فى انجلترا ، فأكاد أفرح لوجود كتبى معى ، وكنت حين أصحو على ضـجيج الممرضات أو زيارة الطبيب أحس بنشوة عميقة تحيل مشهد الصحو حلمًا والحلم حقيقة لا تقبل النقض !

ودائمًا ما كنت أعود إلى تلك 'البقاع الزمنية' (وهى التى أسميها 'الواحات' الآن) فى كل عزلة ، وكنت أسعد فيها بالإحساس بالزمن ، ففيها وُلِدَتْ صورة الدائرة بل الدوائر ، فكنت إذا أحسست بالعزلة فى أى مكان ، فى مصر أو خارجها ، أشعر بتداخل لحظات الزمن، ويعتادنى الحدس الذى تولّد أولاً فى باريس ، فأرى الشارع الغريب وقد أصبح مألوفًا كأنما توجد صورته فى أعماق النفس ، أو أرى الشارع المألوف وقد اكتسى شكل شارع آخر رأيته فيما يرى النائم ، فأدرك دورات الزمن ، وأذكر أننى كنت فى زامبيا ذات يوم للعمل فى مؤتمر تابع لمنظمة الوحدة الإفريقية ، وخرجت ذات يوم لشراء بعض الهدايا للأصدقاء من دكان تديره أسرة إنجليزية ، وعندما طال بنا الوقوف أدرت رأسى لأنظر مصدر صوت سمعته فشاهدت ما بدا كأنه حديقة مدرسة سعيد الأول فى حى محرم بك بالاسكندرية ، واستغرقتنى الرؤيا حتى غفلت عن البائعة ، ولم أتبين أن دورى قد جاء إلا حينما كررت نداءها لى عدة مرات.

أعرف ما يقوله العلماء عن هذه اللحظات، ولكنّ ما مررتبه لم يكن 'ذكريات' أو ما يمكن إدراجه فى عداد لحظات التجلىّ المعروفة، فلقد عرفت هذه وتلك، ولهذه صفاتها ولتلك صفاتها ، أما ما أعنيه هنا فهو لحظات الإدراك التى تتجاوز الذكريات وتتجاوز التجلى فى كونها ذهنية ونفسية معًا، فكنت عندما أخبرها أحس بيقظة ذهنية تربطنى بأمكنة وأزمنة وأشخاص ممن أعرف ولا أعرف، وتستعصى علىّ الكلمات حتى يتوقف الصوت الداخلى ويتملك نفسى إحساسٌ بالتداخل والحركة معًا، فهذا يشتبك مع ذاك، ويتحرك الجميع فى عدة اتجاهات معًا وفى نفس الوقت، وكان التداخل والحركة معًا يمثلان الدافع الأول لى على استكناه معنى الدائرة، ويقينى آخر الأمر بفكرة الدورة، وأذكر أن هذه الفكرة رسخت فى أعماقى حتى أثّرت فيما أكتب بل فيما أترجم، بل إنها بدأت تتسرب إلى أسلوبى نفسه، وقد انتبهت إلى ذلك عندما اعترض الأستاذ عبد الناصر عيسوى على تعبير 'دار الزمن' فى أثناء مراجعته لترجمة قمت بها، وظننت أن التعبير خطأ ، فسمحت له بتغييره ، ولكن الدكتور عبد اللطيف عبد الحليم (الشاعر أبو همّام) أكد لى فيما بعد أنه صحيح ، والأقرب إلى المنطق أن يكون صحيحًا، لأن آباءنا خبروا الحياة مثلما خبرناها ، وربما بأعمق مما خبرناها ، فكان التعبير مألوفًا لديهم .



وإذا كان الإحساس بالزمن هو أهم سمة من سمات تأمل الدائرة ، ولا أقول ثمرة من ثمار تأملها ، إذ ربما يكون الإحساس بالزمن هو الذى يدفع بصورة الدائرة إلى بؤرة

الوعى ، فإن الحياة التى تتدفق أنهارها حولنا تزخر بما يعمق هذا الإحساس ويؤكد صورة الدائرة فى الوقت نفسه ، وأنا أرى فى بعض الأحداث التى شهدتها نماذج على دوائر تشبه دوائر القدر ، وهى جديرة بقلم نجيب محفوظ حقًا ، فالإنسان يشترك فى صنعها مع قُوىً لا أظننى أخطأت حين نسبتها إلى الأقدار ، وفى داخل هذه الأحداث نفسها تبرز 'بقاع زمنية' يزداد جمالها ، ولو كانت غاصة بالآلام ، كلما ابتعد بها العهد وطوتها الأيام ، فإذا رأيت نظائر لهذه الأحداث من حولى أدركت أن دائرة جديدة قد بدأت ، وأن أحداث الأيام تأبى إلا أن تفضى دائرة إلى أخرى ، وأن الماء الذى يصبه النهر فى البحر فيختلط بمائه الملح لا يلبث أن يحمله الهواء سحائب تعود لتغذو منابع النهر حتى يصبها فى البحر من جديد . إن دورة الزمن التى تتبدّى فى أحداث الزمن تأكيد للدورات الكونية ، وكنت ولا أزال أرى فيها النماذج المادية لدورات الروح البشرية ، أو قل إننى كنت ولا أزال أستقرئ فيها فكرة الدائرة التى تتخطى حدود الحياة الملموسة . وليأذن لى القارئ بإخفاء أسماء بعض الأشخاص فيما سأرويه لأنهم لا يزالون بقيد الحياة ، حتى لا يتضرر أحد منهم من نشر قصته على الملأ ، وإن كان من المحتوم أن يتعرف أحدهم على نفسه ، وأنا لا أجد فى ذلك بأسًا ما دام هو الذى روى لى القصة وما دمت قد التزمت فى روايتها بما رواه لى .

كان إبراهيم (. . . . .) زميلاً لى فى المدرسة الثانوية فى رشيد ، وكان يكبرنى بنحو ثلاثة أعوام ، وكان من 'قادة الطلبة' - وهو الوصف الذى أطلقه عليه ناظر المدرسة أحمد السعيد جاد ، فكان يقود المظاهرات المعادية للملك ، ويشتهر بصوته الجهورى ، وكان على ضآلة جرمه ذا شخصية جذابة تستميل الآذان والقلوب ، فكان فصيحًا يقرأ الصحف ويلقى الخطب وينافس فوزى أبو العلا - الخطيب المفلق - فى زعامة السنة الثانية الثانوية (الإعدادية) بل وزعامة المدرسة كلها ، وكان جريئًا يجاهر بميوله الاشتراكية ، ويردد ما يقوله الأستاذ ونيس، مدرس الجغرافيا ، عن حتمية الثورة، وكان الوحيد الذى يحصل على مجلة روز اليوسف ليلة الأحد أى قبل صدورها بساعات وقبل أن يصادرها الرقيب أو يحذف منها ما يمس الأسرة الملكية أو يغالى فى انتقاد الحكومة ، فكان ينفرد بأقاصيصه عن القصر وعن أسرة زينب الوكيل ، زوجة النحاس باشا ، وعبود باشا ، واللواء النجومى باشا (مدير حديقة الحيوان) وآخرين كثيرين ، وكنا نستمع إليه فى دهشة وإعجاب وهو يسرد نماذج للفساد الذى يضرب

أطنابه فى الحكومة ، وعن الإقطاعيين وما يفعلونه بالبسطاء ، فإذا حدث ما يراه جديراً بالتظاهر أمر بمقاطعة الدروس والإضراب ، ثم صاح بالطلاب أن هُبّوا فإذا هم يهبون فى مظاهرة تطوف بشوارع البلدة مرددة الهتافات ، وكنا نحن - الصغار - نهرع خائفين إلى منازلنا ، وكان مدرس التاريخ الأستاذ عبد المنعم درويش (زوج ابنة عمى كوثر) يساند هذا 'الزعيم' معنويا وينحاز إلى صفه حين تغضب عليه إدارة المدرسة ، وأذكر مرة استدعينا للشهادة أنا ومصطفى النقيب (وكان من إدكو ويجلس إلى جوارى فى الفصل ودارت الأيام فتزوج ابنة عمتى) وكانت التهمة الموجهة إلى إبراهيم هى التعدى على الذات الملكية بما لا يليق من ألفاظ ، وكان الناظر قد استدعى للحكم فى الشكوى الأستاذ هندى مدرس أول اللغة العربية ، الذى كان - كما علمت فيما بعد - مدرسًا لوالدى وللدكتور عبد العزيز كامل رحمهما الله فى الفريدية الثانوية بالقاهرة - وأسر إلينا الأستاذ عبد المنعم درويش ألا نقول شيئًا لأن التهمة يُعاقب عليها بالفصل النهائى. وعندما سئلنا التزمنا الصمت ، ولم نقل ما يثبت أو ينفى ، وصاح الأستاذ هندى : "ولا تكتموا الشهادة يا عنانى ! ولا تكتموا الشهادة يا نقيب !" ولكن صيحاته ذهبت عبثًا ونجا إبراهيم وساد المدرسة فرح غامر ، وسرعان ما أرسل إبراهيم رسالة سرية إلى جميع الطلاب ينصحهم فيها بالامتناع عن الحضور فى اليوم التالى احتفالاً بالنصر ، ويحذرهم من المجئ ، ولكننى لم أستطع بطبيعة الحال أن أمتنع عن الذهاب، وعندما وصلت وجدت الباب موصدًا ، وعم سليمان الفراش واقفًا على غير عادته ، وسرعان ما وصل الأساتذة الذين يأتون بالقطار من الإسكندرية ، وسألنا الأستاذ صليب - مدرس الرياضيات - عن الخبر فلم نعرف ماذا نقول ، وبعد دقائق خلناها دهرًا انصرفنا فى حيرة ، فلا مظاهرة ولا دراسة - بل ولا لعب !

وعندما قامت الثورة - فى العام التالى - كان إبراهيم يرى نفسه ممثل حكومة الثورة فى المدرسة ، وكان الوحيد - تقريبًا - الذى يعارض 'شلة' الإخوان المسلمين وهى 'الشلة' التى تحدثت عنها فى **واحات العمر** (ج ١) وقلت إن أفرادها كانوا يتصورون أنهم وزراء المستقبل ، وكان إبراهيم يجاهر بهذا العداء ، وكان أنصاره يحملونه على أكتافهم فى مظاهرات التأييد للثورة ، ولا أعرف من الذى ألف بيت الشعر الحلمنتيشى الذى كانوا يرددون شطرًا منه تأييدًا لإبراهيم وهو "أنت الزعيمُ وكُلُّهمْ رَكَشْ !" وقد يكون أحدهم قد قرأه فى إحدى المجلات ، وربما يكون له مؤلف

مجهـول من بين الطلاب ، لكننى أذكر أن إبراهيم سألنى عن الشطر الثـانى فلم أعرف فطلب منى استكمال البيت ، فطلبت منه أن يمهلنى حتى 'آخر النهار' ، أى إلى ما بعد انتهاء الدروس فـوافق ، فجهدت نفسى طيلة الحـصتين الأخيرتين حـتى كتبت له شطرًا حلمنتيشيًا آخر لا يبرح خيالى أبدًا وهو ''الحقُّ جاءَ ورَوَّحَ البَكَشُ !'' فلدهشتى الشديدة وجدته يصيح صيحة الظفر كأنما عثر على شعار الثورة !

وانقطعت أخبار إبراهيم عنى سنوات طويلة ، ثم قابلته ذات يوم من عام ١٩٦٢ فى مقهى الأزهار بباب اللوق، وكان يجلس وحده وهو يدخن بشراهة وبجانبه حقيبة أدركت على الفور أنها حقيبة معلم، فأقبلت عليه مرحبًا فإذا هو كالعهد به يتقد حماسًا، غير أنه ازداد نحولاً كأنما صغر حجمه ، وعرفت منه أنه كان يحاول الانتهاء من إجراءات السفر إلى الجزائـر (التى كانت قد حـصلت لتوها على اسـتقـلالها) لتـدريس اللغة العـربية والمشاركة فى حـملة التعريب التى قادها بن بيلا وواصلهـا بومدين، وجعل يتكلم عن مشروعات المستقبل، وعلمت أنه حصل على دبلوم المعلمين وهى شهادة متوسطة، وأنه يطمح إلى استكمال تعليمه بالجامـعة عندما يعود من الجزائر، وأخذ يقص علىّ طرفًا من أخبارهوأخبار زملائنا بعد أن فرقتنا الأيام، وأنا أنهل من حديثه كأنه الشهد الرضاب، ولم أشأ أن أفارقـه حتى بعد أن وصل فاروق خورشـيد وعبد الغنى أبو العـينين (من مركز الفنون الشعـبية)وكنت أنتظرهما لتـسليم ترجمة مقـال، فقدمتـه إليهما بسرعـة وأنهيت المقابلة وعدت إلى مائدتنا حتى تأخر الوقت فأعربت له عن أطيب الأمانى وودعته .

وعرفت باقى قصة إبراهيم من بعض أصدقائنا بعد عودتى من انجلترا عام ١٩٧٥ ، فلقد قضى سنوات لا أعـرف عددها فى الجزائر وعاد إلى مـصر فاستقـر فى مدرسة فى الاسكندرية ، ويبدو أنه تخلى عن حلم استكمال تعليمـه ، ويبدو أن حماسه الثورى قد فتر أيضًا ، إذ اشترى عمارة فى حى شـعبى (لا أعرف تحديدًا مكانها) وأصبح له دخل يعينه على الزواج ، ولم يكن يريد الاقتران بأى فتاة من رشيد فهو الآن 'أفندى' محترم وجدير بأحسن المتعلمات من بنات الاسكندرية . وقال الصديق الذى قص علىّ القصة:

''كانت العمـارة جديدة ، وإيجار الشقـة لا يقل عن ١٢ جنيها فى الشـهر ، وقد حجز لـنفسه شقـة فيها ، وإبراهيم - كـما تعرفه - يحب الشـعارات [يقصد الـمبادئ والمثل العليا] ، ويبدو أن إحدى الساكنات فى الشقة المقابلة لشقته ، وكانت طالبة فى السنة النهائية بمدرسة الحكيمات (التى أصبحت المعهد العالى للتمريض) أدركتْ ذلك،

وكانت أصغر أخواتها وتعيش وحدها مع والديها المسنّين ، فجعلت تختلق الفرص لترديد الأفكار الثورية التى تستهويه كلما قابلته بالمصادفة أو لدفع الإيجار أو فى المناسبات الاجتماعية المصرية ، ويبدو أنها فعلت كل ما تستطيع الأنثى بفطرتها أن تفعله لاجتذاب نظره ، وانتهزت فرصة زيارة بعض أفراد أسرته (والدته وأخته) من رشيد فوطدت علاقتها بالأسرة ، وعندما مرضت الوالدة لم تكن 'الحكيمة' تبارح موقعها بجوار فراشها حتى شفاها الله ، ولم تكن تضن بالأدوية التى تحصل عليها من عيّنات الصيدلية فى مدرستها ، وكان ذلك كفيلاً بإثارة اهتمام إبراهيم ، خصوصًا عندما كانت تتحدث عن تطوعها للعمل بالقوات البحرية بالاسكندرية فى حرب ١٩٦٧ ، وكانت تطلع الأم على تفاصيل عملها ونشاطها فى الرعاية الطبية ، مع أنها لم تكن قد تخرجت بعد ، وتدريجيًا بدأت الفتاة تكتسب فى عيون الأسرة صورة الفتاة المصرية الجديدة ، المتحررة ، صاحبة المبادئ والمؤمنة بالعمل إيمانها بالحياة ، فكانت أخت إبراهيم تغار منها ولا ترحب بها، وكثيرًا ما كانت تتشاجر مع والدتها بسبب إعجابها بتلك الفتاة الإسكندرانية وتتهمها بأنها تفضلها عليها ، ولكن الأم كانت قد قررت أمرًا وعقدت عليه العزم ، فما أن انتهت 'الحكيمة' بعد شهور من دراستها وأصبحت تحمل لقب الدكتورة حتى أمرت ابنها بالزواج منها ! تصور يا أخى [قال صديقى] إلى أى مدى يبلغ مكر النساء ! والواقع أن إبراهيم لم يكن بحاجة إلى 'أمر' فالفتاة تشغل خياله 'وتملأ' حياته فعلاً ! وسرعان ما تم الزفاف ، ولم تعد أسرة إبراهيم تزوره إلا فى المناسبات ، خصوصًا بعد أن أنجب وتمكن منه حب زوجته إلى الحد الذى جعله ينقل إلى ابنه ملكية العمارة ، بعد أن أفهمته زوجته أن ذلك أمان للولد ، فهو الذى سوف يرث المبنى فى آخر الأمر ، وتدريجيًا تقطعت علاقة إبراهيم بأسرته فى رشيد ، وكنت عندما أزوره أراه ناحلاً هزيلاً لا يتوقف عن التدخين ، وكان أحيانًا يشرد ببصره فلا أعرف إن كان يسمع ما أقول أم لا'' .

وقال لى الصديق إنه كان دائمًا يستريب بالحكيمة وبأسرتها بسبب جشعهم وحبهم للدنيا ، وكان يتابع أخبار الأسرة بانتظام فهو لا ينسى أصدقاء الصبا ، ودلّل على ذلك بزيارته لى فى القاهرة قائلاً إنه يغتنم كل فرصة لتجديد العلاقة معهم ، فلا شىء أثمن من صداقة الطفولة والصبا ، وكان كثيرًا ما يتردد على القاهرة للانتهاء من بعض الأوراق الخاصة بعمله فى الجمرك ، وكنت ما زلت أسعد سعادة بالغة بلقائه والاستماع إلى اللهجة الرشيدية الصادقة بعد أن كدت أنساها . وكانت قصة إبراهيم قصة واحدة من عشرات القصص التى كنت أختزنها وأحيانًا ما أرويها أو أناقش تفاصيلها مع أحد

أخوىّ الأصغرين حسن أو مصطفى ، فهما يتابعان بعض هذه القصص خيرًا منى ، ولهما من الأصدقاء من قد يملأ بعض الفجوات فيها .

وفى أغسطس ١٩٩١ كنت أزور الإسكندرية لإلقاء محاضرة فى قصر ثقافة الشاطبى، وكان قد أُعلن عن المحاضرة فى باقى قصور الثقافة ، فسعى إلى الشاطبى بعض معارفى وأصدقائى القدامى وكنت أتوقع أن أرى إبراهيم بينهم ، ولكننى قابلت الصديق الذى روى لى قصة زواجه ، وكان واجمًا مكتئبًا ، فسألته ما الخبر فقال لى إن إبراهيم قد توفى فى العام السابق ، ولم يعرف أحد سبب وفاته ، وقال إنه يظن أن زوجته هى التى قتلته ، فقلت له أن يحسن الظن بالناس وألا يتهم أحدًا دون دليل، وسألته عن الولد فقال لى 'هذه مصيبة أخرى !' وفاجأتنى كلماته فخرجت معه إلى طريق الكورنيش نستروح نسمات المساء ، فقد كان اليوم حارًا رطبًا ولم تخفف كلماته من الحرارة أو الرطوبة ! فحثثته على الحديث فانطلق:

"عندما عدنا إلى الله فى السبعينيات كانت زوجة إبراهيم أول من ارتدى الحجاب بين أترابها ، وأنشأت ابنها تنشئة دينية قويمة ، فلم يكتف بالشعائر الدينية بل أصبح واعيًا بالحلال والحرام ، وأصبح يتردد بانتظام على المسجد ، مما أثلج صدورنا جميعًا، وتدريجيًا أصبحت والدته تتكلم باسم الإسلام وتتحكم فى حياة أسرتها الصغيرة (زوجها وولدها) وأسرتها الكبيرة التى تقيم فى الشقة المقابلة ، وأصبحت مرهوبة الجانب ، ويبدو أنها تعرف الكثير عن الطب ، إذ كانت تقوم بمهام الأطباء لدى الأسر التى تستنكف نساؤها استدعاء أطباء من الرجال ، أو لا تثق نساؤها فى الطبيبات السافرات ، وعلى مر الأيام تحول 'تديّن' الولد - واسمه خليل إلى 'دروشة' فهجر التعليم ، وطلب من والدته مبلغًا من المال (فهى التى تتحكم وحدها فى دخل الأسرة) وذلك للقيام بمشروع تجارى يبعده عن فساد الجامعة (بسبب اختلاط الجنسين فيها) فوافقت ، وباعت إحدى الشقتين اللتين كانت قد أمرت ببنائهما فوق أدوار العمارة الأربعة ، (دون تركيب مصعد) وأعطته ما يريد ، وساعدتُه أنا شخصيًا عدة مرات فى تخليص ما يريد من الجمرك ، وكان قد أطلق لحيته وارتدى الجلباب الأبيض ، فساعده من بهرهم ورعه واجتذبتهم تقواه ، على صغر سنه ، فلم تلبث تجارته أن ازدهرت ، وأصبح يقضى حياته ما بين العمل والمسجد والبيت ، فكان مثالاً للشباب المؤمن العامل المجتهد ، بل إنه أشرك فى العمل عددًا من 'المؤمنين' فأصبح المحل كعبة الجمهور والناس كلهم لا فى الحىّ وحده بل فى الاسكندرية كلها" .

ولم أجد فى ذلك كله مصيبة فعدت أسأله الإيضاح فقال :

''بداية 'المصيبة' هى أنه سجل العمل باسم والدته ، وأما والده فقد كان قد انسحب آنذاك من الساحة انسحابًا كاملاً ، وكان مهملاً فى مظهره ، وازداد نحوله وعزوفه عن الطعام، ولابد أن ذلك كان بسبب أسرار لا نحيط بها عن علاقته بزوجته المسيطرة ، ولو كان له شأن بما يجرى لَمَا قَبِلَ تسجيل العمل باسم الزوجة ، فكان يمكن تسجيله باسمه هو مثلاً ، وذلك حتى يبلغ خليل سن الرشد ، وعلى أى حال ، فنحن الآن نواجه المصيبة الحقيقية ، ألا وهى أن خليل قد تزوج من ابنة أخت الزوجة (أى من بنت خالته) التى تكبره بخمسة عشر عامًا أو أكثر ، فهى تخطو نحو الأربعين إن لم تكن بَلَغَتْها - وهى على ما سمعت لا تتميز بأى ملاحة ، ومن الصعب التيقن من أى شيء عنها فهى منّقبة ومفرطة السمنة ، لا تكاد تغادر المنزل أبدًا ، ولا يبدو أن أحدًا تقدم لخطبتها قبل خليل'' .

وسألت صديقى مخلصًا عن سبب معارضته لهذا الزواج فقال إنه يظن أن والدة خليل هى التى فرضته عليه ، فليس من المعقول أن ينتهى الأمر بهذا الشاب 'المثالى' إلى هذه الزيجة غير المتكافئة ، فأوضحت له أن أساس الزواج هو التناغم والتوافق ، وما داما متناغمين متوافقين فليسعدا وليهنآ ، وقلت له إن ما يحزننى حقًا هو ما حدث لإبراهيم فهو صديق أعرفه ويدهشنى أن تتحول حياته هذا التحول ، فأنا أذكر شخصيته القوية ، وأستبعد أن يكون قد استسلم بسهولة لزوجته ولابد أن أمرًا قاهرًا هو الذى جعله 'ينسحب' كما تقول من 'الساحة'. واستمر نقاشنا ونحن نسير الهوينى فى اتجاه محطة الرمل ، وكانت أضواء المساء مضاءة وتتلألأ على صفحة البحر ، وعلى البعد يلوح مسجد أبى العباس المرسى فيثير حنينى لأيام الصبا ، وكان صديقى لا يكف عن رمى زوجة إبراهيم بصفات قاسية ، فقلت له إنه لا ينبغى أن يدين طرفًا واحدًا فى أى علاقة بين اثنين (أو بين مجموعة) فالإنسان مخيرٌ فى علاقاته ، ولابد أن عدة عوامل (لا عاملاً واحدًا) هو الذى دفع إبراهيم إلى الاكتئاب ، وربما يكون قد حزن بسبب انهيار الاشتراكية - مثله الأعلى - أو بسبب انهيار بعض أحلامه الفردية ، فهو لم يكمل تعليمه ، وكذلك لم يكمل ابنه تعليمه ، وربما يكون قد مر بتجارب معينة فى الجزائر لم يفصح عنها لأحد فشعر بالإحباط ، وكنا قد وصلنا إلى الفندق الذى أنزل فيه فدعوته لشرب الشاب معى لكنه اعتذر لتأخر الوقت ، فقلت له قبل أن نفترق ألا يغالى فى الهجوم على المرأة ، لكنه قال بلهجة تنم عن الألم إن خليلاً قد أصبح يقضى فى المنزل من الوقت أكثر مما يقضيه فى العمل ، وإنه ينسب ذلك كله إلى مصيبة زواجه من تلك الفتاة . وافترقنا .

ولم أجد فى القصة ما يبرر وصفها بالمصيبة ، بل رأيت فيها ما يشبه الدائرة ! لقد افتتن إبراهيم بزوجته بسبب تحررها وأفكارها (التى يسميها صديقى 'الشعارات') وافتتن خليل ابنه بابنة خالته بسبب نقابها وربما بسبب غياب الأفكار أو 'الشعارات' ! وهكذا دارت الحياة دورتها وتغير المجتمع ، وربما تكرر فى حالة خليل ما حدث فى حالة أبيه إبراهيم ، وقد يكون قد أنجب ولدًا يواجه موقفًا مشابهًا (إن لم يكن مماثلاً) مع إحدى قريباته من سليلات الأسرة العجيبة ! وكم كنت أتمنى أن أتابع أحداث هذه الأسرة ، فروايتها قد تصنع 'رواية' فنية محبوكة ، إذا توافرت للكاتب الإحاطة الكافية بدقائق حياة كل شخصية من الشخصيات ، ولكننى لست روائيًا بل أضع نفسى فى موقع قارئ رواية الحياة ، وأحاول أن أجد فيما أقرؤه بعض المعانى ، وفى ظنى أن هذا جوهر كل سيرة ذاتية أدبية ، ولما كان معنى ما حدث لهذه الأسرة قد برز كواحة من واحات الزمن الذى ما فتئ يدور ، ويظل يدور حتى قيام الساعة ، فقد أثبتُ أحداثها - كما سمعتها وكما شهدت بعضها ولو من مسافة ما - لأنها أحداث تؤكد ما ذهبت إليه من الدوران ! إن وفاة إبراهيم لم تكن نهاية ، لأن ابنه واصل مسيرة قوس الدائرة ، لا فى المضمون ولكن فى الشكل ، أو قل - إن شئت - لا فى مواد البناء بل فى شكل المبنى ! أو قل - إن شئت - لا فى التفاصيل بل فى الصورة ، فنحن إذن نواجه دائرتين ، الأولى تفضى إلى الثانية ، ومن يدرى ما تكون الثالثة ؟ وفى جوهر الدوران نفسه يكمن جمال قول المتنبى 'صحب الناس قبلنا ذا الزمانا/ وعناهم من شأنه ما عنانا'، وقول شوقى 'سنون تعاد ودهر يعيد / لعمرك ما فى الليالى جديد !'



لم يكتب لى أن أتابع تفاصيل قصة خليل ، إذ شُغلت فى العام التالى بالمرض ورحلة العلاج ، وشغلت بعد العودة بمحاولة الرجوع إلى نشاطى السابق ، وعندما أتيحت لى فى منتصف التسعينيات فرصة استئجار شقة فى عمارات الأوقاف بالشاطبى لم أتردد ودفعت المبلغ المطلوب لمستأجرها القديم اللواء محمد رأفت ولهيئة الأوقاف المصرية ، وكانت تُصوّر فى ذهنى أقرب مكان إلى مراتع الطفولة والصبا فى رشيد والاسكندرية ، وأقرب مكان تستطيع فيه والدتى فى أعوامها الأخيرة - رحمها الله - أن

تستمتع فيه بصحبة أبناء الأسرة المقيمين فى الاسكندرية والتواصل مع أهل رشيد أيضًا، وكان موقع الشقة مغريًا فهى تقع تمامًا تحت الشقة التى تقيم فيها خالتى الحاجة لطيفة بدر الدين ، مدّ الله فى عمرها فهى أصغر خالاتى وأخوالى - وكانت والدتى رحمها الله تحب صحبتها ، وكان يزور والدتى الأقارب جميعًا ، خصوصًا خالى الدكتور مصطفى كمال بدر الدين وأبناءه ، وكان قضاء شطر من الصيف فيها يهيئ لنا جميعًا اللقاء مع أفراد الأسرة الكبيرة ، وكنت كلما ذهبت إلى الاسكندرية سألت عن صديقى الذى حكى لى قصة خليل فلم أوفق فى العثور على عنوان له ، وسألت الشاعر عبد المنعم الأنصارى - رحمه الله - كما سألت الشاعر مهدى بندق ، وترددت كثيرًا على قصر ثقافة الشاطبى ، ولكن جهودى جميعًا باءت بالفشل . وعندما يئست من العثور على ذلك الصديق قررت أن أزور المحل التجارى الذى أنشأه خليل فى حىّ الجمرك ، فاصطحبت ابنتى سارة فيما يشبه النزهة بالسيارة ، وذهبنا إلى مقر المحل الذى كان صديقى قد أعطانى عنوانه فوجدته مغلقًا . أوقفت السيارة ونزلت فسألت أصحاب المحلات المجاورة فجاءتنى إجابة واحدة لا تتغير، وهى أن صاحبه صادف مشاكل مع الضرائب فأغلق المحل وسافر. وكنت أعود كل عام فأمر على المحل بالسيارة فأجده لا يزال مغلقًا ، فأيقنت أن المشاكل لم تحل، وإن كان ولايزال من الصعب علىّ أن اقتنع بأنه 'سافر' كما يزعمون ، وقلت فى نفسى لعله قد فضّل الاختفاء هربًا من مشاكله، ولعل هؤلاء التجار يقولون ذلك تضامنًا معه وخوفًا من أن أكون جاسوسًا حكوميًا .

كنت أريد أن أعرف باقى القصة لأرى كيف سارت دائرة الحياة به (وبأبنائه ؟) فأنا مشدود إلى تلك الدوائر التى يبدو أن القدر يحكم رسمها ، وفى ذهنى الآن قصص تؤكد مسار تلك الدوائر ، ومسارنا فيها إلى غايات لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى وأنا أصف هذه القصص أو الأحداث بأنها 'قدرية' لأن الدائرة صورة قدرية محتومة ، فنحن ندور فيها مدفوعين بما رُكّب فيها من صفات ، يفسرها العلماء اليوم بأنها 'الجينوم البشرى' أو الخصائص الوراثية الفطرية التى تميز كل فرد عن سواه ، فكأنما هى 'المكتوب' بلغة الحياة الجينية (the language of life) فهى لغة لا تقتصر على الصفات الجسدية بل تتعدى ذلك إلى الصفات النفسية والذهنية ، وما زلت مفتونًا بهذا 'المكتوب' فى أعماق خلايا أجسادنا منذ الولادة ، وما زلت أتساءل عن مدى حرية

الاختيار المتاحة للإنسان و'المكتوب' مكتوب ! هل قُدّر علينا إن أردنا الاختيار حقًا أن نكافح ما لا نحبه من 'المكتوب' فنغيره أو نعدّله ؟ إنه لسؤال يظل بلا إجابة ، حتى يكشف لنا الله عن بعض أسرار هذا الكائن الذى كنا نظن أننا قادرون عليه .

لقد قلت لصديقى فى عام ١٩٩١ إننا نتمتع بحرية الاختيار فى علاقاتنا ، وهو قول لن يعارضنى فيه إلا القليل ، فنحن نحب أن نتصور أننا أحرار ، وربما يقول أحد القراء إن إبراهيم كان بإمكانه ألا يتزوج تلك الفتاة ، ولو قدر لها أن تقرأ رواية صديقى لقصة زواجه فربما عارضتها وقالت : 'ما حدّش ضربه على إيده' ، وقد يقول قارئ آخر إنه أخطأ حين أسلس لها قياده بعد الزواج ، فله شخصية يقر الجميع بجاذبيتها ، وقد يعارض ذلك قارئ آخر استنادًا إلى التفريق بين الشخصية الجذابة والشخصية القوية وهو ما نستخدم له فى العامية الانجليزية تعبير (charming personality) وتعبير (strong character) ، ويقول علماء النفس إن الشخصية الجذابة هى الشخصية القادرة على اجتذاب الأسماع والأنظار وإمتاع القلوب والعقول حتى دون أن تترك فيها أثرًا باقيًا ، فهى شخصية ناجحة اجتماعيًا وإن كان من المحتمل أن تخفى نقطة ضعف أو نقاط ضعف ، وأما الشخصية القوية فهى القادرة على التأثير فى الناس أولاً بالقدوة ، بسبب استمساك صاحبها بالمبادئ مهما تكن تلك المبادئ ، وقدرته على التحكم فى نفسه بقوة إرادة مؤكدة ، ومن ثم فهى شخصية قيادية . وربما كان إبراهيم صديق الصبا ينتمى إلى الفئة الأولى ، وربما كانت زوجته تنتمى إلى الفئة الثانية ، وغنى عن القول أن هذا التفريق ليس من قبيل الأبيض والأسود ، فلكل إنسان حظه من إحدى الفئتين ، بل قد تجتمع الفئتان كثيرًا فى بعض الأشخاص ، خصوصًا فى الزعماء ، وإن كان المألوف أن تغلب سمات إحدى الفئتين على سمات الأخرى . وكان لإبراهيم حظه من الفئة الثانية ، بدليل قيادته للطلاب فى المدرسة الثانوية ، ولكن صفاته القيادية كانت فى رأيى مستمدة من عوامل خارجية لا من قوة داخلية ، ولم تعد جاذبية شخصيته قادرة على القيادة بعد أن تولت الثورة قيادة الجماهير ، فسلبته القوة التى كان يستمدها من معارضة النظام القديم . أقول إن هذا محتمل ، وقد أكون مخطئًا ، ولكننى أرى فى تسليمه لزوجته بما تريد دليلاً عليه ، وأرى الآن - على بُعد المسافة - أن إحساسه بالإحباط يشبه إحساس الكثيرين الذين غلبتهم قوى الأحداث العامة ، 'فانسحبوا' - كما يقول صديقى - إلى داخل ذواتهم فلم يجدوا القوة الكافية فأصابهم الاكتئاب وهزلت أجسامهم مثلما هزلت نفوسهم . وربما كان الوقت الذى قضاه فى الجزائر مُعلّمًا لمبادئ اللغة العربية عاملاً من عوامل الإحباط ، فالثورة قوة ما دُمْتَ تشارك فيها بقوّتك ، وأما

إذا رأيت أن تعمل على جـمع المال وقررت تأجـيل أحلامك ولو لفتـرة معينة ، فـقد تذوى هذه القوة وتضمحل ، وقد تتراجع الأحـلام أو تتلاشى ، وقد يكون انهيار المثل الأعلى للاشتراكيـة عاملاً من عوامل هذا الاضمحلال ، على نحـو ما ذكرت لصديقى ، ولكن المجهـول سيظل دائمًا قائمًا فى العلاقـة الحميمة بين الزوج وزوجـته ، سواء فى حالة إبراهيم أو فى حالة ابنه خليل ، وهيهات أن ننجح فى النفـاذ إلى الأصقاع الخبيئة فى نفس أى منهما ، أو نطّلع على حقائق ارتبـاط كل منهما بزوجته ، وما دمنا لن ننجح فى ذلك أبدًا فمن التـعسف أن نصدر الحكم الذى أصدره صـديقى والذى يقضى بإدانة الزوجة وتحميلها المسئولية الكاملة عما حدث لإبراهيم- وربما عما يحدث الآن لخليل .

وقد يكون هذا الـمنهج فى التفسـير - الذى يعـتمد عـلى تحليل العوامل البـشرية وحدها - مستـمدًا من مناهج الأدب ، أو مناهج الدراما بصفة أخص ، فـالنقاد يجعلون مجـال دراستهم - منذ عـصر النهضـة - نفس الإنسان ، ويستـخفّون بالأعمـال الأدبية (وخصوصًا الدرامية) التى تتناول الأقدار فيما تتناول ، فتتيح للمصادفة أن تلعب دورًا فى الأحداث أو تفـسح مجـالاً أكبر مـما ينبغـى للظروف أى الأحوال الخارجـية المـحيطة بالإنسان ، فالنقـد الحديث يهتم بما يسمى عناصر الشـخصية (traits of character) التى تتـحكم فى الإرادة قـوة وضعـفًا ، ولو أن نظريات 'ما بعد الحداثة' تنكر وجود الشخصـية أصلاً وتعتـبر نفس الإنسان موقـعًا تلتقى فيه التـيارات الاجتماعـية والفكرية المتغيرة ، ومن ثم فـهى تعارض الثبات وتنكر على المذاهب النقدية الراسخـة اهتمامها 'بالشخصية' . ولكن الحياة تفرض علينا ، مهما يـكن موقفنا من فكرة الشخصية ، أن نُدخل الأقدار فى حـسابنا ، فالجينوم البـشرى قدر ، والبيـئة التى لا فكاك منها قدر ، ودورة الحياة قـدر ، والأدب الحديث يتناول ذلك كله مثلما تنـاوله الأدب القديم - شاء النقاد أم أبوا - ولذلك فأنا أرى أن دوائـر الحياة لا تكتمل صورتهـا حقًا إلا حين ننظر للإنسان نظرة مـتكاملة ، وإذا جنح الكاتب (وخصوصًا كـاتب الدراما) إلى الاتكاء على بعض العوامل دون غيرها ، أو إلى تأكيد بعض ملامح الصورة دون غيرها ، فلغاية فنية يقصدها ، وأمـا نحن - قُرّاء كتاب الحياة - فلا غـاية لنا إلا الفهم ، ونحن نستند فى محاولة الفهم إلى كل ما نشهده ونعلـمه ، وهو ما لا يسمح لنا أبدًا بتجاهل دور الأقدار فى دورات الحياة .

لقد اكتملت إحدى الدورات فى حالة إبراهيم وابنه خليل ، ومن الصعب ألاّ أنسب إلى الأقدار دورًا فى اكتمالها ، وهى دورة بين جيلين ، ولكن دورة أخرى تعيش فى ذهنى وتختلف ملامحها عن هذه الدورة ، ألا وهى دورة حياة فرد واحد اسمه هنداوى ، تصدى لأقداره وبدا أنه انتصر عليها ، وصعدت به الدائرة إلى الذروة ، ثم هبطت به إلى الحضيض ، وكنت أراه فى صباى وهو يجلس فى المقهى المقابل لمسجد النور فى رشيد ، بلا أنيس أو جليس ، مرتديًا حلة إفرنكية بالية ، يحدق فى المنضدة أو فى الفضاء ، ومع ذلك فقد كانت تبدو عليه آثار عز قديم ، توحى بأنه رأى ما لم ير كل من حوله ، وكنت أسأل عنه فلا أتلقى إلا إجابات مقتضبة لا تشفى الغليل ، ثم عدت فى الستينيات فسمعت أنه توفى فأصررت على أن أعرف قصته ، وعدت للسؤال بإلحاح هذه المرة فوجدت أن الحرص والحذر ما زالا يمنعان الناس عن الإفاضة فى 'سيرته' ، إلى أن ساقت المصادفة إلى منزلنا السيدة 'روما القلوعى' وكانت من أصدقاء الأسرة ، وزوجة لجلال الجارم الموظف ببلدية رشيد ، وكانت تعلم الكثير عن الجميع ، فاجتهدتُ حتى جعلتها تحكى لى قصة هنداوى ، وعملتُ بعد ذلك على استكمال الفجوات فى القصة من بعض كبار السن الذين كانوا لا يلتزمون بالتسلسل الزمنى فى روايتهم ، لكننى تمكنت آخر الأمر من تجميع الأجزاء فى سياق شبه كامل ، ووضعت على الورق ما يشبه القصة الكاملة ، واحتفظت بها سنوات طويلة فيما احتفظت به من أوراق فى حقيبتى التى كنت قد تركتها فى مصر طيلة سنوات الغربة، وكنت أطّلع عليها من حين لآخر فى غضون اختيارى لنماذج أولية لبعض مسرحياتى، لكننى لم أوفق حتى الآن فى وضعها على المسرح أو استلهامها، بل إننى لم أجد لها مكانًا فى واحاتى السابقة وها أنذا أحكيها باعتبارها مثالاً لدورة من الدورات التى تزخر بها الحياة.

يختلف الرواة حول عُمْر هنداوى ، ولكنهم يتفقون على أنه كان كبير السن دائمًا بمعنى أنهم لا يذكرون متى كان شابًا ، وضرب لى أحدهم المثل بالمرحوم عبد الوارث عسر ، الممثل الذى كان يلعب دائمًا دور الرجل الهرم - أو على الأقل منذ ظهور السينما فى الثلاثينيات وعلى امتداد نصف قرن تقريبًا ، وحدست أن هنداوى قد ولد فى أواخر القرن التاسع عشر ، وكان شعره الأشقر يخفى الشيب ، ووجهه الأحمر يخفى غضونًا عميقة ، وكان ضخم الجرم عظيم الهامة بطئ الحركة ، وكان يتفاخر فى شبابه بأنه سليل أسرة تركية تخلّى مؤسسها عن لقبه التركى بعد استقراره فى رشيد وهو فى طريق عودته من حج بيت الله الحرام ، وبعد أن أنشأ تجارته الرابحة فى العطور والتوابل الهندية ، ومن ثم أطلق عليه لقب 'هنداوى' . ويتفق الرواة فى ذلك كله ،

وإن كان من العسير التحقق من صدق بعض ما يروى ، مثل قصة كراماته ، إذ قال لى الشيخ عبد المحسن عرفة - شيخ مسجد أبى النظر (أبو مندور) الذى يقع على شاطئ النيل جنوبىّ رشيد ويبعد عدة كيلو مترات عنها - إنه لن ينسى 'بركات' هنداوى، 'والكرامة' التى أبداها حين كشف لأهل البلد عن بئر مغلقة مهجورة ، فاهتدوا إليها وأعادوا استغلالها فكانت خيرًا وبركة على المصلّين فى المسجد ، وقال لى حسن باشا (والد توفيق زميلى فى المدرسة) وصاحب مقهى باشا الشهير إن رشيد نجت من قنابل الحرب العالمية الثانية بسبب كرامات 'هنداوى' . وعلى أى حال ، فقد كان الجميع يتفقون على الكثير مما يسهل تصديقه ، ولذلك فسوف أحاول التركيز على ما يبدو من الحقائق وإغفال ما جعله الخيال شبه أسطورى .

نشأ هنداوى فى الفترة التى سبقت قيام الحرب العالمية الأولى ، وكان من النادر آنذاك أن يغادر رشيد أحد طلبًا للعلم ، ولكن الصبى كان طموحًا فغادرها والتحق بمدرسة المعلمين العليا بعد تميزه فى الدراسة بمعهد أزهرى ، وكان يدرس الرياضيات ويهواها فترك مهنة التعليم بعد تخرجه والتحق بعمل 'فنى' هو إمساك الدفاتر لشركة أجنبية فى الإسكندرية ، وسرعان ما أصبح مضرب الأمثال فى دقة حساباته وبراعته فى التخاطب باللغات الأجنبية (ولابد أن المقصود بها الفرنسية أو الانجليزية أو اللغتان معًا) فازدهرت أحواله وبنى لنفسه قصرًا فى ضاحية فكتوريا (ولابد أن 'القصر' كان 'فيلا' بلغة اليوم) وعندما سمع به طلعت حرب باشا عيّنه مديرًا لفرع من فروع بنك مصر ، لكنه ظل على صلته القديمة بمسقط رأسه رشيد ، فكان من أوائل من امتلكوا سيارة حديثة ينتقل بها بين منزله القديم فى رشيد وقصره فى فكتوريا بالإسكندرية ، وقيل لى إنهم كانوا يسمونه 'البيك' دون أن يحصل على 'البكوية' ، وعندما أُنشئ بنك التسليف الزراعى بالاسكندرية ، عُيّن مديرًا له ، فبدأ ارتقاؤه سُلّم الشهرة .

والمؤكد أن ذلك كان فى فترة ما بين الحربين ، فالرواة يقرنون أحداث تلك الفترة بأحداث عالمية وقعت آنذاك مثل بزوغ نجم 'هتلر' والأزمات الأوروبية المصاحبة لذلك، ويتحدثون عن عبقرية هنداوى الفذة التى تجلّت فى ذاكرته الخارقة ، فلم يكن يحتاج إلى كراسة وقلم ، بل كان يذكر كم أقرض البنك عملاءه ، تفصيلاً وتحديدًا ، ويذكر الأسماء والتواريخ ، فأحبه الناس ، ووثقوا به ، وكانوا يتطلعون إلى زيارته لرشيد حتى يعرضوا عليه شئونهم ، فلم يكن يرد طالبًا أو محتاجًا ، بل رُويت عنه روايات تدل على كرم عجيب وسماحة نفس لا يوحى بها مظهره ، إذ كان كتومًا لا يحب الكلام ، ولم يفصح لأحد فى رشيد عن تفاصيل حياته العملية أو العائلية فى

الاسكندرية ، ولكن أحدًا لم يهتم بذلك ، وكـان الخيال يرسم فى أذهان الناس الصور التى يريدونها له ، فبعضهم يصوره فى صورة مليونير مثل عبود باشا ، وبعضهم يصوره فى صورة 'شيخ له كرامات' ، وبعضـهم يقول إنه من الأسرة الملكية ، وقـال لى أحد الرواة ممن أثق فى رجاحة عقلهم إن أحدًا لم يسـتطع التحقق من طبيعة عمل 'هنداوى' وحياته فى الاسكندرية ، لكن الجميع كانوا يقـرّون بفضله على أهل البلدة ، فمعظمهم مزارعـون أو يعملـون بحرف متـصلة بالزراعـة ، ويندر بينهم من لا يحتـاج إلى بنك التسليف الزراعى الذى افتـتُح له فرع فى رشيد ، بجوار مقر البـوسطة (البريد) وأنشئت بجواره 'شونة' كبيرة لتـشوين (تخزين) التقاوى (البذور) والأسمدة والمـبيدات وما إلى ذلك بسبـيل ، وكانت 'سمعة' هنداوى باعتـباره رجل الخـير قد ثبـتت فى قلوب أهل البلدة قبل أن تثبت فى عقولهم ، ومن ثم كان الذهول الذى تلقى به الجميع نبأ القبض عليه وإيداعه السجن بتهمة الاختلاس .

ومثلما أحاط الغموض بحياة هنداوى فى الإسكندرية ، أحاط الغموض والدهشة وما يقرب من الاستنكار بتفاصيل الجريمة المنسوبة إليه ، وكان النبأ قد أذيع فى خضم أنباء الحرب العـالمية ، فلم يشغل الكثـيرون أنفسهم به ، خـصوصًا حين اقتـربت جيوش ألمانيا من الإسكندرية، وانتقل كـثيرون من أهلها إلى الإقامة فى رشيـد تحسبًا للعواقب كما انتـقلت إلى منزلنا أسرة خالى الدكـتور محمد على بدر الدين (مـن القاهرة) ووجد أهل البلد فى مشكلات مـا يسمى 'بالهجار' (وهو ما أشرت إليه فى واحـات العمر) ما يلهيهم عن مشكلات أفراد مثل هنداوى أو غيره . وقال لى أحد الرواة إنه واثق أن تلك التهمة ظالمة، وأن هنداوى من المحال أن يمد يده إلى 'المال الحرام' فهو رجل 'يعرف ربنا' ، والأرجح أن التهـمة قد لفقـها له أعداؤه ، ومن يدرى - قـال لى - لعل عذاب السجن تكفير عما لا نعلم من سيئات ، ومحنة من الله يبتلى بها عباده المؤمنين .

ولا أعرف كم من السنين قـضاها هنداوى فى السجن ، لكنه عندما خـرج كان قد أصبح شيخًا مهدمًا ، فـباع الڤيلا وعاد إلى رشيد ليقيم فيهـا بصفة دائمة ، وكان يقضى أيامه بيـن المسجـد والمقـهى ، شارد النظرات ، لا يكاد يعـرفه أحد ولا يـكاد يعرف أحدًا، وعندما كنت أراه فى مطلع الخمسـينيات وأنا ذاهب إلى المدرسة أو خارج منها (فهى تجـاور مسجد النور الـمذكور) كنت أقف لأتطلع إلى الرجل الذى يمـثل أيام العز

الغاربة ، وكنت أحيانًا أطيل التأمل والكلمات تتردد فى أعماقى حتى نظمت بعض الأبيات التى قد تكون السبب فى الإيحاء لى بفكرة الدائرة ، وقد تكون السبب فى تذكر هذه الحادثة دون سواها بسبب الخلافات التى نشبت بشأنها وهى :

قل كيف دار به الزمان وأقفرت أيامُهْ

وتكاثرت سحب الهموم وبُدّدتْ أحلامُهْ

فقد الكلام فلا تسلنى كيف ضاع كلامُهْ

أتراه يبكى مجده المسلوب أم يبكى عليه غمامُهْ ؟

أتراه ينظر فى الغد المجهول سجنًا لا يحول ظلامُهْ ؟

وما زلت أذكر كيف كنت سعيدًا بهذه الأبيات ، فقد كنت صبيًا أروض الشعر وأفرح بنظم الكلام ، فعرضت الأبيات على زميلى خميس سعد خضر فقال لى إن 'ينظر' ضعيفة والأفضل أن تقول 'يبصر' فقلت له إننى أقصد بالنظر الانتظار فقال إن هذا لا يجوز وسمعنَا زميلُنا محمود نجيب عبد الحليم فأيدنى بشواهد من القرآن (إذ كان يحفظه) لكنه عندما قرأ الآية ﴿ **قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾ (الأعراف - ١٤) رد خميس قائلاً إن معناها أمهلْنى أو أخّر عذابى ، فقلت له إن قراد بن أجدع يقول ''فإن يك ظهر هذا اليوم ولّى / فإن غدًا لناظره قريب'' - وهو البيت المشهور فى القصة التى **قصّها** **علىّ** والدى - رحمه الله - واستقاها من كتاب **مجمع الأمثال** للميدانى (وقد قدر لى فيما بعد أن أنشر مختارات منه فى مكتبة الأسرة) ، ولما اشتد الخلاف احتكمنا إلى مدرس اللغة العربية الأستاذ على الخياط (الذى غيّر اسمه إلى الرشيدى) فضحك وقال إن بالأبيات عيوبًا أخطر وهى عيوب عروضية فالبيتان الأخيران يتكون كل منهما من خمس تفعيلات وذلك لا يجوز ، كما قال إننى استخدم ألوانًا مختلفة من الزحاف والعلل (القطع أى حذف آخر الوتد المجموع مع إسكان ما قبله فى ضرب البيتين الأولين مع الإضمار أى تسكين الثانى المتحرك ، ثم التحول إلى ضرب مجزوء، والضرب هو آخر تفعيلة فى البيت ، ومقطوع فى الأبيات الثلاثة التالية) وهذا فى رأيه لا يجوز ، وقلت له إن الإضمار نوع من أنواع الزحاف ولا ضرورة للالتزام به فى سائر الأبيات وأنا ألتزم بعلة القطع فى الأبيات الخمسة جميعًا لكنه نهرنى فسكتّ - رحمه الله رحمة واسعة فقد سمعت أنه توفى ، ولكن تلك المناقشة ثبّتت الأبيات فى ذاكرتى ، فسجلتها فى بعض

ما سجلت من نظم الصبا ، وكنت فرحًا بتصوير القبر في صورة السجن ، وبصورة 'يبكي عليه غمامُه' مع ما يبدو لي الآن من شيوع هذه الصور والمعاني .

قلت إنني حاولت أن أجد مكانًا لهنداوي في إحدى مسرحياتي لكنني فشلت ، وما زالت صورته التي ارتسمت في ذهني قائمة دليلاً على دورة الزمان العجيبة ، وهي تزداد رسوخًا بسبب ما أحاط بحادثة السجن من ألغاز ، وبما أحاط بالرجل نفسه من أساطير ، ولكن العودة إلى البلد بعد الازدهار في المدينة في عصر التحولات الحضارية الحديثة ما زالت تمثل لي دائرة من نوع خاص ، فهي دائرة العودة إلى الأرض - إلى 'الأم الرؤوم' كما يسمونها - ولقد اختفى فيها سِرُّه وانطوت فيها حقبةٌ كاملة من تاريخ مصر ، فلا شك أننا لو نبشنا حياة هنداوي في الإسكندرية (وفي كتوريا) لخرجنا بأسرار ممتعة عن الشركات الأجنبية والاحتلال الأجنبي ونشأة الرأسمالية التجارية المصرية ، ولاطّلعْنا على طرائق عمل بنك التسليف الزراعي في أول عهده ، ولعرفنا وجوه إنفاق ما اختلسه هنداوي من مال إن صح أنه اختلس مالاً ، فلقد جعلني حديث الحاج 'محمد شبابو' - رحمه الله - عندما سألته عن ذلك أعيد النظر فيما رواه الآخرون ، إذ قال لي ما موجزه إن هنداوي مات معدمًا أو شبه معدم ، ولم يكن يملك حين دخل السجن سوى الڤيلا التي بناها 'طوبة طوبة' و'من عرق جبينه' في مستهل حياته العملية ، وذكرت أيضًا ما قيل لي عن ذاكرته التي كانت تختزن الأرقام والأسماء، ورأيت من العجيب في أعمال البنوك الاعتماد على الذاكرة ، فهي خئون ، وهمس لي هامس أفلا يجوز أن الخطأ الحسابي الذي 'كيّفه' المحقق على أنه اختلاس يرجع في الحقيقة إلى زلل في الذاكرة ؟ ولو صحّ أنه اختلس المال حقًا فأين ترى ذهب ذلك المال ؟ وفي أي الوجوه أنفقه ؟

هذا الغموض الذي يحيط بالقضية يبتعد بتصنيف القصة عن نمط الحادثة ويدخلها في عداد 'الأنماط القدرية' ، فالرجل كافح واغتنى وبرّ أبناء بلده ، وشاع عنه من أعمال الخير ما جعله يكتسب أبعادًا أسطورية ، فالعودة هي آخر نقطة في مسار الدائرة التي ندور فيها على هذه الأرض ، ولكن الدائرة - تعريفًا - لا تتوقف ، فهو ما يزال يعيش في وجداني ووجدان بعض الأحياء ، بل إن الدائرة قد تتجاوز التربة التي نعود إليها ويختلط رفاتنا بها ، وقد تكتسب في عين الشاعر حركة ووجودًا من نوع جديد ، يؤكد

صورة الدوران والدائرة الدائمة، على نحو ما صـوره الشاعر وردزورث فى إحدى القصائد التى يرثى بها فتاة خيـالية اسمها 'لوسى' ، وهى القصيدة القصيـرة التى يسميها النقاد 'الرثاء الرفيع' (Sublime Epitaph) ، وقد ترجـمتهـا إلى العربية نـظمًا بمزيج من بحرى الـبسيط والكـامل - بالتناوب - بزحافـاتهمـا وعللهمـا وأهم الزحافات الـخبن والوقص وأهم العلل الحذف ، وها هو النص الانجليزى وترجمته العربية :

A slumber did my spirit seal,

I had no human fears;

She seemed a thing that could not feel

The touch of earthly years.

No motion has she now, no force;

She neither hears nor sees,

Rolled round in earth's diurnal course,

With rocks and stones and trees.

ران النعاس على روحى وغيّبها

فمحا مخاوف البشر

كانت بعينى فتاة ليس تلمسها

يد السنين والقدر

فالآن قد سكنت والقوة اندثرت

ومضى زمان السمع والبصر

باتت تدور ببطن الأرض دورتها

فى صحبة الصخر والأحجار والشجر .

٤

والدائرة تمثل نمـوذجًا للحركة فى الأعمال الأدبيـة والفنية وتياراتها ، مـثلما تمثل نموذجًا يصعب تجاهله فى حياة الإنسان ، وهو نموذج لا للحلقة الهندسية المُحكمة فقط (circle) بل لأى دورة (cycle أو circuit) ولو تفاوتت أبعـاد (أى أطوال) أقطارها ، وقديمًا تعلمنا فى الهندسة ما يسمى بالقطع المخروطى (conic section) والمخروط هو الشكل الهرمى الذى اسـتدارت جوانبه فأصـبحت له قمة مدبـبة وقاعدة مسـتديرة ، فإذا أخذنا قطاعًا أى قَطْعًا موازيًا للقاعدة أصبحت لدينا دائرة محكمة ، فإذا كان القطع مائلاً أى غير موازٍ للقـاعدة أصبح بيضيًا (بيضاويًا) وهو مـا نسميه (ellipse) فإذا كان القطع يقوم على القـاعدة ويمـيل عنها - يمنة أو يسرة أصـبح قطعًا ناقصًا قـائمًا أو مائلاً (أى parabola أو hyperbola) والأصل فى ذلك كله هو التـقوس أو شكل القـوس ، وقد اهتدى علماء الفلك منذ كبلر (Kepler) فى مطلع القرن السابع عشر ، بل منذ كوبرنيق (Copernicus) ابن القرن السـادس عشر ، إلى الحـركة الدائرية للكواكب ، وانتـهوا اليوم إلى أنها تـدور فى دوائر ناقصة (elliptical) يتفاوت فيها بُعـد المسار عن المركز (focus) فتـصبح منبعجـة أى أقرب إلى الشكل البيـضى ، كما أننا قـد نغفل عن هذا الشكل فى تفسيرنا لكثير من حقائق الحياة فإذا اكتشفناه اهتدينا وفهمنا ، وهذا ما حدث عندما اكتـشف العالمان البريطانيـان الشكل الحلزونى أى الشكل الذى يتكون من دوائر متصلة صاعدة (spiral) الذى تتخذه حروف لغة الحياة داخل الخلية البشرية ففازا بجائزة نوبل عام ١٩٦٦ ، وقد وجـدت من تأملى للحياة وللأدب الذى يصـور الحياة أن شكل الحلزون هو أقرب الأشكال التى تعـتمد على الدوران وتستطيع تفـسير ما لا نفـهمه من أحداث ، وربـما تأثرت فى ذلك بنظرية هيـجل - الفيلسـوف الألمانـى - عن القضـية والنقيض والتركيب (Thesis, antithesis and synthesis) ، واستفدت بهذه النظرية فى تحليل قصـيدة طويلة للشـاعر وردزورث لم ينشرها فى حـياته بل أدرج أبيـاتها فى قصيدة **المقدمة The Prelude** ، ولقد قمت بتحقيق مـخطوطات هذه القصيدة (كما سبق لى أن ذكرت فى الأجزاء السابقة من واحات العمـر) ونشرها عام ١٩٨١ وأسميتها 'المقدمة الصغيرة' **The Little Prelude** وجعلت للكتاب عـنوانًا يدل على ما جاء فى المقدمة وهو "جدلية الذاكرة" (**The Dialectic of Memory**) ويتلخص ما

ذهبت إليه فى أن بناء الصور فى القصيدة (التى تقع فى نحـو تسعمائة بيت) يعتمد على الحركة الدائبة بين شىء ما ونقيضه ، بحيث ينتج من هذه الحركة أو هذا 'الجدل' شىء جديد يمكن اعتباره مُركبًا منهما (التركيب) ولا يلبث هذا المُركّب أن يصبح فكرة جديدة أو صورة جديدة تمثل ما يسميه هيـجل بالقضية ، فإذا تبلور هذا الجديد برز له نقيض ، ثم اشتـبك معه فنشأ منهـما تركيب جديد ، لا يلبث أن يصـبح قضية بدوره تسـتدعى نقيضًا جديدًا وتركيبًا جـديدًا ، وهكذا دواليك . أى إن الحركة الدائبة هنا حركة دائرية قد تكون صاعدة أو هابطة ، ولكن الدوران هو عنصرها الأول .

وقد وجدت فيـما قرأت من الشعر العربى نمـاذج للبناء الجدلى ، أى البناء القائم على الحركة الدائبة بين الشىء ونقيضه والتـركيب منهما ، وقد درجنا على إطلاق صفة 'البناء الدرامى' على هذا النوع من البـناء ، لأن الدراما أوضح الـفنون الجدلـية ، وقـد نبسّط الأمور فنطلق على الجدل تعبير 'الصراع' الذى قد يوحى بالقتـال ، ترجمة لأحد معانى كلمة conflict – فمن مـعانيـها الأخـرى التنازع أو التضـارب (كما فـى قولك conflicting reports أى أنباء متضاربة أو conflicting opinions أى آراء متناقضة) والمعنى ليس عسـيرًا على الإدراك – مهما يكن تفسيـرنا له ، فنحن نواجه فى كل عمل درامى مجـموعة من القوى التى مـا تفتأ تشـتبك وتتنازع السيطرة فـإذا انتهى التنازع (أو الصراع) بالمـوت ، على نحو ما نرى فى الأعمـال الكلاسيكية ، قلنا إنهـا مأساة (أى تراجـيديا) ، وإذا انتـهى بالتصـالح والتـوافق والتناغم قلنا إنهـا ملهاة (أى كـوميـديا) والمصطلحان العربيان من وضع الدكتور محمـد مندور ، ولقد شاعا حتى اكتسبا دلالات المصـطلحين الأجنبـيين ، وإن كـان البعض لا يزال يسـتخدم الـكلمتـين الأجنبيـتين المعـربتين، والبعض يـطلق على المأساة صـفة 'الفاجعة' ، ويعـاف البعض مـصطلح 'الملهاة' لما توحى به من اللهـو ، ولكننى أقصد من إيراد هذه وتلك أن أشـير إلى أن التنازع لا ينجح فى أى منهما إلا إذا كانت القوى التى تسـيّر الأحداث متكافئة إلى الحد الذى يسمح بنشوء جدلية تؤكد صورة الدورة ، ولذلك نجد أن الصراع الكلاسيكى تسير خطوطه الصاعدة فى دوائر صغيرة أو حلقـات يمر مركزها بالدائرة الكبيرة (epicycles) فإذا وصل المسار إلى الذروة فـقد يلتقى مركز إحدى هذه الحلقات بمـركز الدائرة الثابتة فنرى ما نسمـيه النهاية ، وقد تكون هذه الحلقات ذات مـسارات متداخلة أو متـقاطعة ، وقد تكون منفـصلة على نحو مـا نشهد فى بعض الأعـمال الدرامـية التى تتضـمن عدة أحـداث تبدو وكـأنمـا تسـير فى حـلقات منفـصلة ، فى حـين أن أقـواس محـيطهـا (epicycloids) مُتماسّة مما يتيح الاشتباك آخر الأمر .

ويفسر أنصار مدرسة البنيوية فى النقد الأدبى (structuralism) وجود هذه الدوائر على أساس التضاد الثنائى أى (binary opposition) بمعنى وجود قوتين لا أكثر تَنْتُجُ الحركة من تضـادهما ، ولكننى أفضل صورة الدائرة الجدلية فـهى التى تستطيع إيضاح التغير فى معنى القوة الدافعة أو الفاعلة من دائرة إلى دائرة ، ولو كانت القوى ثابتة كما يقول البنيـويون لما تقدم الحـدث الدرامى قيد أنملة ، حتـى فى الكوميديا أو كومـيديا الأقنعة التى لا تتغير فيها القوى إلاّ تغيرًا طفيفًا ، والمثال الحاضر على ما أقول مسرحية ماكبث لشـيكسبير ، فـالشاعر العظيم يقدم لنا أول دائرة صـغيرة فى شخـصى ماكبث وبانكو ، فهمـا قائدان ظافران ، يعودان من معركـة انتصرا فيها على بعض المـتمردين على سلطان ملك اسكتلندا (دَنْكان الطيب) ويجـسد لنا شيكسـبير القوتين اللتـين تبدآن الحدث فى هذه الدائرة فى صورة العرافات أو الساحـرات الثلاث اللائى يمثلن ما يعتمل فى منطقة ما من مناطق اللاوعى عند ماكـبث ، وهذا التجسيد حيلة مسرحـية فنية قديمة ومألوفة ، وهكذا فهـو يجعل أولى قضايا الجدلية الدرامية قـضية الولاء للملك، ويجعل نقيضها نازع الطموح وأحـلام تولّى العرش ، وتتقاطع مع هذه الدائرة دائرة صغرى هى دائرة النظام والخلل ، أى منطق الصحة ومنطق المرض ، وعـندما تتحقق أولى نبوءات العرافات بتولى ماكـبث إمارة مقاطعة 'كاودور' ينشأ التركـيب فى الجدلية الأولى ، ألا وهو الدافع الواضح على تولى المُلْك ، وهو تركيب لأنه يتضمن فى أعطافه نوازع تأنيب الضمـير والاسـترابة بعواقـب الطموح الجائح ، وتـبدأ دائرة أخرى تحـيى دائرة النظام والخلل عندمـا يلتقى التـركيب الجديد بمـا يؤدى إلى غلبة دافع الطـموح ، وهو الذى يجعله شـيكسبير ممـثلاً فى زوجة ماكـبث ، إذ يبدأ مسار الخلل ، ويُقْدم مـاكبث على الخيانة وقتل الملك الذى حل ضيفًا عليه ، فتكتمل الدائرة الثانية ، ولكنها تصبح نفسها تركيبًا جـديدًا ، فتولى ماكبث عرش اسكتلـندا يولّد نقيضًا هو يقظة ضميره وإحـساسه ببشاعة الجرم ، ومن التنازع بين هاتين القوتين - قوة الدافع وقوة النفس الخاطئة - ينشأ تركـيب جـديد يدفع بالملك الجـديد إلى ارتكاب المـزيد من القـتل ، فى حـين يظل إحساسه بالندم والـعار قائمًا ، فيتشكل فى صورة قـوة جديدة هى الخوف ! ولا أريد أن أفيض فى تحليل المسرحية فهى ليست موضوعى هنا ، وأعتقد أن ما ذكرته يكفى لتبيان جمال هذا التناجز بين القوى وتحولاتها ، فالقوى تؤدى إلى أفعال ، والأفعال تغيّر من طبيعة القوى حتى لكأنهـا قوى جديدة تدخل الساحة ، وهكذا تفضى دائرة إلى دائرة ، فى مسـارات متداخلة ، بعـضها صاعـد وبعضهـا هابط ، إلى أن نصل إلى ما نسمـية بالنهاية من باب المـجاز ، فما هو إلا نهاية حلقـة من الحلقات . ولهذا السبب يعـتبر

النقاد مسرحية ماكبث من أنجح مسرحيات شيكسبير إن لم تكن أنجحها على الإطلاق، وأعنى بالسبب أن جدلية الحدث المسرحى تنجم عن التغيرات والتحولات (mutations) فى طبيعة القوى الدافعة وأشكال ما تؤدى إليه من أفعال، وذلك- بطبيعة الحال-إلى جانب الشعر الرائع الذى كتبه ذلك العبقرى على ألسنة شخوص المسرحية.

فإذا طبقنا نظرية البناء الدائرى (cyclic structure) على بعض الأعمال الأدبية وجدنا أنه يعنى - فى معظم الأحوال - بناء دراميًا قد يتكون من دائرة واحدة وقد يتكون من دوائر يفضى بعضها إلى بعض ، وقد تتداخل وقد تتقاطع ، حتى فى الأنواع الأدبية التى نعتبرها - وفق التصنيف التقليدى - أنواعًا غير درامية مثل الشعر الغنائى ، أى الشعر الذى يتحدث فيه الشاعر بصوته المميز الخاص به مباشرة إلينا أى على لسانه هو، لا على لسان شخصية أخرى ، أى لا بلسان قناع (persona) أو بألسنة عدة شخصيات ، وهو ما يحدث فى الدراما . وأبرز نماذجه التى حللتها فى العربية بعض أشعار صلاح عبد الصبور ، ومعظم أشعار فاروق شوشة ، فكلاهما من أساتذة البناء الدائرى ، وهما يتوسلان - أحيانًا - بأقنعة تخفى بعض المسارات الدائرية أو تظهرها ، وقد حللت قصيدة عبد الصبور 'أغنية إلى القاهرة' فى كتابى **الأدب وفنونه** (بالعربية) وقصائد كثيرة لشوشة فى الدواوين الثلاثة التى ترجمتها له [**لغة من دم العاشقين ، وقت لاقتناص الوقت ، وجه أبنوسى**] (بالانجليزية) وقد وجدت أن كلا منهما يستعين بالأقنعة فى هذا البناء ، وإن كانت بعض هذه الأقنعة نفسها تتخفى على القارئ . والإحساس بالدورة - فى رأيى - من الأحاسيس التى يهتدى إليها الشاعر فى غمار الحدس الشعرى (poetic intuition) مهما يكن من ثبات معانى الصور الأساسية فى ذهنه ، وقد يلجأ بعض كبار الشعراء إلى تأكيد هذا الإحساس باستخدام قرار (refrain) أى سطر أو سطرين يتكرران بين كل دورة والدورة التى تليها ، مثلما يفعل إليوت (Eliot) فى 'بروفروك' (Prufrock) وپاوند (Pound) فى بعض أناشيده (Cantos) ، وقد يلجأ إلى تكرار صورة أو كلمة تؤدى دور الواسطة التى تربط بين الحلقات أو تصل الأقواس المتقاطعة بعضها بالبعض، مثلما يفعل كولريدج (Coleridge) فى كريستابل (Christabel) ووردزورث فى 'خاطرات الخلود' (The Immortality Ode) ، وقد يعتمد بعضهم على الإيقاع الموحى بالدورات مثلما يفعل ديلان توماس (Dylan Thomas) فى شعره القصصى ، وأكاد أجزم بأن البناء الدرامى يبلغ أعلى ذروة له حين

تتداخل هذه الدورات فلا يكاد القارئ أن يشعر بها، إذ يجد أن خيوط الفكرة أو الصورة (أى الثيمات) قد تغيرت دون أن يلحظ ، وأن الشاعر يسير به فى دورات ترجع به إلى نقطة ما من نقط البداية ، وتكاد أن تعده ببداية جديدة ، حتى فى الشعر الغنائى كما قلت ، ولا أدل على ذلك من قصيدة تنيسون (Tennyson) الطويلة **للذكرى (In Memoriam)** ، فهى تتكون - صوريًا - من قصائد غنائية منفصلة فى رثاء صديقه الصدوق آرثر هالام ، ولكنها تتكون نسجًا وفنًا ودلالةً من حلقات تأمل شعرية متداخلة، لا تستطيع أن ترصد لها بداية ولا نهاية .

ونحن نتعلم ذلك من الأدب مثلما نتعلمه من الحياة ، وما القصص التى رويتها عن أصدقاء صاحبتهم سنينًا وانفصلت عنهم سنينًا إلا نماذج لذلك التداخل بين الدوائر والاستمرار فيها ، فدائرة إبراهيم تلتقى مع دائرة زوجته ، والدائرتان بقواهما المتصارعة (أو المتنازعة) يفضيان إلى دائرة ثالثة هى دائرة خليل ، والقوة الكامنة فيها والتى تعتبر 'التركيب' الناجم عن قوى الدائرتين السابقتين ، تلتقى بقوة التديّن فى صورته المعاصرة ، وهو الذى صرف خليل عن مواصلة تعليمه ، ولكن إحدى القوى التى انتهت إليه من إحدى الدوائر السابقة تلقيه على الزوجة التى يصفها صديقى بأوصاف تتناقض كل التناقض مع أوصاف والدته حين أحبها والده وتزوجها ، فإذا بدائرة جديدة تنشأ ويعلم الله كيف ستنتهى ، ومهما تكن صورة 'انتهائها' فهى لابد مفضية إلى دوائر أخرى ، وما يقال عن هذه القصة يمكن أن يقال عن أى قصة ، ولكننا أحيانًا ما نفتقر إلى الحقائق التى تنير لنا السبيل أو توضح لنا مسار تلك الدوائر، وأحيانًا ما يتوقف الناظر عند مشهد يشده ويستولى على ذهنه فيصرف بصره عما يشتبك معه ويرسم موقعه ومساره على دائرة من الدوائر ! وكثيرًا ما كنت أقول فى نفسى ليتنى كنت كاتبًا روائيًا حتى أطلق لخيالى العنان فأملأ الفجوات التى تحول دون إدراك تفاصيل دورة القدر الكبرى التى انتهت بهنداوى إلى ذلك الكرسى فى المقهى المواجه للمسجد ! ليتنى كنت قادرًا على متابعة حياته منذ مولده فى القرن التاسع عشر - فنحن لا نعرف إلا أن أسرته قد تفرقت فى صباه واستقر أفرادها فى الاسكندرية وغيرها من المدن ، فما الذى كان يشده إلى رشيد ويجعله يحتفظ بمسكن الأسرة القديم بل ويكثر من زيارته تاركًا القصر الذى يعيش فيه فى فكتوريا ؟ ترى ما الذى كان يشده إلى حى بحرى فى رشيد ويدفعه إلى هذا الانتماء النادر ؟ ترى هل تزوج وهل أنجب ؟ وهل أنفق كل ما يكسبه فى وجوه الخير حتى أصبح معدمًا أو شبه معدم - كما قال لى الحاج محمد شبابو ؟ لابد أن حياة هنداوى حافلة بالدوائر الناقصة وما أكبر الإغراء الذى تمثله للروائى ! ولقد

سبــق لى أن قلت إننى لم أجد مكانًا له فى أى مــن مسرحــياتى ، إذ مــا زال هنداوى صورةً تكتسى من جمال الشعر أكثــر مما تكتسى من صراع الدراما ، ويبدو أن يد القدر قد تدخلت هنا بأكثر مما هو 'مسموح به' فى الدراما .

٥

أحيانًا ما تبدو دوائر القدر محكمة دقيقــة ، وأحيانًا ما تبدو وكأنما تسير بلا منطق ولا غاية ، وكــان الرومان يصــورون القدر فى صــورة عجلة (تــسمى The Wheel of Fortune) تديرها فتــاة معصوبة العينين ، وهــى عجلة دائمة الدوران لا يعلو فيــها أحد حتى يهبط ، وذلك مستقى - بطبيعة الحال - من حياة الإنسان الفرد وهو ما كان الإمام الشافــعى يعنيه بالبــيت المشــهور (ما طار طيــر وارتفع . إلا كما طــار وقع) ، ويطبّقه المفكرون على ما يتجاوز الأفراد أو حال الإنســان الفرد ، أى ما قد ينطبق على الجماعة أو على نظام الحكم ، فالدورة تأتى بدولة ، والإبدال واضح بيــن الكلمتين ، أى إبدال الراء لامًا ، وكــذلك بيــن دار وثار ، وكلمــة (revolution) تعنى الدورة مثــلما تعنى الثــورة، والإبدال واضح بين دال وزال ، فالدولة تدول أى تزول ، وبيــن دال وحال ، فمــا يدول يحول ، ومعنى هذا كله أن الدورة تعنى التــغييــر لا العودة إلى أى نقطة من نقط البدايــة - كما ســبق أن ذكرت - وأن ذلك عــميق الجذور فى الفكــر الإنسانى ، ويورد ابن هشام فى سيــرته حادثة التشابك بالأيدى مع لبيــد الشاعر المخضــرم المعمَّر الذى أنشد بيته المشهور :

ألا كل شــيء ما خــلا الله باطــل   وكــل نعيـــم لا محــــالة زائــل

فوافقه أحد الحاضرين ممن اعتنقوا الإسلام على ما فى الشطر الأول ، لكنه اعترض على ما جاء فى الشطر الثانى قائلا ''إلا نعيم الله فإنه لا يزول أبدًا'' وهى حادثة طريفة كان من نتيجتها أن 'اخضرّت عينه' أى أنه تلقى لكمة على العين أحدثت كدمة (black eye) وهى تذكرنــا بأن فكرة الدوام كانت جديــدة إلى حد ما على أذهان بــعض العرب حينذاك ، مثلما كــانت غريبة على المسيحــيين الأوائل ، إذ يروى الرواة أن الامبراطور قسطنطين ، أول امبراطور رومانى يعتنق المسيحية ويجعلها الدين الرسمى للامبراطورية،

شعـر بالندم بعد أن قتل بعض أفراد أسـرته فلجأ إلى كبـير الكهنة فى قصره يسـأله ما العمل ، فاقـترح عليه الكاهن أن يغسل ذنـوبه بماء العماد ويرتدى أثوابًا بيـضاء، فهى أثواب التوبة الأبدية ويقول الرواة إن فكرة الأبدية أذهلت الامـبراطور فصمت لحظات ثم عاد يسأله عن معناها ، فقال الكاهن إن معناها عسير على ذهن الإنسان الفانى والأجدربه أن يقـبلهـا ولو دون فهم ، وأضـاف قـائلاً إن من معـانى الكلمـة ''ألاّ تدور علـيك الدوائر''وقد توقفت عند التـعبير لأنه يشبه الاسـتعمال العربى، والصـور العربية للدائرة (يتربصبه الدوائر- دارت عليه الدائرة- بل والتعبير العامى 'دارت الأيام عليك'!).

وقد مررت فى حـياتى بحالات عَجزَ الإنسان فيهـا عن الخروج من الدائرة ، وكان ذلك أحيانًا بلا منطق مفهوم – أى بمنطق لا يستطيع الإنسان أن يخضعه لقواعد التفكير المكتسبـة – وأقربها ما حدث لرجل أعـرفه وسأطلق عليه هنا صفـة الصديق وحسب ، وكان قد مـر فى فترة اليفـوع والشباب الأول بما يشبـه ما مرّ به صاحـبى الذى أخفيت اسمه (وأنا اتحدث عمّن تنبّه لوجود القناع فانتزعه) فلقد كافح هذا 'الصديق' أيضًا حتى حصل على الثانوية العامـة مع طلبة المنازل ، وانتسب إلى كلية نظرية ، ولم يرض أن يقضى حياته مغمـورًا فى وظيفة كتابية بمصلحة حكومية أو شبـه حكومية فسافر إلى بلد عربى شقيق لكنه لم يكن موظفًا بل شارك أحد أبنائها فى تجارة لم تلبث أن ازدهرت ، وكنت لا أراه إلا فى العطلات فى أواخر السبعينيات ، ومـا أكثر ما كنت أفرح وأبتهج وهو يحدثنى بجذل طفولى مـحبب عن المشروعات التى يقومان بهـا ، وكان قد أخفى تمامًا مبادئه الاشتراكية القديمة عن الجـميع (مثل صاحبنا) ، وأصبح يجد لذة غامرة فى السفر مع شريكه العربى المخلص فى طائرته الخاصة إلى بعض أملاك هذا الشريك فى أوروبا ، وقال لى ذات يوم إنه يدعونى للسفر معهـما فضحكت وقلت له إن السفر بهذه الطريقة يحرم الإنسان لـذة الإحساس بالسفر ، فإجراءات الجـوازات والجمارك والخروج من المطار مع المسـافرين طقوس تشعـر الإنسان بالانتقال إلى بلد آخـر ، فدهش وقال ''انت بقيت غاوى فقر ؟'' فضحكت ولم أجد ردًا .

وقرأت ذات يوم فى منتصف الثمانينيـات نعى الشريك العربى – شريك صديقى – فى الصحف ، فحدست أن ملكية الشركة سوف تؤول إليه ، لكنه لم تمض شهور حتى وجدته يتـصل بى تليفونيـا ، وكان رقم تليفون منزلنـا قد تغير – الأمـر الذى منعه من الاتصال قبل ذلك – ويقول إنه يريدنى لأمر هام . وعندمـا قابلته قال إنه فقد كل شىء بموت شريكه ، فالشركة كانت باسم الشـريك ، على نحو ما معمول به فى ذلك البلد الشقيق ، وأنه لم يعد يملك إلا الحساب الجارى فى البنك ، وهو لا يكفى للشروع فى

عمل تجارى على نفس المستوى السابق، لكنه لن يستسلم ، بل سوف يكافح من جديد للوقوف على قدميه مرة ثانية ، وسألته ماذا ينتوى أن يفعل ، فقال إنه سوف يقترض من أخويه ، فـهما كريمـان ولن يبخلا عليه بشىء ، وافـترقنا ، وانقطعت أخبـاره فترة ، وكنت أعرف أن والده كان قد ترك للأسرة دكان بقالة فى حى شعبى فى أعماق الجيزة، وكنت أزوره فيـه أيام أحلام الاشتراكـية ، وقبل أن تحلق الطيـور الجارحة للرأسمـالية العربية ، فـفكرت فى زيارة الدكان ، للسؤال عنه ، واستـرواح أنسام الماضى فى ذلك الحى الذى كان مرتع صبـانا أنا وسمير سرحان ، لكننى كنت أؤجل الـتنفيذ يومًا بعد يوم ، إلى أن ساقتنى المصادفـة إلى شخص يعرفه خير المعرفة ، وهو المـحامى سمير جمعة - صديق سمير سرحـان - وكنا نعزيه فى وفاة زوجته التى سقطت من الشرفة ، فسألتـه عنه ، وكنا فى منزله فى مدينة نصر ، فقال لى إنه قـد حُكم عليه بالسجن ظُلمًا فى قضية مخدرات ، وقلت له إن صديقى لم يقرب المخدرات ناهيك عن الاتجار فيها، فقـال لى المحامى إنه كـان مؤمنًا ببراءته وكـان ينصحه بأن يوكلـه للدفاع عنه ، ولكن صديقى رفض بعنـاد وقال إن المحكمـة لابد أن تكتشف أن التهـمة ملفقـة وأن البراءة مضـمونة ، وكانت النتـيجة أن مـحاميًا آخر - مـن ملاعين المـهنة - نجح فى إلصاق التهمـة به مقابل تبرئة موكله . وشـرح لى سمير جمعـة أن التهمة تنحصـر فى إخفاء حقائق وفى التواطؤ ولذلك فعقوبتها هينة .

كان الغموض الذى يحيط بمصير صـاحبنا دافعًا كافيًا لى على زيارة دكان الأسرة، أى متجر البـقالة القديم، فزرته واستمعت إلى رواية تفـصيلية عن الظروف المريرة التى أدت إلى القبض عليه وسجنه، من أخيه الأكبر إسماعيل، وحزنت حزنًا شديدًا، وظلت صورة الشـاب المكافح الذى كنت أعـرفه تلح على ذهنى، ثم شـغلنى مرضى وسـفرى للعلاج ، لكننى لم أتخل عن مشروع زيارة الدكان من جديد على أمل أن ألقاه، وأخيرًا وُفِّقت. وكان ذلك فى عام ١٩٩٦ وأنا فى طريق العودة ذات مساء من أكاديمية الفنون .

لم أصدق عينّى عنـدما رأيته ، فلقد بدا لى شيـخًا مهدمًا مطحونًا ، تكسـو وجهه الغضون ويتناثر الشيب فى لحيته غير الحليقة ويرتدى حلة قديمة فضفاضة تشى بالهزال الذى أصابه ، وكان يذكرنى - للوهلة الأولى - بهنداوى الذى لا تبرح صورته ذاكرتى، لكنه يختلف فى أنه كان قادرًا على الكلام ولا يزال متماسكًا رافع الرأس ، وكان ترحيبه بى يكتسى مرارة عميـقة أحسست أنها مرارة من خانته الحياة أو خـانته آماله ، وشعرت

بأن المسافة الزمنية التى تفصل بين هنداوى وبين صديقى لم تمنع من بروز أوجه شبه كثيرة - أهمها دائرة القدر - مع اختلاف مهم سأحكيه بإيجاز .

عندما خرج صديقى من السجن كان - حسبما يقول - ما زال على إيمانه العميق بالكفاح وضرورة مواصلة الحياة ، فعقد العزم على إحياء مشروعه القديم الذى كان قد أفلس ، ولم يجد أملاً له سوى ابنه الوحيد ، الذى كان يعيش مع جدته بعد تخلى زوجته عنه بالطلاق وزواجها من رجل آخر ، ووضع همه فى تلقينه أصول التجارة وغرس حب المخاطرة فيه ، ولم تمض شهور على خروجه من السجن (وكان قد خرج فى عام ١٩٩٣ وأنا بعد فى المستشفى) حتى أحس بأن الغلام أصبح قادرًا على العمل ، فوكل إليه قيادة الشاحنة ، وعاد يتردد على موقع مصنعه القديم فى طريق الهرم ، ويتصل بزبائنه القدامى ، فلاح الأمل من جديد فى نهضته من عثرته ، فأعاد تشغيل المصنع ، وصرّف بعض المخزون القديم من الطوب الطفلى ، وانطلق يسدد بعض ديونه تمهيدًا لإلغاء 'الإفلاس' ، فأحس بأنه بدأ يعود إلى الحياة من جديد ، لكنه لم يكد ينقضى عام واحد حتى توفى ابنه فجأة بمرضٍ مجهول . وكانت تلك هى الضربة القاضية . فلقد دفن مع ابنه كل أمل له فى مواصلة الحياة ، وعاد يقنع بموقعه فى الدكان، لا يأكل إلا لمامًا ولا يكاد يتحدث مع أحد ، وكان يعجب من أننى كنت لا أزال أذكره ، وشغلتنى الأيام بعد ذلك عنه ، لكننى عندما زرت الدكان فى عام ٢٠٠٠ علمت أنه قد توفى وأن أخاه إسماعيل باع الدكان لمالك آخر .

إننا نقف عاجزين أمام أمثال هذه الأحداث ، فكل ما يتجاوز الإرادة البشرية لا مكان له فى دنيا التحليل العقلى أو الفنى ، ومن ثَمّ فلا مكان له فى الآداب والفنون ، أو قل إن ذلك ما تعلمناه ، على نحو ما سوف أشرح ، فنحن نتأسى ونقول لا حول ولا قوة إلا بالله ثُمّ نتعمد نسيان الفاجعة أو الحادثة ، وقد يجد الشاعر مكانًا لها فى شعره ، مثل وردزورث الذى كان يصور وفاة الأطفال فى صور تربط الموت بالعودة إلى الله ، أو إلى الطبيعة التى تنبض بروح الله ، وقد يجد الروائى مكانًا لها فى نثره ، مثل توماس هاردى وغيره ممن أفسحوا للقدر مكانًا فى أعمالهم الأدبية ، ولكن الدراما الحديثة التى عُلّمناها هى فن الفعل الإرادى ، ولا مكان فيها لدوافع أخرى سوى دوافع البشر ، أى لا مكان فيها لدوائر القدر . ومع ذلك فإننى لا أملك إلا أن ألمح فى هذه الدوائر عناصر درامية من نوع أكمل وأشمل، أو قل من نوع آخر يختلف عما تعلمناه ،

لأن تراث الدراما الحديثة يقوم على مفاهيم عصر النهضة الأوروبية التى تضع الإنسان فى بؤرة الصورة، وتعلى من شأن العقل إلى حد تتـويجه ملكًا على سائر القوى فى الإنسان وفى الطبيعة، وهى من ثم تُحلّ الإرادة البشرية أرفع محل ، فلقد أصبح الإنسان فى نظر مفكرى عصر النهضة 'سيد مصيره'، ولقد نجح الأوروبيـون إلى حد بعيد فى تحـقيق ذلك فى الحياة المادية الملموسة، ودفعهم هذا النجاح إلى أن تصوروا أن الإنسان أصبح إلهًا جديدًا، وأن الأقدار خرافة ، إلا إذا قيل إن القدر أو المصير هو ما يصنعه الإنسان. وهكذا فإن للدراما الحديثة أسسًا فكرية قد نتفق مـعها وقد نختلف ، والحياة التى نحياها قد لا تشهد بصحة هذه الأسس وقد تشهد بصحة بعضها دون البعض الآخر .

وأذكر أننى عندمـا عدت من البعـثة الدراسيـة عام ١٩٧٥ ، كنت حريصًا - كـما ذكرت فى **واحات مصرية** - على إعـادة وصل ما انقطـع من علاقـات مع أصدقـائى ، وإقامـة علاقات مع من لم أكن أعـرف وكان من أقرب هؤلاء إلى قلبى مـدرس تعرفت عليه فى القسم يتميز بشفافية نفس نادرة ، وصفاء قلب خالص ، وكان يُسرُّ إلىّ بأسراره جميعًا ويأنس إلىّ وآنس له داخل القـسم ، فامتدت حبال الود بيننا ، وشهـدت كفاحه فى الحياة منذ أن عُيّن فى القسم مدرسًا للغة الانجليـزية (وهى درجة توازى درجة معيد) بعد أن تخرج وتفـوق فى دراسته ، وقص علىّ كيف لاقى من شظف العـيش الكثير فى صباه ، إذ لم يرض بالعمل اليدوى الذى استهل حـياته به، فحصل على الثانوية العامة والتحق بقـسم اللغة الانجليزية وظل يجمع بين العـمل وبين الدراسة حتى نال بغـيته ، ومن ثَمّ اجتهـد فحصل على المـاجستير فى عـلم اللغة (تحليل أزمنة الفعل فى العـامية المصرية) ثم سنحت له فـيما بعد فرصة الـسفر إلى إنجلترا لاستكمال رسـالة الدكتوراه فاغتنـمها ، وكنت دائم الصحـبة له قبل البعـثة ، وكان يطلعنى على مشكـلات حياته الخاصة ، خصوصًا الصعوبات المادية وكيف كان يستكمل دخله المحدود بتدريس اللغة الإنجليزية خـارج الجامعة ، وسأتوقف هنا عـند محطة غريبة من محـطات حياته - ولا يعرفها إلا أقرب المقربين إليه .

ساقت إليه المصادفة رجل أعمال ليبى ، ولم يكن يريد دروس الإنجليزية لنفسه بل لزوجته 'سيدة المجتمع' ، وهى مصرية تزعم لنفـسها كرم المحتد وعـراقة الأصل كما كانت تصر على نشر صـورتها أسبوعيًا فى بعض المجلات فى سـياق الإعلان عن أنباء أعمال الـخير التى تنسبـها لنفسهـا وأهمها أنباء التـبرعات النقدية والعـينية للجمـعيات

الخيرية والأفراد من المعوزين ، وقيل إن زوجها الليبى لم يكن يبخل عليها بشىء ، بل قيل إنه كان يبسط يده كل البسط ، وسألنى صديقى بعد نحو شهر من الدروس عما عساه أن يطلبه من أجر على ذلك فلم أجد لدىّ إجابة حاضرة ، فأجر التدريس فى الجامعة لا يقاس عليه ، وكان يتراوح آنذاك بين ثمانين قرشًا للساعة (كحد أدنى لأى مدرس) وبين نسبة ٢٪ من المرتب الأصلى للدرجات الأعلى ، وطلبت منه أن ينتظر تقدير الرجل ، فهو معطاء سخى حسبما يقال ، ولكن الانتظار طال ، ومضت ثلاثة أشهر دون أن يتقاضى صديقى شيئًا فسألنى عما ينبغى فعله وكنت حاسمًا هذه المرة فنصحته بأن يطالب بحقه كاملاً وألا يتهاون فى ذلك ، والغريب أن الزوج الذى كان يسمح لزوجته بالظهور فى 'المجتمع' وحضور الحفلات ونشر صورها كان يغار عليها غيرة شديدة ، فكان يحضر دروس اللغة الإنجليزية ، ويقاطع صديقى أحيانًا ليسأله عن معنى عبارة ما خشية أن يكون فيها إلماح أو تلويح بشىء غير مقبول ، وكان صديقى صبورًا هادئ الأعصاب فكان يترجم له كل شىء ، وكثيرًا ما كان يلجأ إلىّ كى أترجم له ما لم يستطع ترجمته ، وكان صديقى يضيق - بطبيعة الحال - بتدخل الزوج الغيور وإفتائه فيما لا يعرف من اللغة الإنجليزية ، خصوصًا أنه كان يطالب صديقى بإضافة وقت إلى زمن الحصة يوازى الوقت الذى استغرقه فى التدخل (مثل الوقت الضائع فى كرة القدم injury time) ووجد صديقى ذلك مسليًا فلم يعترض ، وعندما سألته إذا كان قد طالب بأجر الدروس قال إنه استحى أن يفعل ذلك بصورة مباشرة ، بل كلّف صديقةً لسيدة المجتمع بأن تثير معها الموضوع، وكانت هذه الصديقة فلسطينية الأصل أردنية الجنسية وتكثر من التردد على القسم لدينا للاطلاع على المراجع فى مكتبة القسم المتواضعة ومكتبة الجامعة الزاخرة ، وقد شاهدتها وحادثتها عدة مرات دون أن أفتح معها الموضوع - طبعًا - ولكن صديقى كان يطلعنى على التطورات أولاً بأول .

وكان من ثمار جهود الصديقة أن اتفقت 'سيدة المجتمع' مع زوجها على تقديم سيارة مستعملة يابانية الصنع إلى صديقى سدادًا لأجر الدروس ، ولم يعترض صديقى إذ كان يتطلع إلى الحصول على أى أجر ، وكان يعد العدة للسفر ليستكمل دراسته العليا ويحتاج إلى المال أكثر من أى وقت مضى ، خصوصًا بعد أن ترك زوجته الأولى وترك معها ابنه ، واستأجر شقة أخرى استقر فيها مع زوجته الجديدة . وكان صديقى يُسرّ إلىّ بأن ذلك كان لأسباب قاهرة ، ولم أشأ أن أعرف المزيد ، لكننى كنت أعجب

لسلوك 'سيدة المجتمع' - 'صاحبة الأيادى البيضاء' على المعوزين - وزوجها الذى اشتهر بسخائه وكرمه ، وهما يماطلانه فى دفع أجر الدروس ، ثم يقدمان إليه سيارة قديمة لا يغنى ثمنها (مهما يكن تفاؤلنا) بأجر الدروس التى كانت تستغرق من صديقى ساعات كثيرة - بل أكثر مما يقضيه فى الكلية ، ووجدتنى أصارحه ذات يوم بضرورة ترك تلك الدروس والتفرغ لبحثه الأكاديمى ، فوافقنى وأفضى إلىّ - فى ساعة صفاء - ببعض أسرار أعمال الخير المزعومة ، إذ اكتشف بمحض المصادفة أن نشر الصور فى المجلات كان فعليًا 'إعلانات' مدفوعة الأجر ، وأن 'الحفلات الخيرية' كانت فى الحقيقة مناسبات لعقد الصفقات المريبة والمستترة بستار الانفتاح الاقتصادى ، وقال إنه يظن أن بعض أصدقاء الزوج كانوا من التجار الذين يتفننون فى إدخال البضائع الأجنبية إلى مصر برًا ، وربما دون دفع الرسوم الجمركية - كلها أو بعضها - وقال إنه ينتوى الإقلاع عن هذه الدروس لكنه لا يزال يأمل أن ينال أجره كاملاً ما دامت الأسرة بهذا الثراء . وحَدَسْتُ أنه يخشى أن يتلاشى ذلك الأمل لو توقف ، فلم أقل المزيد ، ولم تمض أيام على هذا الحوار حتى علمت منه ، عَرَضًا ، وكأنما لم يكن يُفضى إلىّ بسر مهم ، أن الزوج الليبى - رجل الأعمال الكبير - قد توفى .

والتزم صديقى الصمت إزاء هذا الموضوع أسبوعًا أو أكثر ، واحترمت صمته إزاء جلال الموت لكننى كنت أريد المعرفة ، فسألت الأردنية صديقة الزوجة أن تطلعنى على الأخبار لكنها التزمت الصمت هى الأخرى ثم اختفت . واغتنمت فرصة خلوة سنحت فى غرفة الأساتذة ، وسألته عن سر الحزن الذى يتملكه فسرح ببصره من الشباك كأنما يتطلع إلى السماء ثم واجهنى وتساءل فيما يشبه التأمل الحائر 'ما كُنْه الموت ؟' ودُهِشْتُ ووَجِمْتُ . فعاد يقول 'لقد كان الرجل فى صدر شبابه ، وكان ممتلئًا قوة وحيَوية' . وقلت له إن الأعمار بيد الله ، ولكننى لاحظت أن وفاة الرجل صدمته صدمة أقوى من احتماله ، فحاولت تغيير الموضوع وقلت - كأنما بلا اهتمام - "لكن دفع لك كل حاجة ؟" فابتسم لأول مرة منذ أن جلسنا معًا وقال إن الرجل كان قد كتب شيكًا بالمبلغ كله فى اليوم السابق لموته ووعده بأن يأتى بالنقود من البنك فى اليوم التالى ، وقال إنه طلب منه تسليمه الشيك لكنه أصر على تسليمه المال نقدًا وَعَدًا ، وقالت الزوجة التى كانت شاهدة على هذا الحوار إن تأخير يوم لن يؤثر فى المبلغ ، وقال إن التاجر أكد له أنه وحده الذى يستطيع صرف الشيك ، وعاد صديقى إلى النظر من الشباك فعلمت أن ذلك أقصى ما كتب لى أن أعرفه عن هذا الموضوع ، وحدست أن الشيك من الشيكات المقفولة (a crossed cheque) وطرحت الموضوع جانبًا .

وكاد النسيـان أن يطوى هذه المحطة من محطات حيـاة صديقى لولا أن علمت بأن الموت كـان على موعد آخـر معه ، إذ عندمـا عدت من باريس ، بعد الجـراحات التى يسرّها الله لى فشُفيت بفـضله وكرمه من المرض اللعين ، سمـعت أن صديقى المذكور قد توفى ، وقيل إنه لقى حتـفه فى حادث سيارة راحت ضحيته زوجـته (الجديدة) وابنته أيضًا (ونجا ابنه) . حادث سـيارة ؟ وتذكرت أنه عندما عاد من انـجلترا ، فى منتصف الثمانينيات ، اشترى سيارة 'سيات' من نوع 'باندا' ، وهى خفيفة لا تزيد قوة محركها عن ٩٥٠ س س، وأنه كان يسـافر بها إلى العـريش لتدريس اللغة الانجليـزية فى كلية مـا، وأنها انقلبت به ذات مـرة لكنه نجـا والحمـد لله ، ولذلك تصورت أن الحـادثة الأخيـرة كانت بسبب تلك السـيارة ، ولكننى علمت من صـديقى الدكتور مـحمد عـبد العاطى أن سيـارة الحادثة كانت 'لادا' (روسية مـتينة راسخة) وأن سـائقًا أرعن لسيارة شحـن بمقطـورة قد دهسـها قبيل موعد الافطار فى رمضان فى أحد طرق مدينة ٦ أكتوبر حيث كان صديقى قد بنى لنفسه منزلاً بما ادخره من نقود من سنوات الإعارة فى إحدى البلدان العربية الشقيقة . وقال لى الدكتور محمد إنهما كانا معًا قبل ذلك بأسبوع لقضاء سهرة رمـضانية فى حى سيـدنا الحسين، وأن صديقى التفت إلـى الدكتور محمـد فجأة وهمـا فى السيـارة وسأله السـؤال الذى كان قـد طرحه علىّ قـبل سنوات 'ما الموت؟' وأضاف إنهما صلّيا الفـجر معًا فى مسجد الحسين *، وإنه كـان على موعد معه فى يوم وفاته، وإنه ما زال يؤنب نفسه لأن حرص صديقى على الوفاء بالموعد تسبب فى وفاته



كان من أسباب جاذبية صـورة الدائرة فى نظرى فى دلالتها على الكمال الذى لا نهاية له ، فهو كمال مستمر لا يتوقف أبدًا ، فـقوس الدائرة مستمر - تعريفًا - وفى استمراره يكمن جوهر الدوام ، تلك الفـكرة العصية على أذهان البـشر الذين يقيـسون كل شىء بمنطق الحياة الـبشرية التى يحدها الموت على الأرض ، أى يضع لـها نهاية منظورة ، وقـد يكون افتـتانى بهـذه الدائرة قـد بدأ فى المراهقـة الأولى (teenage) واستـمر فى المراهقة الثانية (adolescence) عندما أحسست مثل الشاعر وردزورث بأن قوس الوجود البشرى الذى يـمتد مثل مدار الشـمس الظاهرى من الشرق إلى الغرب لابد أن يسـتمر

فيمتد من الغـرب إلى الشرق أيضًا فى مكان مـا لا تدركه الأبصـار ، وإن كان اللـه قد أمدنا بما يكفى من الطاقـة الذهنية لتصوره ، وكانت مـشاهد الطفولة الأولى فى الريف تفصح عن إحسـاس يستعصى على التعبـير اللغوى بأن ما تراه عين البصـر قد رأته عين البصـيرة قبل ذلك ، وعندما قـرأت فى المراهقة قـصيدة وردزورث المسـماة ''خاطرات الخلود المستوحاة من ذكريات عهد الطفولة الأول'' أحسست أن الشاعر أبدع فى تصوير ما طاف بخاطرى ، وربما مـا يطوف بخاطر كل من هم فى سنّى وإن لم يعبروا عنه ، من شـعور بأن الوجـود دائرى ، أى أن أرواحنا التى بثـها الله فـينا (﴿ **وَنَفَخَ فِيـهِ مِن رُّوحِهِ** ﴾ - السجدة - ٩) قد سـبق لها الوجود عند اللـه ، وأن ما كنت أنسبـه إلى عين البصيـرة يجوز أن ينسب إلى عين الروح ، فإذا استطعنا تصـور ذلك الوجود السابق ، على عُسر ذلك التـصور ، كـان من المحتـوم أن نحاول تصور الـوجود اللاحق ، وهو وجود روحى قد يكون من المـحال تصوره أو تصويره ، لأن حواسنا لم تعـتد الخروج عن الكيانات المادية التى تفرض نفسها لـيلاً ونهارًا عليها ، ولابد فى هذه المحاولة من اللجوء إلى الاستعارة والصور الشعرية ، وعندما قرأت 'يونج' فى المراهقة الثانية انضم صوت العقل إلى صـوت الإحساس ، فإذا كـان الله قد ركّب فى النفس نمطًا فطريًا هو نمط الدائرة ، فلابد أن الغـرض من ذلك هو مساعـدة الإنسان على تنميـة إدراكه لدائرة الوجود ، ولم أشغل نفسى آنذاك بالفكر الـفلسفى - وهو الذى يلغى دور الإحساس فى عمل العقل ، ويصر على التجريد المرهق لقوى العقل المنطقية - بل اكتفيت بما كنت أشاهد فى الحياة من دوائر متتالية ، رويت بعضها هنا فيما رويت ، وعندما أتيح لى أن أطلع فى انجلتـرا على المنهج العلمى - أى منهج العلوم الطبـيعيـة - فى تفسيـر عمل النفس ، وقـد تختلف النفس هنا عن الروح ، بدأت أدرك أن الإنـسان قد بدأ يكـتشف بعض أسرار خلق الله ، فالروح غيب مطلق ولغز لا حل له ، وأما النفس فهى تمثل - على ما فيها من 'أمر الروح' - جماع الطاقات البشرية (أى التى يشـترك فيها الإنسان مع الأحياء) والإنسانية (أى التى يختلف فيها الإنسان عن سائر الأحياء) وأهمها البصيرة القادرة وحدها على هـداية الإنسان إلى حدس دورة الوجود ، ولكننى سـأبدأ بإيراد فقرة من قصيدة وردزورث المـشار إليها فى ترجمة عربيـة (منظومة) . وسوف أرجئ التعليق عليها ، وعلى حواشى الشاعر على مـا جاء فى هذه الفقرة - وهى الحواشى التى أملاها فى شيـخوختـه على الآنسة إيزابيـلا فينيك (Isabella Fenwick) وأصبـحت تعرف بحواشى فينيك - إلى ما بعد قراءة الترجمة العربية .

يقول وردزورث :

ما مولد الإنسان إلا غفوةٌ
نومٌ ونسيانْ
فروحه - تلك التى قد أشرقتْ معه -
(شمس حياة الإنسانْ)
كانت قبيل بزوغها قد غربتْ
وأقبلتْ
من موقع ناء قصىّ
لكنها لم تنس كل شىء
كلا ولا تجردتْ
من كل ما عرفته من رواء
إذ إننا نأتى وفى أذيالنا سحب البهاء
نأتى من الله الذى هو بيتنا
إن السماء قريبة منا نراها حولنا
ونحن أطفال صغار
وكلما شب الصبىّ
بدأت ظلال السجن تحكم حوله طوق الحصار
لكنه قد يشهد الأنوار
وحيثما انسابت رأى فيها الفرح
واليافع الذى عليه أن يواصل الرحيل
كل يوم موليًا للشرق ظهره
يظل كاهن الطبيعة
وحوله رؤيا السناء فى طريق رحلته
ثم تخبو هذه الرؤيا
آخر الأمر بعين الرجلِ
ويراها تتلاشى فى نهار البشرِ !

والواضح أننى سمحت لنفسى بالمزج بين بعض البحور المتداخلة إيقاعًا ، مثل الكامل والرجز، على نحو ما أوضحت فى كتابى **الترجمة الأدبية** (١٩٩٧) أو المتداخلة فى إحدى دوائر الخليل ، مثل دائرة الرجز والرمل والهزج، وأبحت لنفسى تنويع القافية أو طرحها، وهذا كله مما سمح به الشاعر لنفسه وأباحه، وليس من المعقول أن يفرض المترجم على نفسه قيودًا لم يفرضها مؤلف النص الأصلى،لكننى التزمت بالمعنى التزامًا دقيقًا وبالألفاظ الأساسية نفسها ولم أزد إلا ما اقتضاه فهمى للمعنى أو قل تفسيرى للنص الشعرى. وأما حاشية 'فينيك' فسوف تلقى بعض الضوء على فكر الشاعر وتوضح ما أعنيه بالدائرة -موضوع هذا الفصل-ولذلك فسوف أورد الفقرة التى ذاع اقتطافها منها بالانجليزية للتدليل على ما يسمى بتداخل عين الرائى مع المرئى أو الذات والموضوع بلغة الفلاسفة بل وبتمازجهما أى (The coalescence of subject and object) وهو ما شاعت نسبته إلى كولريدج ، وللتدليل كذلك على أن الشاعر يستعمل صورة الوجود الروحى السابق للوجود المادى بمثابة استعارة وحسب لا باعتبارها دليلاً على إيمان بالفكرة ، سواء نسبت إلى أفلاطون أو إلى الفكر الهندى، وهو ما يعرفه العامة باسم تناسخ الأرواح (the transmigration of souls) ويشير إليه الشاعر باسم الوجود السابق وحسب (pre-existence) والغريب أن جميع من يوردون هذا المقتطف بالانجليزية يبدأونه من منتصف الجملة والحق أن العبارة المحذوفة لا تعنى الكثير،ولذلك فسوف أحذفها أنا أيضًا ! هذه إذن هى الفقرة المهمة من'حاشية فينيك' :

يقول وردزورث :

"كثيرًا ما كنت أعجز عن تصور الأشياء الظاهرة فى صورة أشياء ذات وجود خارجى ، بل كنت أتواصل مع كل شىء أراه لا باعتباره شيئًا منفصلا عنى ، بل كأنما له وجود راسخ فى طبيعتى غير المادية [immaterial nature] . وكم من مرة توقفت أثناء ذهابى إلى المدرسة لأمسك بجدار أو بشجرة حتى أسترجع ذاتى من هوّة المثالية [أى الوهم، وهى هنا idealism] إلى الواقع . وكنت فى ذلك الوقت أخاف ذلك وأخشاه ، وأما حين تقدّمَ بى العمر فلقد أصبحت آسف ، مثلما نأسف جميعًا ، بسبب الخضوع لما هو نقيض ذلك ، وكنت أفرح بذكريات معينة ، وهى التى عبرت عنها فى الأبيات التالية :

بل أشكر أسئلة صماء عنيدة

مما يطرحه الحس

أو يمثل خارج هذى النفس

أسئلة تسّاقط منا بل تتلاشى . . إلخ .

وأعتقد أن كـل إنسان يستطيع إذا تذكّر الماضى أن يشهد بمـا كان يكسو الأشياء الظاهرة للعين فى طفولته من نضـرة وبهاء يشبهان نضرة الأحلام وبهاءها ، ولذلك فلا أجد ما يدعونى إلى الإفاضة فى ذلك هنا ، لكننى لما كنت قد افترضت فى القصيدة أن ذلك دليل على حالة وجود سابق ، فأظن أنه من الصواب أن أعـترض على ما انتهى إليـه البعض ، وما آلم بعض الاتقياء والورعين، من الظن بأننى قصدت إلى غرس تلك العقيدة، فالفكرة غائـمة إلى الحد الذى يحول دون الدعوة إلـى الإيمان بها ، إلا باعتبارها عنصرًا من عناصـر إحساسنا الغريزى بالخلود . ولكن علينا أن نذكر أن الكتب المقدسة لا تتضمن ما ينفيها أو يناقضها ، وإن لم تنص عليها ، كـما أن سقوط الإنسـان يتضمن - استنادًا إلى منطـق القياس - ترجيحًا لها . وهكذا دخلت فكرة الوجود السابق إلى العقائد الشائعة عند أمم كثيرة ، كما يعلم جميع الملمين بالآداب الكلاسيكية أنها من عناصر الفلسفة الأفلاطونية . وكان أرخميدس يقول إنه يستطيع أن يحرك (يرفع) العالم (الأرض) لو عـثر على نقطة ارتكاز لآلته (رافعـته) ، ومن ذا الذى لم يستشعر ذلك الأمل نفسه فـيما يتعلق بعالم ذهنه ؟ ولما كان علىّ أن أتناول بعض عنـاصرها عـندما دفـعنـى الدافع الداخلى على كـتـابة هذه القصيدة عن ''خلود الروح'' فلقد تعرضت لفكرة الوجـود السابق لأن لها من الأسس الراسخـة فى طبيـعة الإنسان مـا يخوّل لى أن أنتـفع بها فى شعرى خير انتفاع ، تحقيقًا لغايتى الشعرية'' .

(من طبعة أكسفورد المنقحة)

هذا هو ما قـاله وردزورث ، وقد أوردته لظنى أنه لم يتـرجم إلى العربيـة من قبل ولن أستطيع الإشارة إليه مثلما أشيـر إلى ما هو مترجم ، ولظنى أنه سوف يلقى الضوء على فكرة الدائرة فى الشعر ، من خلال ربط الوجـود السابق بالخلود ، لأن دورة الحياة

المرئيـة على ظهر الأرض لا تكتمل إلا إذا امتـدت فى الزمن فتجـاوزت البداية الظاهرة وتخطت النهاية الظاهرة ، وما يشير إليه الشـاعر من أن فكرة الوجود السابق على الحياة الأرضية قد دخلت إلى العـقائد الشائعة عند أمم كثيرة ، قد يتـضمن الإشارة إلى عقائد أهل الهند والصين ، أو مـا يسمى بالبوذية بأشكالهـا المتعددة ، وهو مـا أرانى مضطرًا إلى إيضاح بعض حقائقـه ، خصوصًا بعد قراءتى كتابًا أصدرته كـارين آرمسترونج عام ٢٠٠١ عن "بوذا" ، وقضـيت فى قراءته أيامًا طويلة محـاولاً استيعـاب ذلك المذهب الغامض بتفريـعاته التى لا تكاد تحصر . وعندما انتهـيت - أو ظننت أننى انتهيت من البوذية (التى خيبت آمالى) وجهت اهتمامى للأديان الهندية الأخرى حيث وجدت صورًا مخـتلفة لدائرة الوجود ، وسـوف أوجز هنا ما خـرجت به من قراءاتى ويتـصل اتصالاً مباشرًا بموضوع هذا الفصل .

سألت صديقى الدكـتور ماهر شفـيق فريد عما إذا كان البـاحثون العرب قد كـتبوا كتبًا فى البوذية ، فهو مرجـعى فى هذا الباب وغيره ، ولا أظن أن أحدًا من جيلنا يعلم علمه أو يقـرأ قراءته ، فقـال لى إن هناك كتـابًا واحدًا وضعـه الدكتور فـؤاد شبل عن البوذية، لكنه غير مـتاح حاليًا ، ولا أعلم أين نشر ، وسألت صديقى المسـتشار أحمد السودة فقال لى إن العقاد أشار إلى البوذية وشرحها عَرَضًا فى بعض كتبه ، ومن ثم لم أجد أمامى إلا أن أنشد مـا كتبه الغربيون ، وإن كانوا يدينـون - مثلنا - بدين سماوى يحول فى رأى كارين آرمـسترونج دون التعاطف (ومن ثم دون الـتفهم الكامل) للأديان غير السماوية . وخلاصة ما انتهـيت إليه هو أن الأديان الشرقية غير السماوية التى تؤمن بتناسخ الأرواح - وهو مـا يهمـنا هنا - تكاد تنحصـر فى الأديان الآسـيوية الأربعـة : الهندوسـية (Hinduism) والجـانيـة (Jainism) والبـوذية (Buddhism) والسيـخية (Sikhism) وأما التناسخ نفـسه فله مصطلحـاته المحددة ، وكـان لابد لى من رصدها وتحديدها ، فأما التناسخ نفسه فهو يسمى علميًا (reincarnation) أى الحلول ثانيًا فى جسد جديد ، ويشـار إليه بالتعبير الشـائع الذى سبق لى ذكره وهو (transmigration of souls) أو بـلـفـظـة (metempsychosis) والأدق أن تـكـون الـلـفـظـة (metensomatosis) ومـعـناها تغـيـير الأجـسـاد ، واللفظـة اليـونانيـة له هى (palingenesis) أى أن يكتـسب المـرء أصـلاً جـديـدًا ، أى أن يولد من جـديد . وخلاصـة ذلك فى الأديان الأربعة هو ما يسـمى بمذهب 'العلل' (أو Karman) أو العلة والمعلول ، بمعنى أن ما يفـعله الإنسان فى هذه الدنيا - أى أثناء وجوده الآنى - سوف يؤثر فى وجوده التالى ، فالهندوسية تقول بأن عملية الميلاد والميلاد الجديد (أى

تناسخ الأرواح) عملية لا نهائية ، ويمكن أن تستمر إلى الأبد إلا إذا نجح المرء فى تحقيق الخلاص لنفسه (moksa) من خلال إدراك الحقيقة التى تحرر ذاته من نير الدنيا، وعندها تعود روح الفرد أو نفسه (Atman) إلى المطلق ، الروح أو النفس المطلقة (Brahman) فتتحد مع المطلق ولا ترجع إلى الدنيا ، أى أن بإمكان الفرد أن يكسر عجلة الميلاد والميلاد الجديد (Samsara) بإرادته ، من خلال التحكم فى فعاله والبحث الدائم عن الحقيقة . وتقول **''الجانية''** إن هناك روحًا مطلقة فى الإنسان ، وهى روح دائمة خالدة ، وأن للإنسان أن يرقى بها عن طريق الأعمال الصالحة ، وأن يضيف فى كل حياة يحياها 'عللاً' جديدة تبرر ارتقاءه سلم الموجودات (الأحياء) حتى يستطيع آخر الأمر (عن طريق الانضباط الدينى ، وأهم عنصر فيه هو نبذ العنف ، أى المسالمة الكاملة مع الأحياء) أن يتحرر بمعنى اعتلاء أرفع درجات الوجود فى الكون .

وهكذا تشترك الهندوسية مع ''الجانية'' فى الإيمان بوجود روح أو نفس - أى كيان غير مادى ، ينشد التطهر باستمرار من أدران الحياة المادية (الجسدية) فى الدنيا ، لكنه خالد وما يفتأ يعود إلى الأرض وإن اختلفت الصور التى يحل فيها ، وأما البوذية فتنكر وجود مثل هذه النفس الثابتة ذات الوجود المحسوس ، لكنها تؤمن بنوع غريب من التناسخ (transmigration) يختص بانتقال العلل فحسب ، ويعتمد تصور هذا المذهب العسير الذى أحاول تبسيطه قدر الطاقة ، على قبول فكرة غير مألوفة وهى أن للنفس خمس طاقات أو جوانب أو حالات تتغير باستمرار من لحظة لأخرى (Skandas) وتشكل مُركّبًا خاصًا متميزًا فى كل فرد ، وهى الجسد ، والأحاسيس ، والمدركات ، والنوازع ، والوعى ، وأن الإنسان يستطيع إذا اجتهد أن ينجح فى تحقيق فناء هذا المُركّب ، لكن فناء المُركّب لا يستتبع فناء 'العلل' ، فهى باقية أبدًا ، وهى تنتقل من المتوفى إلى مُركّب جديد فى رحم امرأة أخرى ، ويقتصر هذا الانتقال على ''بذرة الوعى'' (vijnana) وهكذا تصبح بذرة الوعى العنصر الوحيد من عناصر النفس الذى يولد من جديد أو يحل من جديد فى فرد جديد . ولا يأتى الخلاص إلا بالقضاء على جميع الرغبات والشهوات التى تعمل على إقرار ''توهم وجود ذات دائمة ثابتة'' ، ويكون ذلك بتحقيق حالة من السلبية الكاملة عن طريق الانضباط والتأمل ، وهكذا ينجو الإنسان من عجلة الميلاد فالموت فالميلاد من جديد ، ولكن هذا لا يتحقق عن طريق ما يسمى نيرْفانا (Nirvana) وهى كلمة باللغة السنسكريتية (أى باللغة الهندية القديمة) وتعنى النورانية (enlightenment)ولكن عن طريق ما يسمى پارينيرْفانا(Parinirvana)أو النورانية النهائية، وسوف أتوقف هنا لأوضح الفارق بين هذين المفهومين العسيرين .

اخـتلط الأمر على الكثـيريـن عندما تُرجِمتْ الكلمـة الهندية بكلمـة أوروبية شـاع إطلاقها على حركـة التنوير الأوروبية ، أى حركة إعلاء شأن العـقل الإنسانى وتتويجه ملكًا على الطاقات البشرية ، وحـركة الفصل بين الدين والعلم ، وبين الدين والدولة ، وما إلى هذا بسبيل (وهو مشهور ومـعروف) كما اختلط الأمر علينا أيضًا ، لأننا ترجمنا الكلمة الأوروبية ولم نترجم الكلمة الهندية ، ولهـذا اختلط المعنى العربى حتى كاد أن يصبح عكس المـقصود ، ولذلك حرصتُ هنا على استـخدام كلمة النورانية ترجـمةً لها بسبب دلالتها على انفتاح النفس على النور (فى الأديان السمـاوية) أو اكتسابها خصيصة النور الأولى وهى السطوع والانطفاء (فى البوذية). فالبوذى يكافح جوانب النفس الخمسة التى سبق ذكرها حتى يصل إلى القضاء على الذات، أى إن كـفاحه النورانى كفاح ضد جوانب وجوده الأرضى، فـإذا اكتسب صفة النور عرف الـطريق إلى إطفائه ، وعليه من ثَمّ أن يواصل السيـر فى هذا الطريق حتى يصل إلى الفناء، وهو النورانية الأخـيرة، إذ ينجو عندها من عجلة الحـياة - أو دائرة الحياة (موضوع هذا الفصل) فـينتهى فى تصوره وجوده إلى الأبد. ولهذا تتولى كارين آرمسترونج- فى كتابها المشار إليه- إيضاح الفارق بين كلمتين تـوردهما بلغة پالى (Pali) وهى اللغة الأصليـة التى كتبت بهـا النصوص البوذية القديمة، ثم تورد مقابلاتها بالسنسكريتية ، أما الكلمة الأولى فهى نيزانا:

Nibbana : "Extinction : blowing out" the extinction of self which brings enlightenment and liberation from pain (dukkha) Sanskrit : Nirvana.

وترجمـة ذلك : نيبانـا - القضاء على الذات أو إطفـاؤها وتعنى إفناء الذات الذى يأتى بالنورانية والتحرر من الألم (دوكا) . نيزانا بالسنسكريتية .

والكلمة الثانية هى :

Parinibbana : The "Final Nibbana"; the final rest of an enlightened person achieved at death, since he or she will not be born into another existence.

وترجمتها: بارى نيـبانا- النيبانا النهائية وتعنى الراحة النهـائية لمن حقق النورانية، وذلك عند الموت، لأن هذا الشخص لن يولد من جـديد فيكون له وجود آخر .

ولكن البوذية لا تقــول بأن ذلك متاح للجــميع ، فما أندر فى أعــين البوذيين من يستطيعون تحقيق المثل الأعلى لديهم ، وهو الفناء وكسر دائرة الوجود ، فلقد ورثوا من الأديان الهندية فكرة التناسخ ، وحتى لو قصروها على 'العلل' فإنهم يقرون بها ضمنًا، وهم يسلمون بأن الأغلبية لا تستطيع تحقيق النورانية ، وإن حققت النورانية الأولى فربما لم ينجح إلا القليل فى تحقيق النورانية النهائية ! ولذلك فأغلب الناس يكابدون الحياة، والحيــاة عند البوذى عناء خــالص ، وعبء يتضح فيــما رصدوه مــن جوانب النفس ، ومثلهم الأعلى إذن هو محاربة العناء ولو على مراحل قد لا توصل إلى الراحة النهائية !

وأما ديانة السيخ (الســيخية) ففــيها لمحة من الأديان الســماوية ، ألا وهى الإيمان بالبعث ويوم الحساب، ولكنها فى جوهرها تقوم على فكرة تناسخ الأرواح ، وقد أسسها زعيم دينى هندى فى القرن السادس عشر يدعى "جورو ناناك" (وقد أصبح اسمه الأول يعنى الزعيم الروحى باللغــة الانجليزية الحديثة) وهى تقــول بأن الأرواح التى تنوسخت سوف تندمج يوم الحساب فى روح الله . أى إن الســيخية هى الدين الوحيد الذى يذكر الله صراحة ، ويجعل دورة الحياة جزءًا من التصور العام لفكرة الدورة الكونية .

وهكذا نرى أن الأديان الشرقية الرئيســية ، وهى أديان يدين بها آلاف الملايين فى الهند والصــين وجنوب شرقى آســيا وجنوبهــا ، تقر صــراحةً أو ضمنًا بدائــرة الوجود الروحى ، فإذا ذكرنا أنها جميعًا أديان غــير منزّلة ، أى غير سماوية ، وجدنا أن فطرة الإنسان هى التى أوحت بصورة تلك الدائرة ، والفطرة قد تســتعين بالحدس القائم على التأمل ، أو على الإحــساس الطبيــعى الذى لم تتدخل التعــاليم الدينية أو الفلسفــية أو العلميــة فى تشكيله ، وهو لذلك مؤشــر صادق لإحــساس الإنسان ، حــتى دون كتب منزلة، بصــورة الدائرة ، والغــريب أن البوذية الــصادقــة التى تســعى إلى كســر الدائرة وتحقيق الفناء تقر إقرارًا صريحًا بأن ذلك المطلب شبــه محال ، وبأن تحقيقه مثل أعلى يسعــى إليه الإنسان ولــكنه نادرًا ما يناله ، وكــان بوذا الكبيــر (البوذا ســيداتا جــوداما) يغضب من تلامــيذه حين يزعــمون أنهم وصلوا إلى النيزــانا ، ويصر على أنها جــهد مستمر وقد لا يصل بممارسها إلى البارينيزانا (أى الخلاص النهائى) أبدًا !



الفصل الرابع



بدأ عام ٢٠٠١ بداية تبشر بالخير، إذ فازت ترجمتنا - الدكتورة فاطمة نصر وأنا- لكتاب **معارك فى سبيل الإله : الأصولية فى اليهودية والمسيحية والإسلام** بجائزة معرض القاهرة الدولى للكتاب، وأُعلن أنه أفضل كتاب مترجم فى عام ٢٠٠٠، وذهب كلانا إلى حفل افتتاح المعرض، وصافحت السيد رئيس الجمهورية للمرة الرابعة، وكانت المرة الأولى عام ١٩٨٦حين تسلمت منه وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى، والثانية والثالثة فى مطلع ١٩٩٤ ومطلع ١٩٩٧ لتسلم جائزتى معرض الكتاب عن أحسن كتاب مترجم **(روميو وجولييت)** فى عام ١٩٩٣، وأفضل كتاب فى النقد الأدبى **(المصطلحات الأدبية الحديثة)** فى عام ١٩٩٦، وأما جائزة الدولة للتفوق فى الآداب عام ١٩٩٩ فلم يصحبها حفل تكريم رسمى، ولكن مطلع عام ٢٠٠١ كان مشرقًا، فأحسست أن ما أسميته نهاية 'العمر الرسمى' لم تكن نهاية بالمعنى الذى 'قهرنى' طيلة العام الدراسى ١٩٩٩ - ٢٠٠٠، وشحذت الهمة لمواصلة العمل بعد تلك الجائزة الأخيرة، فما إن تماثلت للشفاء من جراحة العين التى أجراها لى العبقرى الدكتور ممتاز حجازى فى ديسمبر ٢٠٠٠ حتى بدأت الاستعداد للانتهاء من المشروعات الأدبية الناقصة، وكان على رأسها استكمال ترجمة **الفردوس المفقود**، وحين لاحت فرصة السفر إلى الخارج رحبت بها، واصطحبت معى نص ميلتون (الكتب الستة الأخيرة) لكننى كنت أريد أيضًا أن انتهى من ترجمة القصص القصيرة التى اخترتها للكاتبة منى رجب، بعد أن ترجم إحداها تلميذى وزميلى على عبد العزيز الغفارى ، وفعلاً عكفت فى شهرى إبريل ومايو

على **الفردوس المفقود** فترجمت ثلاثة كتب ، وعشر قصص ، هذه إلى العربية وتلك إلى الإنجليزية ، وانتهيت فى يونيو من إعداد الحواشى ، وكنت فى غضون ذلك قد قررت إعادة نشر الجزء الأول من الملحمة فى مكتبة الأسرة ، فوجدت أن المقدمة التى كنت كتبتها قبل عشرين عامًا تقريبًا لذلك الجزء تصلح مقدمة للملحمة كلها ، فلم أكتب مقدمة للجزء الثالث الذى يضم الكتب الثلاثة التى انتهيت من ترجمتها (من ٧ - ٩) ، وكاد الكسل أن يقعد بى عن الانتهاء من الكتاب التاسع بعد عودتى إلى مصر لولا تشجيع ماهر شفيق فريد ، وعندما اكتمل المخطوط - الترجمة والحواشى والتصدير- دفعت به إلى المطبعة ، وعدت إلى واحات مصرية - الجزء الثالث من سيرتى الذاتية - فعكفت عليها حتى أدفع بها هى الأخرى إلى المطبعة ، وكنا فى يوليو ٢٠٠١ ، ومناقصة شراء الورق التى طرحتها الهيئة لم تَرْسُ بعد على أحد ، وهو ما خفف من الإحساس بالعجلة لدىّ .

وجاءنى فى ذلك الوقت عرض للعمل فى أمريكا ، وهو عرض من الصعب مقاومته ، فعندما أختلى بنفسى فى غرفة الفندق أتحول إلى 'كتلة من النشاط' ، كما يقولون ، وكانت تلك فرصة سانحة للانتهاء من الكتب الثلاثة الأخيرة من الفردوس (من ١٠ - ١٢) ، فقد كان الإحساس بمرور الزمن إحساسًا غلابًا لا يفارقنى لحظة فى صحوى أو منامى ، وكانت المسئوليات التى أحملها آنذاك تتضمن إعداد كتب مكتبة الأسرة ، وإعداد كتابين فى الترجمة الفورية للجامعة المفتوحة ، وكان ذلك كله يقتضى وجودى فى مصر وإرسال اعتذار إلى الأمريكان ، وكان ذلك قرارًا عسيرًا ، فالسفر مصدر بهجة ، والخروج والعودة حركة ، والحركة تعميق للإحساس بدورة الحياة ، ولكننى كنت قد عقدت العزم على الانتهاء من المشروعات التى بدأتها وما زالت تنتظر الكثير من الجهد ، فأرسلت اعتذارى للأمريكان ، وقررت قضاء الصيف كله فى العمل فى القاهرة ، ولم أذهب إلى أى مكان خارجها ولو 'لتغيير الجو' أو للراحة .

وكان العكوف على **واحات مصرية** يتطلب الاستغراق التام ، لا فى تذكر الأحداث فمعظمها مسجل وثابت فى الأوراق ، بل فى محاولة استقرائها للخروج بمعنى ما مما شهدته على امتداد ربع قرن ، بحيث يبدو المعنى بوضوح ، وهو الأمر العسير حقًا ، فاستيضاح المعنى يتطلب التساؤل وإعادة التساؤل ، وإقامة الروابط أو البحث عن روابط

جديدة أو منطقية (مثل الروابط الزمنية chronological) أو الاكتفاء بالروابط ذات الدلالة ، وهكذا وجدتني أقضي وقتًا أكثر مما ينبغي لكاتب محترف ، صناعته اللغة والتعبير ، في مد الجسور بين الأحداث ومحاولة استنباط معنى ما مما قد تقول الأوراق إنه يفتقر إلى المعنى ، أي إن الكتابة كانت جهدًا ذهنيًا ونفسيًا قبل أن تكون جهدًا لغويًا ، وظهرت في غضون ذلك 'لوحات' أو حكايات كثيرة لها من المعاني ما لا تسعه الصفحات المحددة التي قررت تخصيصها للجزء الثالث ، وكنت أعتزم أن يكون الأخير ، ولكن أصدقائي الذين قرأوا المخطوط الأول - وهم بترتيب القراءة هبة عارف وماهر شفيق فريد ثم محمد عبد العاطي - أعربوا جميعًا عن افتقارهم إلى هذه 'اللوحات' أو 'الحكايات' ، وقرأت بعض الفقرات على صديق عمري الأستاذ أحمد السودة فأشار إلى وجود ثغرات تداركتها ، وكذلك فعلت زوجتي نهاد التي قرأت المخطوط بعد اكتماله ، ومن بعدها الدكتورة منى إبراهيم ، لكنني لم أجد مكانًا 'للّوحات' أو الحكايات فيه ، وقررت الاكتفاء آنذاك بذلك السجل 'شبه التاريخي' لهذا الكمّ من الأحداث الأدبية في حياتي ، ولكن إلحاح 'اللوحات' أو 'الحكايات' على ذهني كان ما فتئ يعاودني حتى بعد طبع **واحات مصرية** ، وها أنذا أرسم أو أحكي بعضًا منها راجيًا استكمال النقص ، ولو إلى حد ما ، إذ لم تشهد الحياة في مصر ، على المستوى الأدبي وغيره من المستويات ، مثل هذا الثراء في التحولات التي يكاد بعضها أن يكون جذريًا ، في نصف القرن الذي أستقي منه مادة هذه 'اللوحات' .

وانتهيت من واحات مصرية في أغسطس ، ولكن الانتهاء من المخطوط الأول كان لا يمثل إلا مرحلة واحدة ، فَسَدُّ الثغرات يتطلب المزيد من الجهد ، ولم أكن به ضنينًا، لكنني شغلت في سبتمبر بجهد آخر ، هو محاولة الانتهاء من الكتب الثلاثة الباقية من الفردوس ، فوضعتها نصب عيني ، وساعدتني الراحة النفسية لتولي الدكتورة منى الحلواني رئاسة القسم ، فهي أستاذة قديرة ، دمثة الخلق ، تعرف أقدار الرجال وتجيد التعامل مع الجميع ، فوضعت الواحات جانبًا وعمدت إلى الفردوس وإلى جانبي، ولا أقول من ورائي ، الدكتور ماهر شفيق فريد ، يحثني ويستنهضني ، فالشهور تجري سراعًا ، والكتب الثلاثة الأخيرة تتكون من ألفين وسبعمائة بيت من الشعر تقريبًا ، والعمل يقتضي التفرغ شبه الكامل ، كما شجعني ظهور الجزء الثالث بحواشيه ، وما لبث الدكتور ماهر أن كتب مقالاً رائعًا نشره الأهرام في نوفمبر ٢٠٠١ فكان بمثابة حافز جديد على الانتهاء من الملحمة كلها .

كان قد حدث فى إبان تلك الأيام- وتحديدًا فى يوليو ٢٠٠١ - أن نشب نزاع غير مفهوم بين المجلس الأعلى للثقافة وهيئة الكتاب ، وكان المجلس يعتزم إصدار ترجمة كاملة لدائرة المعارف الإسلامية (**The Encyclopaedia of Islam**)وهى الموسوعة التى كان قد شرع فى ترجمتها الدكتور عبد الحميد يونس والأستاذ إبراهيم زكى خورشيد رحمهما الله ثم توقف العمل بها، وكانت هيئة الكتاب قد أصدرت قبل عامين من ذلك مختارات منها، شاركت أنا فى ترجمة بعضها، فى نحو ثلاثين جزءًا، وأقول مختارات لأن المحررين حذفوا الكثير مما يمس الإسلام أو نبى الإسلام أو القرآن، وكانت الموسوعة العربية قد طبعتها الهيئة بالاشتراك مع مركز الشارقة الإعلامى (بالإمارات العربية المتحدة) بسبب ضخامة التكاليف ، وقد شهدت بنفسى آخر مرحلة من مراحل خروجها للنور عندما زار رئيس تحرير الموسوعة الأجنبية، وهو هولندى، مصر للاتفاق على بعض التعديلات التى اقتضاها إعداد الموسوعة للنشر بالعربية، وكان قد سمع عنى واطلع على بعض كتبى ، فاجتمعنا معه أنا والدكتور سمير سرحان وقص علينا ما يكابده الدكتور نصر حامد أبو زيد فى الغربة بسبب اتهامه بالكفر فى مصر (عقب نشره بحوثًا فى لغة القرآن ومفهوم النص) وطال الاجتماع حتى أربى على أربع ساعات ناقشنا فيها كل التعديلات أو معظمها، ولم يمض عام حتى اطّلع على 'الصورة الموجزة' للموسوعة وأصدر الإذن بنشرها. ولم يكن الخلاف 'مفهومًا' كما قلت، لأن ترجمة عمل أجنبى يتمتع بحماية حقوق الطبع والنشر يقتضى استئذان صاحب الحق ودفع ما يطلبه من حقوق ، وهذا هو ما يفعله المجلس الأعلى للثقافة فعلاً، فإذا كان يريد إعادة ترجمتها- بعد استكمالها ونشرها- (ولو فى صورة مختصرة أو معدلة)- فما عليه إلا أن يتخذ الإجراءات المعترف بها دوليًا ويشرع فى التنفيذ . ولكن الذى حدث هو أن باب 'أخبار الأدب' فى صحيفة **الأخبار** اليومية شن هجومًا ضاريًا على الهيئة المصرية العامة للكتاب بسبب إصدارها هذه الموسوعة (التى استغرق إعدادها سنوات طويلة) ولم يمض أسبوعان حتى اتخذ الهجوم طابع التجريح واتهام رئيس الهيئة بالتربح من أموال جهة أجنبية (ولو أنها عربية) وكان العمود الذى يكتبه جمال الغيطانى يتضمن تُهَمًا يُعاقب مرتكبُها بعقوبات قانونية ، مما أغضب الكثيرين وأدى إلى تدخل رئيس تحرير الصحيفة اليومية ، وكان من الممكن أن تحل القضية داخل وزارة الثقافة بين المجلس الأعلى والهيئة دون تدخل الصحافة ، ولكن سلسلة المقالات أدت إلى معركة أخرى قدم على أثرها جمال الغيطانى استقالته من الإشراف على باب أخبار الأدب فى الصحيفة اليومية ، مكتفيًا برئاسة تحرير مجلة **أخبار الأدب** الأسبوعية .

وتحوّل باب 'أخبار الأدب' فى الصحيفة اليومية بعد أن تولى رئاسته تلميذى السابق مصطفى عبد الله (وزوج تلميذتى السابقة عزة ابنة الكاتبة إحسان كمال) إلى باب إخبارى 'متحرك' ، ولكنه لم يعد يتضمن 'المقابلات' الصحفية أو التحقيقات التى كان جمال الغيطانى مولعًا بها ، فهو ينتمى إلى جيلى الذى يحب الكتابة وتطارح الأفكار ، وكان قد كلف الصحفية سامية سعيد بإعداد مقابلة معى قبل سفرى (المعتزم) إلى أمريكا وأعددت إجابات الأسئلة وأرسلتها إليها بالفاكس ، ثم مضى جمال فمضت مقابلتى فى الهواء ، ولم يقدر لها أن تنشر أبدًا ، ولم تعد لدىّ أخبار من التى يحبها رئيس الباب الجديد ، على حبه لى وحبى له . ولكن **أخبار اليوم** كانت قد فتحت الباب لمن يحب تطارح الأفكار فاستعضت بالباب الذى تشرف عليه آمال عثمان عن باب الصحيفة اليومية ، ونشرت عرضًا لكتاب عن **حكمة الفراعنة المفقودة** وكتبت مقالاً كبيرًا عن **خداع ما بعد الحداثة** تناولت فيه أسس التيار وشرحت أسباب سوء فهمه فى مصر .

ولكن الانتهاء من الملحمة كان شغلى الشاغل ، فتوفرت على الترجمة طيلة الخريف ثم باقى شهور العام فانتهيت منها فى أوائل ديسمبر ، وكنت فى أثناء ذلك قد انتدبت للإشراف على قسم اللغة الانجليزية فى كلية آداب بنها ، التابعة لجامعة الزقازيق، وهناك رأيت من العجب ما يتطلب قسمًا مستقلاً من هذا الفصل ، ولم يهدأ بالى إلا حين قرأ ماهر شفيق فريد المخطوط مع الحواشى ، وصحح فيه ما يحتاج إلى تصحيح ، ودفعت به إلى المطبعة ، وقلت إن لى أن أستهل العام الجديد قرير العين . ولا شك أن جهد عام ٢٠٠١ قد أجهدنى إجهادًا كبيرًا ، فإذا بى أتقاعس عن الجلوس إلى المكتب ، وأفضل القراءة فى 'الصالة' (فى الكرسى المريح) وكنت أعزو ابتعادى عن المكتب – فى أعماقى – إلى 'العين' (الحسد) مع منافاة ذلك للمنطق الذى أحيا به، ثم قلت فى نفسى آخر الأمر إننى لم أحصل على عطلة من أى نوع ، وقررت أن أقضى بقية ديسمبر فى عطلة خصوصًا وأن العيد على الأبواب ، وإذا برئيس الجامعة يتصل بى ويقول لى – من خلال رسالة أرسلها لى الدكتور محمد حمدى إبراهيم – إن علىّ أن أسافر إلى دمشق مع الدكتورة منى إبراهيم لزيارة مقر التعليم المفتوح فى جامعة دمشق وفى جامعة البعث فى حمص ، مع وفد يمثل كلية الإعلام برئاسة الدكتور على عجوة عميد كلية الإعلام ، وعضوية الدكتورة ماجى الحلوانى والدكتور صفوت العالم ، وأن موعد السفر قد تحدد يوم ٢٠ ديسمبر !

كانت زيارة دمشق حلمًا يراودني منذ الطفولة ، وكنت أرجو أن أزور سوريا زيارة كاتب عربي يحمل في قلبه حبًّا جارفًا للشام وأهلها ، وللّغة العربية وتاريخها ، لا زيارة أستاذ مكلف بمهمة تعليمية محددة ، وكنت قد قررت - كما ذكرت - أن أمتنع عن السفر حتى أتفرغ لمشروعاتي الأدبية ، ولكن فرصة الزيارة قد سنحت وربما لن تتكرر، مثلما لم تتكرر زياراتي للهند وسريلانكا وباكستان وزامبيا وأنجولا وموزمبيق وماليزيا والسنغال والعراق والإمارات والكويت ، على عكس زياراتي التي تكررت لبلدان أخرى كثيرة ! وكان لابد إذن من الترحيب بالزيارة ، ولو سمحت لنفسي بتسجيل خواطري ومشاعري ما وسعني كتاب قائم برأسه ، ويكفي أن أقول إنني خرجت من الزيارة أشد إيمانًا بالروابط الخاصة التي تربط مصر بسوريا ، وبأن أي شك في القومية العربية يتحطم بل ويتلاشى عند مواجهة هذه الحالة الخاصة - ولنسمها حالة 'مصر والشام' على نحو ما كان أسلافنا يسمونها ! وأهم ما عدت به هو قول الدكتور شماس ، مدرس اللغة الانجليزية بجامعة دمشق ، محقًا 'إن المجتمع العربي واحد' كانت العبارة درسًا في الإيجاز والبلاغة ، فالطلاب هم الطلاب ، والأساتذة هم الأساتذة ، والناس هم الناس ، بل و'المرور' هو المرور ! كان دفء الصحبة العربية هو العامل الغلاب طيلة الرحلة ، وكان هو الذي قهر المظهر الأوروبي في فندق كارلتون الحديث ، وأما زيارتنا- أنا والدكتورة مني - لمدينة حمص ، فقد أتاحت لي المزيد من الاستغراق في التاريخ، إذ صحبت شابًا متخصصًا في الكمبيوتر (يدعى قُتيبة) طاف بي أرجاء المدينة وحدثني عن تاريخها ، ونعمت معه بأحلى الأوقات رغم برودة الجو وخوفي من الانفلونزا ! وعندما عدت إلى القاهرة وحدي ، إذ أصرت الدكتورة مني على البقاء للاستزادة من مباهج الشام ، لم يكن يتردد في خاطري غير بيت واحد من الشعر نظمه محمود حسن إسماعيل وتغنى به عبد الوهاب (وهو : نحن شعب عربي واحد / ضمه في حومة البعث طريق) وكانت رؤى الماضي تنثال في ذهني ، رؤى استقيتها من كتب التاريخ ، ولم تكن تحتاج إلا إلى بعض الملامح المادية حتى تتجسد حية نابضة ، فنحن حقا شعب واحد ، نتكلم لغة واحدة ، ونواجه مصيرًا واحدًا .



كان العالم مشغولاً بما اصطلح على تسميته 'أحداث ١١ سبتمبر' ألا وهو الهجوم بالطائرات المدنية هجمات انتحارية على مركز التجارة العالمي في نيويورك ومقر وزارة

الدفاع الأمريكية فى واشنطن ، وما تلا تلك الهجمات من حرب أمريكية فى أفغانستان، وقد عملت أجـهزة الإعلام الغربيـة علىَ إظهار المسلمين بـمظهر الهمج المتـوحشين ، وتبارى الكتاب فى التحليل والتعليق ، وتبارت الدول العربية والإسلامية فى التنصل من المسـئوليـة عن تلك الهجمـات الشرسـة ، خوفًا من بطش أمريكا ، القطـب العالمى الأوحد ، بعد انهيـار الاتحاد السوفييتى ، وبدا لـلجميع أن العالم قد تغيـر ، وتغير ما يسمى بالخطاب الإعلامى الغربى إذ تحول إلى ما يسمى بإدانة الإرهاب ، وكان التعريف الوحيد لديهم هو قـتل الأبرياء من المدنيين ، وذلك هو التعـريف القديم الجديد ، أو الراسخ المتجدد ، وأجهزة الإعلام الغربية أجهزة عـالمية جبارة ، تساندها قوة اقتصادية قاهـرة ، إلى جانب القـوة العسكرية المـهيـمنة التى لا تسهـل معارضـتهـا. وكنت - باعتبارى من مسئولى التحرير فى مجلة **سطور** الشهرية ، مشغولاً بتحليل الأبعاد الثقافية للصراع الجديد الذى فرضته أحداث ١١ سبتمبر ، فكنت أرى من الضرورى أن أتابع ما تقوله الصحف الأجنبيـة ، ومحطات الإذاعة والتليفزيون الغربية ، لا الاكتـفاء بما نقوله نحن أبناء العـرب ، ووجدتنى رغم أنفى أُجَرُّ جَرًا إلى الفكر السـياسى - ولو من باب الفكر الثقافى أو الأدبى - وكنت أقاوم ذلك بأن أشغل نفـسى بأشياء أخرى دون نجاح يذكر ، حتى شهدت حوارًا بين اثنين من كبار المثقفين حول موقف العرب من الأحداث العالمية، وما تمليـه التغيرات أو التحولات الجديدة من ضرورة التغـيير ، خصوصًا فى أسلوب الكفاح فى سـبيل نصرة القـضية الفلسطينيـة ، قضية العـرب الأولى ، وقد بدأ الحوار فجأة وعلى غير انتظار بعد جلسة من جلسات الندوات الثقافية فى معرض الكتاب، أى إنه بدأ دون ترتيب سـابق ، وكـان ثلاثـتنا واقـفـين لدى قـاعـة الندوة ، والناس ينصرفـون ، فتوقـعت ألا يطول ، ووقفت أستـمع دون المشاركـة ، فالمتـحدثان من المتكلمـين الموهوبين ، ولكل منهما كـتبه ودراساته ، ولكن الخلاف بينـهما لم يكن متوقعًا ، بل لم يكن الحوار فى بدايته يشى بإمكان ظهور أى خلاف ، ولذلك لم أهتم فى البداية ، لكن الخلاف احتدم فشدنى ، وكان كل منهما يريد منى أن أشاركه وجهـة نظره . وسـوف أوجـز هنا ما قـاله كل منهـما دون إفصـاح عـن الأسماء .

بدأ الحوار بأن ذكر الأول أن على العرب أن يعملـوا على تغيير الصورة التى دأبت أجهزة الإعلام الأمـريكية على ترويجها للعرب ، وهى صورة القـتلة السفاحين الذين لا

يقدرون قيمة الحياة فيقتلون الأبرياء من المدنيين ويروّعون السكان الآمنين ، فهؤلاء إرهابيون ، وأجهزة الإعلام المعادية تصور المكافحين الفلسطينيين فى هذه الصورة ، بل وتعممها حتى تشمل العرب كلهم ، والأخطر من ذلك أنها تربط هذه الصورة الفلسطينية بالصورة الأفغانية ، أى الصورة التى تنسب إلى المتطرفين الإسلاميين بقيادة أسامة بن لادن وأيمن الظواهرى . ووافقه الثانى (ووافقته ضمنًا) على ضرورة التغيير ، لكنه تساءل عن أسلوب العمل فى سبيل التغيير ، والعرب متفرقون لا يكادون يجتمعون على شىء ، ومن ثم أثار الشك فى إمكان تحقيق ذلك وقال ما أثار المتحدث الأول - أو قل إنه ألقى قنبلة غير متوقعة بأن قال بنبرات خفيضة : الأفضل أن يتوقف الفلسطينيون عن الهجمات الانتحارية على النساء والأطفال والأبرياء فى المدن ! ورد الأول قائلاً : تريدهم أن يوقفوا الانتفاضة ؟ هل تدعو سيادتكم إلى التسليم لليهود ولأمريكا ؟ وأجاب الثانى بنفس النبرة الخفيضة : لقد ارتبطت الهجمات الانتحارية على الأبرياء بالإرهاب فى أذهان الرأى العام الغربى ولم يعد من السهل بعد هذه الشهور الثلاثة (وكنا قد تجاوزنا منتصف يناير ٢٠٠٢) أن نقنع العالم بأن الهجمات الانتحارية الفلسطينية على الأبرياء ليست من قبيل الأعمال الإرهابية ، بل إن اليهود سوف يستغلونها فى قهر الشعب الفلسطينى والعودة بالقضية إلى نقطة الصفر ! بل سوف يجدون التأييد من العالم الذى تحكمه أمريكا بعد أن حصلت على موافقة ٨٢ دولة - ومن بينها الدول ذات الوزن الثقيل - على مواصلة ما تسميه حملة الكفاح ضد الإرهاب! وقال الأول إنه مذهول لسماع هذه النغمة الانهزامية ، وقال إنه لم يسمع بشعب تحرر دون كفاح ، مهما تكن صور الكفاح وأشكاله ، وأومأ إلىّ لأبدى الموافقة على أن الكفاح مشروع ، فقلت له إن أحدًا لا يستطيع إنكار ذلك ، فاستمر قائلاً إنه لولا انتفاضة الشعب الفلسطينى الأولى عام ١٩٨٧ ما تمكن ذلك الشعب من إقامة سلطته المستقلة على بعض المدن فى الضفة الغربية كبداية أو كنواة للدولة المستقلة وعاصمتها القدس ، وإن الانتفاضة الثانية سوف تقنع العالم بحيوية هذا الشعب العربى وترغم إسرائيل على الرضوخ وتحقيق مطالبه ! وكان صوته قد تهدج وعلا بعد أن غلبه الحماس ، وكنا ما نزال واقفين لدى الباب ، والساعة قد قاربت العاشرة مساءً ، فقلت لهما إن الموضوع لا يمكن مناقشته هكذا - ولكن الثانى قاطعنى وقال : اسمحوا لى بكلمة واحدة قبل أن نفترق - وشرع يتكلم كلامًا أراه جديرًا بالتلخيص هنا . قال :

"كانت الانتـفاضة الفلسطينية الأولى قـد اندلعت إبان عهد انقسـام العالم 'القديم' إلى معسكرين، فكـان الاتحاد السوڤييـتى لايزال موجودًا، وكان مجـرد وجوده يعنى أن على العالم أن يعمل حسابًا لذلك الوجود ، حتى ولو لم يتدخل الاتحاد السوڤييتى مباشرة فى القضية الفلسطـينية على نحو ما تدخل فى قضايا أخرى ، وكـانت أمريكا ما زالت قطبًا واحدًا من قطبين ، وكـانت أوروبا على مشارف وحدة جديدة تهدد بأن تجـعل منها قوة ثالثة ، وكـان الشعب الفلسطينـى ينتشر فى شـتى ربوع الضفـة الغربية ويلـقى أطفاله بالحجـارة فحسب عـلى جنود الاحتلال ، فكان من السـهل على العالم أن يرى كـفاح شعب يخضع للاحتلال ضد جيش الاحتلال ، وكـانت مواصلة الانتفاضة تؤكد إعلاميًا مشروعـية كفاحهـا فى عيون الرأى العام فى كل مكان ! وهكذا كـانت إسرائيل تخضع للضغط عـالميًا حتى تستـجيب لمطالب 'أطفال الحجارة' الذين أصبح كـفاحـهم رمزًا للصمود - صمود العزل ضد المدججين بالسلاح وضد المحتلين الغاصبين ، وكان لابد من مسيرة السلام للقضاء على ذلك الحال . ."

وهنا قال الأول بسرعة "وهذا يؤيد كلامى !" لقد نجح الكفاح واسـتمع العالم ! ولكن الثانى دعـانا إلى الجلوس ولو خمس دقائق حـتى يستكمل عرض وجـهة نظره ، وكان يردد 'أرجوكم أرجوكم !' فجلسنا فى قاعـة الانتظار الخارجية المـواجهة لمكتب سمير سرحان فى المعـرض ، وكان ما زال بداخله ، وكان بعض المشاركين فى الندوة ما زالوا معه يتناقشون ، وهنا استأنف الثانى حديثه قائلاً ما موجزه :

"لقد كانت مسـيرة السلام التى انتهت بإقامة السلطة الفلسطينيـة حيلة بارعة لأنها أدت إلى إيجاد عدو ملموس، عدو مسلح، ويتصف بـكل ما تتصف به الجيوش النظامية شكلاً على الأقل ، وذلك حـتى يتحـول كفاح الـشعب إلى اعتـداءات من المسلـحين (gunmen) الذين يسهل وصـفهم بعد ذلك بالإرهابيـين إذا اعتدوا على المـدنيين، أو يسهل إعـلان الحرب عليهم إذا اعـتدوا على القوات الإسرائيـلية! ولا تنسوا أن اتفاقـية السلام التى وُقّعت عام ١٩٩٤ أصبحت سـلاح دعاية فى يد إسرائيل، فالذى يخرق هذه الاتفاقـية يعـتبر مـنتهكًا للقوانـين والأعراف الدولية، ويمـكن لليهود أن يقـولوا إنهم متمسكون بالسلام وإنهم يسعون لتسـوية الخلافات المعلقة فى حين أن العرب هم الذين يهدمون السلام" .

وأسرعت هنا أقول - بعد أن التزمت الصمت طيلة الوقت تقريبًا - إن العالم ليس مغفلاً، والـعالم يعرف أن اتفاقية إقـامة السلطة الفلسطينية اتفاقيـة حل مرحلى أى إنها

تمـثل مرحلة أولى ولا بد أن تتلـوها مراحل أخـرى ، وإنّ العالم كـان يوافق أو على الأقل لم يكن يعترض على الانتفاضة الثانية فى سبتمبر ٢٠٠٠ ، وكانت الدول الكبرى - وعلى رأسهـا أمريكا - تسعى لإيجـاد حل للقضيـة الفلسطينية بدليل جـهود الرئيس السابق كلينـتون ومحادثـات عرفات وباراك، وأيدنى الأول وأضـاف إن الكفاح لابد أن يستمر حتى يستمع العالم من جديد ، ولكن الثانى عاد يقول:

"آه ! ولكن العالم قـد تغير وتغـيرت سياسـة أمريكا بعد أحـداث ١١ سبتمـبر ٢٠٠١ ! وكان يجب على العـرب أن يبتعـدوا عن كل ما يربطهم بمـا يسمى الإرهاب حتى لا تربـط أجهزة الدعـاية المعـادية بين هذه الأحداث وبين هجـمات الفلسطيـنيين الانتحارية ، فلقد نجحوا حقًا فى قـتل العشرات من المدنيين ومن بينهم نساء وأطفال ، ولكنهم يربطون كل يوم بين عرفات - المناضل الصادق فى سبيل تحرير بلاده - وبين أسامة بن لادن وأيمن الظواهرى ، وجهاز الدعاية الأمريكى قاهر جبار ! ولقد استمعت إلى عدد من المحلّلين السـياسيين الأوروبيين والأمـريكيين ، غداة أحداث ١١ سبتـمبر ٢٠٠١ ، وكانوا يقولون فى نبرات تشى بالثقة والمعرفة ببواطن الأمور إن أمريكا سوف تحاول إيجاد تسوية عـاجلة لقضية الشرق الأوسط حتى تكسب تأييـد العرب فى حربها ضد أفـغانستان وضـد الإرهاب فى كل مكان ! ولم يفت الوقت بعد ! فلقـد نجحنا فى تصحيح الزعم بأن الإسلام دين إرهابى وبدأ العالم يرى حـقيقة ما حدث ، وإن كانت أصوات أعـدائنا ما تزال تنعق وتزعـق ، وعلينا إذن أن نقلع عن الهجـمات الانتـحارية ونطالب باستـئناف مسيرة السـلام فالحرب الأفـغانية انتهت أو كـادت ، وسوف ينسى العالم سريعًا موضوع الإرهاب الانتحارى إذا أقلعنا عن ممارسته !"

وقال الأول بل علينا أن نواصل الكفاح فقلت له لا خلاف على ذلك ولكن الدكتور (. . . .) يتحدث عن أسلوب الكفاح ، لا عن الكفاح نفسـه ، فقال الثانى فى نبرات ما زالت خفـيضة إن الأيام سوف تثـبت لنا صحة ما يـدعو إليه ، فنحن نعيش فى عـصر الديموقراطيـة الغربية ، وهى صورة من صور السيطرة على النـاس بأجهزة الإعلام ، أى إن السلاح الماضى فى هـذه الصورة الجديدة من صور الديموقـراطية هو تسخيـر أجهزة الإعلام لإثـبات اللونين البـارزين اللذين لا يسـتطيع الناس أن يروا سواهمـا - الأبيض والأسـود - أى من هم الأخيـار ومن هم الأشـرار ، وإن الهجـمـات الانتحـارية على المدنيين لو استـمرت فسوف تضع الفلسطينيين فى الخانة الأخـيرة ، وأسرعت أقول : ولكن ماذا بيدهم أن يفعلوا ؟ فساد الصمت لحظات خلتها دهورًا قبل أن يعود الأول إلى الكلام دون حمـاس هذه المرة قائلاً : لو دعم العرب كـفاح الفلسطينيين - وقـد وعدوا

بدعمه – فلن نخشى شيئًا مما تخشونه ! فقلت ضاحكًا لو ! وآه من كلمة لو ! ولكن الثانى قال : لا ! حتى لو دعموا قتل الأبرياء – تذكر أننا نواجه الاتهام بأننا إرهابيون نقتل النساء والأطفال ! لا . . لا تقل لو ! ليس لأن ذلك مستحيل ، وليس لأن الدعم لا قيمة له ، بل لأن العالم قد تغير ! وما دامت إسرائيل قد أقنعت العالم بأن تعريف الإرهاب هو قتل المدنيين ، وما دامت أجهزة الإعلام الغربية تضخم أحداث التفجير الانتحارية بالتركيز على الضحايا الأبرياء من النساء والأطفال ، فلابد أن يتوقف الفلسطينيون عن هذه الأحداث ! وقال الأول : أنا ما زلت أؤيد كفاح الفلسطينيين ، وضحك الثانى وقال : وهل أعارضه أنا ؟ كل ما هناك هو أننى أرجو أن نقلع عمليًا عن الأفعال التى تصورنا فى صورة الإرهابيين !

وافترقنا فى ذلك المساء ، وعدت إلى المنزل مباشرة لأنظر ما سوف أكتبه فى افتتاحية عدد فبراير من مجلة **سطور** ، وخطر لى أن أسجل وجهتى النظر ، ولو دون تعليق من جانبى على أيهما ، لكننى عدلت عن ذلك لثقتى فى أن كلا من الكاتبين سوف يكتب ما يعتبر ملخصًا للحوار ، ولو لم يذكر فيه اسم مُحاوره ، وينشره فى الصحيفة التى اعتاد النشر فيها ، وتصورت أن تصدر هذه المقالات قبل صدور المجلة ، فعدلت عن الإشارة إليها ، ثم جعلت أتابع تغطية أجهزة الإعلام الغربية للموقف فتذكرت كتاب كارين آرمسترونج عن **الحروب الصليبية** وهو الكتاب الذى صدر قبل عشر سنوات تقريبًا وفيه تقول الكاتبة استنادًا إلى استقراء متعمق للتاريخ أن إسرائيل تمثل للغرب الانتقام الذى تأخر لهزيمته فى فلسطين على يد صلاح الدين الأيوبى ، وأن نفوس الغربيين كانت تتحرق شوقًا إلى الأخذ بالثأر من الشرق ، وفى فلسطين تحديدًا، فى إطار دينى لا فى إطار علمانى ، وذلك هو الذى يفسر تدليل الغرب لإسرائيل ، وتغاضيه عن تجاهلها لقرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن ، كما يفسر أيضًا هجومه الضارى على الإسلام وتشويه صورته ، فى حين أن القوى الغربية قد تذرعت بقرارات مماثلة صادرة من الأمم المتحدة لشن الحرب على العراق ، وعلى يوغوسلافيا ، وعلى أفغانستان ! بل إنها تريد ضرب العراق من جديد استنادًا إلى هذه القرارات نفسها ، فالواقع هو أن فلسطين لا تزال تمثل دافعًا عاطفيًا للغرب على ضرب الشرق ! وكنت أعتزم أن أترجم ذلك الكتاب مع الدكتورة فاطمة نصر ، وأن تصدر الترجمة عن دار **سطور** بالاشتراك مع مركز الدراسات التاريخية بجامعة عين شمس ، ولكن المشروع لم يتحقق ، وإن كان الكتاب قد خلّف فى نفسى انطباعات لا تنمحى .

٣

كان لدى ما يشغلنى سوى ذلك آنذاك ، وهو العمل على سرعة إصدار كتاب جديد عن نجيب محفوظ بمناسبة بلوغه عامه التسعين ، مد الله فى عمره ، وكان سمير سرحان قد صارحنى برغبة الهيئة فى الاحتفال بهذه الذكرى ، وذكرنى بالكتاب الأكاديمى الذى كنا أصدرناه غداة حصول الكاتب الكبير على جائزة نوبل (بالانجليزية) وأشرت إليه فى **واحات مصرية** ، وتساءل عن إمكان إصدار نسخة له بالعربية بحيث نحتفل بها فى معرض الكتاب ، إذ كان قد خصص أسبوعًا فى المعرض ذلك العام للاحتفاء بنجيب محفوظ ، وصدور مثل هذا الكتاب كفيل بجذب الأنظار وإثارة الاهتمام من جديد بعبقرية كاتبنا الفذ . وكان ذلك الحديث قد جرى فى أواخر ديسمبر ، ولم يكن أمامنا إلا أقل من شهر ، فقلت لسمير إن الكتاب الإنجليزى مترجم فى معظمه عن أصول عربية - باستثناء مقالات الدكتورة ملك هاشم والدكتورة نهاد صليحة ، والدكتورة نيئين غراب ، والدكتورة منى مؤنس ودراستى المطولة عن لغة نجيب محفوظ ، وباستثناء الببليوغرافيا الانجليزية الكاملة (حتى ١٩٨٨) التى أعدها الدكتور ماهر شفيق فريد ، واقترحت إصدار كتاب يمثل استقبال العالم لنجيب محفوظ وليكن بالعربية والانجليزية ، وأن نسميه **نجيب محفوظ فى عيون العالم** ، بحيث يجد القارئ فيه آراء الأجانب فى كاتبنا الكبير ، ويجد الدارسون فيه مراجع أو أسماء المراجع اللازمة للدراسات الخاصة بأدب محفوظ بالعربية أو بالإنجليزية ، فوافقنى ثم سألنى : وهل تستطيع إنجاز ذلك والمعرض على الأبواب ؟ فسألته وهل خذلتك يومًا ما ؟ فضحك وقال إذن توكل على الله ! وفى الصباح الباكر اتصلت بماهر شفيق فريد وبدأنا العمل !

كنت أعرف أن ماهر لديه كتابات فى هذا الموضوع ، وذكرت أننى أشرفت على رسالة دكتوراه أعدتها ماجى نصيف عن اتجاهات النقد الغربى لنجيب محفوظ (عرض لها ماهر فى مقال بالعربية) ، وأن هناك رسائل جامعية بالانجليزية عنه (عرض لها ماهر جميعًا) ، وكتابًا كتبه رشيد العنانى بعنوان **البحث عن المعنى** بالإنجليزية (عرض له ماهر أيضًا) ، لكننى كنت أريد استيفاء الموضوع ولم أجد خيرًا من تلميذتى السابقة الدكتورة مها فتحى السعيد للحصول على المادة اللازمة من شبكة الإنترنيت ، فاتصلت بها وكلفتها بالبحث والحصول على نسخ مطبوعة من كل ما كتب عن محفوظ

بالانجليزية فى أمريكا وأوروبا إن أمكن، كما وجدت فى موسوعة **الترجمة الأدبية إلى الانجليزية** الصادرة عام ٢٠٠٠ (من تحرير أولي كلاس) مادة يمكن ترجمتها عن نجيب محفوظ، ومراجع أخرى يمكن الإفادة منها . وهكذا انطلقنا فى مطلع عام ٢٠٠٢ نعمل بجد ونشاط فى إعداد المادة، فجمعنا ما هو متاح ودفعنا به إلى مكتب الكمبيوتر (أو "الشركة الدولية لخدمات الكمبيوتر" International Computer Services)وأما صاحب المكتب أو الشركة فهو أحمد شـشتاوى جاد، لكنه اشتهر بالاسم الأوسط، فأصبح يكتفى بأحمد ششتاوى، وقد توثقت علاقتيبه على مر السنوات الست الأخيرة، وبالعاملين معه (أحمد وأسامة وطارق) وبمن يساعده فى كتابة النصوص الانجليزية (أحمد عبده) حتى أصبح المكتب يمثل الركن الركين لى فى كل ما أنشر من كتب، فالعاملونبه جادون مخلصون ويؤمنون بالعمل إيمانى به، وهم من الصفوة حذقًا ومهارة، حتى الناششون أو من يعاونون المكتب مثل مصطفى (أو جمال أو غيره). وشغلت أنا بكتابة دراسة بالانجليزية أَرُدُّ بها ردًا غير مباشر على ما ذكره إدوارد سعيد من أن نجيب محفوظ ليس له مترجم واحد متخصص فى أسلوبه، بل له مترجمون كثيرون، ولكل منهم أسلوبه، ولذلك فليس من السهل على دارس نجيب محفوظ بالانجليزية أو على قارئه أن يتبين ملامح ذلك الأسلوب، وكان ردى غير المباشر يقول إن نجيب محفوظ ليس له أسلوب واحد يمكن اعتباره علمًا عليه، فلقد تطور أسلوبه من العربية الكلاسيكية التى تحفل بالأصداء القرآنية السامية فى رواياته الأولى، إلى أسلوب الواقعية التى تتوسل بالعربية المعاصرة(Modern Standard Arabic) (MSA) إلى الأسلوب الرمزى والإيحائى، واستعنت فى حجتى بدراستى السابقة عنه، وعكفت على الكتابة حتى انتهيت منها فى غضون أسبوعين، كما ترجمت مقالات إدوارد سعيد وروجر ألن وريتشارد داير عن نجيب محفوظ، وكان ماهر مشغولاً- ليل نهار- فى إعداد أكمل وأشمل ببليوغرافيا إنجليزية لنجيب محفوظ، وفى يوم المناقشة السياسية التى ذكرتها فى القسم السابق، كانت المادة قد اكتملت، فعرضتها على سمير سرحان فقرأها واقترح بعض التعديلات، وكتب مقدمتين، مقدمة بالانجليزية للقسم الإنجليزى وأخرى بالعربية، وبدأت التجارب الطباعية الجادة، ولم يبدأ الاحتفال بنجيب محفوظ فى ٢٥ يناير حتى كان الكتاب قد طبع ، وإن كان عدد النسخ التى طبعت محدودًا، لكننا نجحنا فى عقد ندوة - فى إطار أسبوع نجيب محفوظ بالمعرض عن عالمية محفوظ، وندوة أخرى عن الترجمة ، وقد حظيت كل منها بتغطية إعلامية لا بأس بها .

ولقد ذكرت ذلك كله حتى أضرب مثلاً للتعاون العلمى الذى كان ولا يزال يميز

علاقتى بكل من سمير سرحان ومــاهر شفيق فريد ، وهو التعاون الذى استطعنا بفضله من الانتــهاء من هذا الكتــاب ، الذى أشاد به كل من اطلع عليــه ، فى أقل من شــهر واحد، وإذا كــان صحــيحًا أن مــعظم المادة كــانت متــوافرة لدينا من عــملنا الجامــعى وجهودنا الدائبة فى المجال الثقافى العام ، فإن جهد التجميع والتنظيم والعرض لم يكن هينًا ، وكان التــعاون هو الذى جعل الكتــاب يبدو متــجانسًا وموحّد الغــاية والهدف .
وكان من أغرب المفارقات أن أشاهد ، أثناء الــندوة الخاصة بنجيب محفوظ ، 'حسن' المخرج جالسًا بين الحاضرين ! وحييــته تحية سريعة أثناء النقاش ، إذ لم تكن اللحظة مناسبة 'للدردشة' ، ولكنه اتصل بى - كما توقعت - فى اليوم التالى ، وأصر على أن يرانى فى المســاء ، وحاولت التملص لأننى لم أكن أحب الســهر فى برد يناير ، لكنه ألحّ فأدركت أن لديه قصصًا من أمريكا فوافقت .

الواقع هو أننى كنت أريد أن أستمع لوجهة نظره فى تأييد أمريكا لإسرائيل ، وفى معاملة أمريكا للعرب وللمسلمين بعــد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ، فلم يكن قد وصل من أمريكا أحــد من معارفنا حــتى تلك اللحظة ليخبــرنا عن الأوضاع 'على الطبيعة' ، ولذلك أعددت نفسى لسماع القصص وتهيأت ذهنيا للاستيعاب ، لكننا ما إن جلسنا فى ركننا المفضل فى الفندق نفســه حتى فاجأنى بقوله : 'هذه آخر مرة أزور فيــها مصر !' وضحكت رغم أنفى لأننى أعرف الرجل جيــدًا وأعرف مدى ارتباطه بالوطن ، حتى لو تحاشى لقــاء زوجته السابقــة ، أو تظاهر بتجنب 'التعامل' مع المصــريين ، فلم أعلق وطلبت القهوة لى وله ، وجلست صــامتًا ، ثم قدمت له بعض كتبى الأخــيرة ، كدأبى فى كل لقاء بيننا ، فجعل ينظر فيها كأنــما ليشغل يديه وعينيه بشىء ، وبعد برهة قال باقتضاب : مبروك ! وضحكت ثانيًا وقلت له مباشرة هذه المرة : ما الذى أغضبك هذه المرة من مــصر ؟ وقال بســرعة : أغضبنــى ؟ كلا لم يغضبنــى شىء ، لكننى لم أعد أحتــمل الهزة النفســية التى أتعرض لهــا كلما زرت مصر ، فــأنا أبكى حياةً ضــائعة ، ويذوب قلبى حســرات على ما فاتنى من فــرص النبوغ والإنجاز ! فــقلت له إنه يستطيع العودة إذا أراد ولن يجد صعوبة فى العمل بالإخراج وبــالتمثيل بل وبالتأليف ، فقال : 'قد يكون ذلك صحيــحًا من الناحية الموضوعية ولكننى لا أســتطيع الآن نفسيًا أن أعود لأى من ذلك ! فلقد دخلت فى السنوات الأخيرة حلقة مــفرغة من العيش الرخىّ وجمع المــال ولا أستطيع مــهما حــاولت أن أكســرها أو أن أخرج منــها !' وتذكــرت صورة الدائرة، وأعجبنى أن ألقى صورة أخرى للدائرة المــصمتة أى التى لا نجاء منها - والتى جرى العرف على تســميتها بالحلقة المــفرغة (Vicious circle) - وتطــلعــت إلى أن

يحكى لى حسن عن ظروف وقوعه فيها ، فقلت ما كان دبشليم الملك يقوله لبيدبا الفيلسوف فى **كليلة ودمنة** : وكيف كان ذلك ؟ فقال حسن :

"تذكر أننى عندما سافرت للمرة الأولى إلى أمريكا منذ خمس سنوات تقريبًا ، كنت أقول فى نفسى إنها زيارة عمل مؤقتة ، وكنت أتصور أنها سوف تنتهى بى ، مثل زياراتى للبلاد العربية، إلى عودة 'ميمونة' إلى مصر ، ولذلك تعمدت أن أقاوم إغراء الإقامة الدائمة - وهو ما كان يمكن أن يصبح غلابًا لو اشتريت منزلاً مثلاً أو تزوجت من أمريكية - بل فضلت أن أقيم فى شقة مستأجرة ، وأن أتحاشى التخطيط للمستقبل، بل أن أعيش 'يوما بيوم' كما يقولون ، وكنت فرحًا لأننى أقيم فى مدينة بها مسجد كبير أستطيع أن أصلى فيه الجمعة على الأقل ، بل وأن أرتاده كلما أحسست بالضيق ، فلا شىء مثل المسجد يربط الإنسان بالجذور، وكنت أفرح عندما أرى المسلمين من غير العرب يؤمونه ، خصوصًا من بين الأمريكيين ، بيضًا كانوا أم سودًا . ولكن مهارتى اللغوية - وفى الترجمة تحديدًا - كانت وبالاً علىّ "

وكان حسن يعرف أن ذلك سوف يستفزنى، فأنا لا أرى فى المهارة اللغوية ما يمكن أن يكون 'وبالاً' على أحد ، فصمت ريثما رشف رشفة من فنجان القهوة ثم عاد ليحكى بإسهاب كيف أن المسئولين عن المسجد طلبوا منه ترجمة فقرة لإدراجها فى خطبة الجمعة ، فالخطبة كانت تلقى باللغتين العربية والانجليزية ، وكيف أن الترجمة أعجبتهم ، فدفعوا له مبلغًا كبيرًا لا يوازى فى نظره الجهد الذى بذله ، لكنه أحب الترجمة وأحب المكافأة ، وسرعان ما شغلته الترجمة عن العمل الفنى الذى كان يقوم به فى أحد الأفلام مساعدًا لمساعد المخرج (أو لما نسميه فى مصر المخرج المساعد) ولم تمض شهور حتى أصبح له رصيد فى البنك يفوق كل ما جمعه من العمل فى المسلسلات فى البلدان العربية ، حتى أنه فكر ذات يوم فى العمل مترجمًا بالأمم المتحدة ، وأرسل إلى رئيس القسم العربى رسالة بهذا المعنى ، فجاءه الرد مخيبًا للآمال ، إذ قيل له إنه قد تقدم فى العمر ، وإن عليه أن ينجح فى اختبار تعقده المنظمة الدولية للمترجمين، كما أن جدول المرتبات لم يكن يرقى إلى ما كان يحصل عليه آنذاك من الترجمة الدينية . وتكتم حسن خبر اعتزامه تغيير عمله ، وحمد الله سرًا وجهرًا على أن مكنه من هذا العمل ، وتدريجيًا أصبحت مشاركته فى الأعمال الفنية مشاركة اسمية ، وكان لابد منها حتى يبرر إقامته فى أمريكا ، ثم اقترح عليه أحدهم أن يفتتح أو ينشئ مكتبًا للترجمة وأن يسميه مكتب الخدمات الإعلامية ، وقال له إن ذلك لن يكون ممكنًا قبل أن يحصل على الإقامة بصفة رسمية وشبه دائمة ، فصبر حتى

حصل علـى هذه الإقامة وأنشـأ المكتب، ولم يكنبـه غير سكـرتيرة أمريكيـة من أصل عربى، وتعاقد مع مكتب للمـحاسبة حتى يتولى أمر الضرائب ومـا إليها . وقال إنه ما إن حل عام ١٩٩٩ حتى كان قد اعتاد الحياة الجديدة- مع استمرار عمله اسميًا فى شركة الأفلام القديمة- ودون أن ينطمس حلم العودة إلى مصر، بل إنه حضر حفل زفاف ابنته فى مصر، واطمأن إلى شفاء زوجته السابقة من مرضها القديم (ولو مؤقتًا) وشعر بأنه قد حقق خير حياة يرجوها هنا وهناك ، ونال خيـر ما هنا وخير ما هناك (وقال بالانجليزية the best of both worlds) إذ كان مـا زال يحلم أن يعود فـينتج فيـلما سينـمائيًا لحسابه، فلديه ما يكفى ، ويتولى إخراجـه بنفسه ، وقال إنه كان يحلم أيضًا بأن تتولى الشركة التى يعمل فيها توزيعه عالميًا ! وكان حديث حسن يوحى بأن الرياح ستأتى بما لا تشتهى السفن فطلبت المزيد من القهوة وجعلت أستحثه على الاستمرار فقال :

"كان المكتب بداية السـقوط فى بحر العسل ، كمـا يقولون ، إذ كنت أقول فى نفسى إن رصيدى فى البنك لم يصل إلى الحد المطلوب ، فأضاعف الجهد ، وإذا كنت فى البداية أقـتصر على الترجـمة الدينية ، فقـد أصبحت الآن أقبل ترجـمة أى نص ، ومهما يكـن الموضوع ، مما اقتضى الاسـتعانة بشاب مصرى كـان يدرس للدكتوراه ثم تزوج أمريكية وأصـبح فى حاجة إلى العمل ، ثم بدأت الشركات الأمـريكية التى تبيع منتجـاتها فى الشرق الأوسط تسـتعين بالمكتب، ولم تعـد ترسل النصوص إلى مكتب جنيف (الذى يديره أحد المـصريين المقـيمين فى سويسـرا) ثم تطور العمل فأصـبحت الشركات ترسلنى للتفاهم مع وكلائها فـى البلدان العربية ، وقد أتيحت لك فرصة رؤية أحدهم فى هذا المكان نفسه منذ عـامين ، وكنت أستضيف ابنتى لقضاء شـهر أو أكثر معى - بصحـبة زوجها - دون أن أفـصح عن طبيعة عملى ، بل كنـت أثناء وجودهما أتردد بانتظام على شركة الأفلام المذكورة حتى أقنعـهما بأننى ما زلت أمارس تخصصى الفنى . كانت الهوة تتسع كل يوم ، وبانتظام ، بين عملى الفنى الذى أصبحت أتجاهله فى واقع الأمـر ، وبين حيـاتى الجديدة ، ولم يبـدأ عام ٢٠٠١ حـتى أحسـست أننى أصبحت إنسانًا مختلفًا تمام الاختلاف ، فلقد انقطعت عن أى اتصال لى بالمصريين بل والعرب ، بل وانقطعت عن الذهاب إلى المـسجد حتى لصلاة الجمـعة ، وكان إدراكى للانقطاع هو مصدر الألم الموجع ، فالذهاب فى ذاته لم يكن يمـثل قيمة كبيرة ، ولكن التوقف كـان دليلاً على ضعف يتـسرب إلى نفسى ، وكنت عندمـا أخلو إلى نفسى فى المساء أجد أنه قد أصبح من العسير علىّ أن أحاسب نفسى كما كنت أفعل - بل كانت تنتابنى حالات تساؤل تكاد تدفع إلى الجنون - إذ لم أكن أتساءل عن الموت فى الغربة

أو مـا إذا كنت سأُدفن هنا أو هناك ، أو إذا مـا كـان ينبغى أن أوصى بحـرق جثـتى وإرسال الرماد فى إناء (urn) إلى زوجتى فى مصر - بل كنت أتساءل عن معنى الوجود نفسه ومعنى الحياة ، وهى أسئلة وجودية - كما يقولون - لا إجابة لها إلا فى الدين ، فإذا فـزعت إلى الدين واستغـرقت فى التأملات الدينيـة وجدت النوم يستـعصى علىّ ، وأذكر أننى - وكنا فى مطلع ربيع ٢٠٠١ - اسـتشرت طبيبًا نفسـانيًا من أصل مصرى فوصف لى بعض المنوّمات ، والغريب أن تأثيرها كان شـبه معدوم ، فخشيت الإدمان وأقلعت عن تعـاطيهـا ، وعندما ذكرت له ذلـك قال لى 'السنّ له أحكام' وعليك أن تشغل نفسك بشىء آخر غيـر العمل، فلقد اجتزت عتبة الشيـخوخة ومعظم العاملين فى أمريكا يتقاعدون فى سنك . وكان كلامه شديد الوقع فى نفسى ، فأنا صحيح البدن كما ترى ، وأنا قادر على العـمل ، وحبىّ للمال شهـية لا تشبع أبدًا ، بل إننى اكتـشفت أننى أصبحت أبخل على نفـسى بما كنت أسخو به عليها من المـتع ، لا زهدًا فيها بل ضنًا بالمـال وحرصًا عـليه ، وحـذرنى الطبـيب النفـسى ذات يوم من الانزلاق فى هذا الطريق لأنه قد يبدأ بالاكـتئاب والانسحاب من خـضم الحياة العمليـة ثم ينتهى بمرض نفسى عسير العلاج - بل عضال !"

وتوقف حسن ليـتناول شربة ماء ، فلمحت فـى عينيه ما يشـبه بريق الجنون الذى يصوره الممثلون فى السينما ، فطلبت المزيد من القهوة وقد قارب الليل على الانتصاف، وقلت له لماذا لم تفكر فى نبـذ كل شىء والعودة إلى مصر ؟ فقـال بسرعة إنه فكر فى ذلك ألف مرة حتى أصبح من قبيل الهـواجس المسيطرة ، لكنه كان يجفل فى كل مرة حين يذكـر نجاح أصدقـائه وزملائه ، وحـين يتذكر أنه لم يعـد له من يمكن اعتـباره صديقًا وفيًا ، وقال إنه فكر أن يكتب إلىّ أو أن يدعـونى إلى اللحاق به فى أمريكا ثم تذكر أننى لن أبرح مصـر أبدًا ، وقال فى حسرة 'ليتنى كنت مثلك يا عنانى' ولكننى أفتقر إلى ما تتمتع به من (self-sufficiency) [الاكتفاء الذاتى] ولا أستطيع الحياة إلا مع الناس وبينهم ، ثم انطلق يضرب أمثلة للفارق بينى وبينه ، واختتم تأملاته قائلاً :

"إننى سجـين دوامة الغربة، ولن أحتـمل العودة إلى مصر مـرة أخرى، بل لن أحتمل تذكر ما كنته أو ما كـان يمكن أن أكونه، فلقد أصبحت شيخًا فى النفس لا فى البدن، وكان الهروب الذى اخترته ولم يرغمنى عليـه أحد أقبح اختيار يقدم عليه فنان ! إننى أدور فى دوائر مفـرغة- حلقات خـبيثـة لا يمكن أن أكسرهـا، فلقد وهنت إرادتى

وأصبح التخاذل ديدنى، حتى عندما أواجـه أبسط المواقف وأهونها، فأنا صامت، وأكاد أترك المكتب برمته لصديقى المصرى المخلص، فأنا لاأكاد أترجم شيئًا أو أشارك حتى فى المراجعـة. وأنا لا أعرف حقيقـة ما حدث، ولا أظننى أستطيع أن أقطع برأى فـيما انتهـيت إليه، وكنت أظننى قادرًا على العـودة إلى الحياة حـين أزور مصر فـأتحادث مع أصدقـائى القـدامى وأفيض فى وصف حـالى وما انتـهيت إليـه، ولكننى أشعـر أننى مهزوم، وأكاد أقـول مسلوب الإرادة، فأنا لا أستطيع إقفـال المكتب فهو يدر علىّ أرباحًا طائلة، أو العودة إلى الأعمال الفنية إذ لم أعد قادرًا عليها ، وقطعًا لا أستطيع العودة إلى مصر".

وحاولت تغييـر الموضوع حتى نكسر النغمـة الاعترافية التى سادت الجلسـة فسألته عن أمريكا وإسـرائيل ، فكاد يضحك فـاسبتـشرت خيـرًا ، لكنه قال - رغم ما يشـبه الضـحك - إنه يعجب لسـؤالى ، فهـو واثق أننى أعـرف مدى السـيطرة اليهـودية أو الصـهيـونية على أجـهزة الإعـلام فى أمريكا وعلى قـنوات الإنتاج الفنى - ومن بينهـا السينمـا- وأن أى محاولة لتغيـير الوضع القائم ستـذهب أدراج الرياح ، فكيف أتساءل عن ذلك؟ لكننى قلت له إن ثمـة أملاً يلوح وهو مـا يدل عليه انخفـاض أعداد اليـهود الأمريكيين الذين يهاجرون إلى إسرائيل فضحك من جديد وهو يستعد للنهوض قائلاً : ولكن اليـهـود موّلـوا هجرة ملـيون يهـودى روسى تقـريبًا إلى إسـرائيل، والحكومـة الإسرائيليـة تعمل جاهدة على إقـامة مستـوطنات لهم وتحتاج إلى كل شـبر من الأرض العربية تستطيع احتلالـه ! وقلت له : يعنى الزمن ليس فى صالح العرب ؟ فقال ونحن نتجه للخروج "الله أعلم ! الزمن يا عنانى يا خويا ليس فى صالح أحد !"

٤

عندما ودعت 'حسن' المخرج ذلك المساء ، بل وبعد أن ركبت السيارة ، لم أجد بنفسى أى رغبة فى العودة إلى المنزل ، وإن كان الليل قد أوغل ، فخرجت من السيارة وانطلقت أسير الهـوينى على شاطئ النيل وأتأمل أضواء الشاطئ الآخـر ، وقد تملكتنى فكرة واحدة وهى 'الوعى' - فلقد أحسست أن حـسنًا كان يعانى من حدة الوعى ، على ندرة تلك الحدة بين مزاولى حـرفته، فمعظم ممـارسى المهن التمثيلية يعـيشون اللحظة

الحاضــرة وحدها دون أن يسمــحوا لأذهانهم أن 'تعى' ما وراءها ومــا أمامــها ، بل إن الكثيرين من 'المثقفين' الذين يتركون مصر للحياة خــارجها نادرًا ما يسمحون للوعى أن يصل إلى هذه الدرجــة من الحدة ، فالــوعى درجات مثل أى لون مــن الألوان، وكانت مأســاة حسن تتمثل فى نظرى فــى أنه ترك مهنة اللحظة الحاضــرة فسمح لنفســه ببعض التأمل الذى زاد من حدة وعيه بموقعه فى الحياة باعتباره مصريًا يعيش خارج بلده ويدرك تمــامًا معنى غــربتــه،ثم لا يستطــيع أن يضع حدًا لهــا ، بل يدور فى دوامــة من الندم والأسى على ما فات وما كان يمكن أن يكون ، واعيًا بالحلقة المــفرغة التى يعيش فيها ولا يملك أن يكسر طوق حصارها ، بعد أن أسلم زمامه للمقادير تجريه كيفما شاءت

لقد أصبح الوعى فى حالة حسن نقمة تعذبه وتقض مــضجعه (فعلاً) وهو يستمسك بقناع من البسمــات المصطنعة التى تعينه على مواصلة الحــياة ، لكنه يخلع القناع عندما نتسامــر لأنه - كما قلت - يجد فى الحــديث معى راحة اعترافــية ، ولم يكن لدىّ حل أقترحه عليه ، فالحلول التى لا تنبع من باطن النفس تســتعصى على التنفيذ ، خصوصًا حين يكون المرء قد وصل إلى هذه الدرجــة من حدة الوعى ، وجعلت أقلب الأمر على وجوهه فتذكرت حــالات مماثلة ، نجا أصحابها من هوة اليــأس أو الاكتئاب أو المرض النفسى الذى قد يتــحول إلى جنون صريح بأن شغلوا أنفسهم بالعــمل ، أى بالانغماس فى الأعمــال التى لا تترك لممارســها فرصة الــتأمل ، وتضع حدودًا حاســمة للوعى ، والروائى أو كاتب المسرح الذى يسمح لشخصــية من شخصياته أن تكتسب قدرًا **متزايدًا** من الوعى يكون قــد فتح لهــا طريق المأســاة ، وكبار الكتــاب هم الذين ينجــحون فى الموازنة بين الوعى لدى الــشخصيــة والوعى لدى باقى الشخصــيات التى تمثل مــجرى الحياة العادية أو الواقع المُعاش ، فهكذا يفعل شيكسبير فى **ماكبث** حين يجعل البطل ذا قدرة غير عادية على التأمل والوعى ، وما الشــعر الذى ينطقه به شيكسبير إلا دليل على حركة الوعى فى أعماقه ، بل إن شيكسبير يحيل بعض عوامل الوعى شخصيات مسرحية حية نراها ونسمــعها على المسرح ، ولو لم يكن ماكــبث يتسم بهذا القدر **المتزايد** من الوعى ، لما انتهى تلك النهاية الفاجعة ، فكم من قتلة أفلتوا من العقاب وكم من حكام حققوا كل ما تصبو نفوسهم إليه بقتل المنافسين والنظراء ، لأنهم استطاعوا التدخل فى حركة وعيهم فلم يسمحوا له بأن يستــوعب حقائق ما فعلوه ، بل قصروه على ما يصوره القناع (persona) ونجحوا بذلك فى قهر الوعى الصادق .

ولابد هنا أن أشرح ما أعنى بالوعى المأسوى - تفريقًا له عن وعى القناع - فأقول إنه الوعى الذى يضم خصائص النفس الشعورية أو العاطفية (affective) وخصائص الذهن الحى (intellectual) معًا وفى نفس الوقت ، وقد يطلق البعض على هذا المزيج تعبير (conscience) ولكن الضمير قد يعنى اصطلاحًا غير ما يعنيه اشتقاقًا ، فالمصطلح يعنى مجموع النوازع الأخلاقية المستمدة من المجتمع ، بما فى ذلك الدين والتقاليد والأعراف ، وأما اشتقاقًا فهو يعنى كل ما يضمره الإنسان فلا يفصح عنه ، أو كل ما هو مضمر فحسب ، سواء كان يشغل مكانًا بارزًا فى الوعى أم لا ، وأما الوعى الذى أعنيه فهو القدرة على استيعاب الواقع بجميع الطاقات الإنسانية ، أى إن الضمير بالمعنى المألوف عنصر واحد من عدة عناصر، فإذا أمات الإنسان إحدى طاقاته - مثل طاقة التعاطف مع غيره من البشر أو استيعاب مشاعرهم أو طاقة استقراء معنى الأحداث الخبئ لا الاكتفاء بظاهرها مهما تكن قوة هذا الظاهر - كان بذلك يخطو أول خطوة فى طريق تزييف وعيه ، إذ قد تتلو ذلك خطوات أخرى مثل تضخيم القناع الذى يرتديه بإضافة عناصر زيف جديدة إليه ، أو مثل التعامى عن بعض الحقائق بإخفائها عن حركة وعيه ، أو بطمسها فى وعيه طمسًا كاملاً ، أو مثل التدخل فى تحديد درجات اللونين الأبيض والأسود لأفعاله وأفكاره ، وعادة ما تكون هذه الخطوات تلقائية وذات طابع تدريجى ، فكأنما هى تتسلل داخل النفس على امتداد سنوات طويلة، وقد تصحبها أحيانًا مقاومة من عناصر أخرى لا تلبث أن تنهزم ، وقد يستيقظ أحد هذه العناصر فجأة فيهز النفس هزًا ، وهو ما جرى العرف على تسميته بيقظة الضمير ، ولكن الشائع هو أن الإنسان عادة ما يتصالح مع وعيه الباطن ، وعادة ما يتدخل فى تشكيله حتى لا ينمو فيصبح قوة مؤثرة ، بل إنه يعمل - عامدًا أو غير عامد - على إيجاد التناغم بين عناصر الوعى داخل النفس حتى ينعم بالسعادة ، وما السعادة إلا التوافق على المستويين الباطن والظاهر معًا .

وكلما أنعمت النظر فى حال حسن ، ازداد وضوح الدور الذى 'لعبه' الوعى فى إحساسه بالضياع ، فكم من المصريين العاملين فى الخارج ينعمون بالبُلَهْنية المادية ويطمسون فى نفوسهم أى عنصر من عناصر الدِّين الذى يدينون به لمصر ، بل لقد شهدنا منهم من خدع بلده وخانها من خلال إبرام صفقات زائفة مخاتلة حتى مع الحكومة (مثل ما حدث فيما يسمى بقضية حديد أسوان) ولكن الغالب أن نرى العامل فى الخارج وقد أقنع نفسه بألاّ يرعى سوى ذاته ، وبأنه لم يعد ينتمى إلا إلى نفسه، حتى لو تحايل على غيره ، ولو أضرّ به فى غمار ذلك ، على نحو ما حدث حين تزوج

مصرى أعرفه خير المعرفة من مصرية مقيمة فى بلد أجنبى ، ولا أعرف إن كانت قد حصلت على الجنسية الأجنبية أم لا إذ لم أقابلها إلا عام ١٩٩٣، لا لشىء إلا ليحصل على الإقامة فى البلد الأجنبى الذى كان يريد الإقامة والعمل فيه ، وعندما حصل على بغيته (بعد عام ميلادى كامل) طلقها فى القنصلية المصرية ، وقد كان يتكتم هذه الواقعة ولا يشير إليها من قريب أو بعيد ، خصوصًا بعد أن أحضر زوجته الأولى من مصر للحياة معه فى الخارج ، ولم أستطع أن أعرف منه إن كان طلقها قبل زواجه من الثانية ثم ردّها إلى عصمته بعد طلاقه من الثانية أم لا ، ولكننى لاحظت أن الثانية قد أصبحت ترتدى الطرحة فى المكان الذى تعمل فيه (ويعمل فيه معها كثير من العرب) وكانت تطوف بالمكاتب فى أوقات الصلاة لتدعو العاملين من المسلمين إلى ذكر الله ، وقال لى أحد الخبثاء إنها تبحث عن زوج جديد، وإنها أصبحت ترتاد المسجد فى أوقات الفراغ ، وتجلس متبتلة قانتة فى انتظار الفرج، ولاحظت عند الحديث معها كثرة الحوقلة والبسملة ، وعندما زرت مكتبها وجدت المصحف مفتوحًا ومن فوقة مسبحة.

وكنت ذات يوم من عام ١٩٩٤ فى زيارة لمنزل صديقى محمود يونس فى جنيف، وكان قد دعا عددًا من المصريين إلى العشاء ، فزوجته زينب تجيد طهو الأطعمة المصرية،وكان من بين المدعوين طارق شرف (رحمه الله) أخو سامى شرف (وقد قصصت قصته فى **واحات مصرية**) وزوجته شادية عبد اللطيف، والدكتور محمود مراد الذى حصل على الدكتوراة فى التاريخ الإسلامى من جامعة فرنسية فى سيرة ابن هشام (وكان الممتحن الخارجى له هو المصرى محمد زكريا عنانى أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة الاسكندرية) والحاج لطفى عبيد المترجم (وأخو فاروق عبيد المترجم بالأمم المتحدة فى نيويورك) وأثناء العشاء قال حاتم- الابن الأصغر لمحمود يونس- إنه يريد العودة إلى مصر بعد التخرج لخدمة الإسلام والمسلمين، فقال له الدكتور مراد: 'ألا تعلم أن حياة المسلم فى الغربة جهاد فى سبيل الله؟'ومن ثم انطلق يبين للغلام كيف أن وجود المسلم بين غير المسلمين واستمساكه بدينه جهاد وأى جهاد، فضرب الأمثلة وحكى الحكايات، وكان الباقون يؤمّنون على كلامه ، ثم قالت شادية إن طارق قد تلقى عرضًا للعودة إلى مصر والعمل بالسياسة (وكنا نعرف أن اللواء كمال حسن على رئيس الوزراء الأسبق كان قد زار جنيف قبل أيام وقضى فترة فى صحبة طارق والأسرة) ولكنه- أضافت شادية- لايفكر فى العودة إيمانًا منه بأن العمل فى ديار الغربة جهاد، وكان طارق آنذاك صامتًا ، فإن نطق ردد تعاويذ أو آيات، وقال الحاج لطفى عبيد إنه يعانى الأمرّين من أجل أولاده الخمسة فى بورسعيد، ولكن الناس لا تعرف، والتفت محمود

إلى ابنه وحاتم وسأله هل اقتنع ؟ ولم يكن الموقف يحتاج إلى أسئلة ، فلقد ساد وعى الجهاد وكنت الوحيد من بينهم الذى سيعود إلى مصر فلم أشارك بالرأى .

والأمثلة على 'الوعى المأسوى' لا تعد ولا تحصى فى الآداب العالمية ، وقد يكفى مثال واحد فى هذا السياق ، ألا وهو وعى عطيل فى المسرحية المسماة باسمه والتى أبدعها شاعر الانجليزية الأكبر وليم شيكسبير . إن عطيل يعرف أنه 'تجاوز' أعراف مدينة البندقية ، وهى مدينة دولة ، لها حاكمها ولها قوانينها الخاصة ، عندما أقدم عطيل - وهو الأجنبى الأسود الذى يعمل قائدًا للأسطول بسبب حنكته البحرية فقط - على الزواج من 'ديدمونة' البيضاء وابنة أحد أكابر البلدة . أى إنه كان استوعب فى وعيه ذلك 'التجاوز' ، دون أن يتجاوز عنه، بل إنه عندما شرح قصة غرامه وزواجه بالفتاة التى تصغره كثيرًا فى السن ، قدم ما يبين إدراكه لعدم تجاوزه ذلك التجاوز ، إذ قال إنه كان يحكى لأبيها الذى كان يحبه حكايات مغامراته والأخطار التى صادفته ، وكانت 'ديدمونة' تستمع إلى حكاياته وتبدى تعاطفها معها ، وانتهى عطيل إلى القول:

لقد أحبتنى لما صادفته من المخاطر

أما أنا فقد أحببتها لأنها تعاطفت وأشفقت علىّ فيها !

She loved me for the dangers I have passed,

And I loved her for she did pity them !

أى أن عطيل قد أقام ما يسمى بلغة النقد الحديث اليوم 'وعيًا زائفًا' بطبيعة العلاقة التى ربطته بديدمونة ، أو ما يسميه علماء النفس بالتمزق فى الدوافع ، ونسميه نحن التنازع بين الدافع الشعورى (أو العاطفى) والدافع الذهنى (أو المنطقى) إذ كيف يقبل الذهن الواعى ذلك الغرام المشبوب والشواهد العقلانية لا تؤيده ؟ ولو كان عطيل قد قبل القناع الذى صنعه ذهنه وصدق أنهما متحابّان حقًا (مهما تكن الأسباب) لما اقتنع بالأدلة الواهية على خيانتها ووقع ضحية مكر ''ياجو'' وخبثه ، لكنه كان منذ البداية مسرحًا لصراع دفين بين عناصر الوعى التى ذكرتها، ونحن نشهد هذا كل يوم فى حياتنا المعاصرة ، وعندما حادثت أحد أصدقائى فى هذا الموضوع ، وكانت المناسبة هى زواج روائى مشهور بفتاة فى سن حفيدته ، قال لى إن صديقنا ليس عطيل ! وبعد

مناقشة موجزة قال لى : ''أنتم تعقّدون الأمور أيها النقاد ! والموضوع أبسط من أن يصبح مسرحًا للصراع بين ما تسميه عناصر الوعى ، فالزواج اتفاق (بمعنى 'العقد' contract = agreement) والعقد شرعة المتعاقدين ، ولا أرى ما يدعو فى كل مرة إلى افتراض 'الحب' بالمفهوم الأمريكى الذى يكاد أن يصبح موضة ! فعطيل فى نظرى مغفل وكان ينبغى أن يواجه زوجته بالتهمة فور شكه فيها ، ولو حدث ما تطورت الأمور إلى هذا الحد المأسوى !'' وفهمت منه - وهو صحفىّ كبير - أنه يدعو إلى تبسيط العلاقة الزوجية بالمفهوم الذى شاع واستفحل ، وهو المفهوم الذى تدعو إليه أم ياسين (على نحو ما صورته فى **واحات مصرية**) أى قصره على العلاقة الحميمة بين الزوج وزوجته ، وأما ما يشير إليه باسم المفهوم الأمريكى (وربما كان يقصد الأوروبى أو الغربى) فربما كان يعنى العلاقة المشتركة والمعقدة التى تستمر مدى الحياة ، ولكننى قلت له إننى لا أقدم مفهومًا غربيًا ، بل أقدم المفهوم الإنسانى الذى يتخطى حدود الأعراف الإقليمية أو المحلية ، إذ لا يكتب للزواج الاستمرار إذا شابه صراع فى الأسس النفسية التى يقوم عليها وأهمها فى نظرى صدق الوعى بطبيعة العلاقة الزوجية ، وحتى على مستوى 'العقد' التى يتحدث عنه ، أجد نفسى نزاعًا إلى افتراض وجود بنود تتعلق بالوعى فى ذلك العقد ، والإخلال بهذه الشروط يهدم العلاقة مهما تحققت الشروط المادية الأخرى ، وما عطيل إلا شخصية فى مسرحية ، وليس من الإنصاف 'النقدى' أن أخرجه منها وأعامله معاملة البشر الذين يعيشون بين ظهرانينا ونعرف عنهم أكثر مما نعرف عن عطيل ! ولكن صديقى - الصحفى الكبير الذى يبدى ميولاً إسلامية واضحة فى كتاباته - لجأ إلى ما كاد يجرنى إلى مناقشة دينية فأقفلت الموضوع وتركته .

وقد يبدو من حديثى أننى أدعو إلى الوعى الكامل ولو تحول إلى وعى مأسوى ، لكننى لا أدعو إلى شىء بل أوضّح فحسب أن يقظة وعى صديقى حسن ، الذى شارف على السبعين ، قد أدت إلى هموم 'وجودية' لا أكاد أرى لها دفعًا ، فغيره من العاملين فى الخارج قد اكتفوا ببعض عناصر الوعى ولجأوا إلى أقنعة حامية ، فتوافقوا مع الحياة خارج مصر ، سواء فى البلاد العربية أو الأجنبية ، كما أقصى بعضهم أحلام ممارسة الأدب أو الفن ، وقنعوا بالانتقال من يوم ليوم ومن ساعة لساعة فى قطار الزمن ، دون أن يطلوا من نافذته ليروا العربات وهى تنهب الأرض نهبًا ، إذ أحلوا فى وعيهم مشاغل صغيرة تشغلهم عن الهموم 'الوجودية' ، أحلّوها وجعلوا منها مسرحًا لوعى متغير يأتى بما هو طريف وظريف كل يوم ، فاكتمل لهم هدف التوافق والتناغم، ولو أنك تلمح عند بعضهم آثار ذلك الإحلال، وآثار ما خلّفه من جهد وعناء.

٥

ذكرتني حالة حسن المخرج بحالة صحفية سأطلق عليها اسم هدى ، زارتنا لإجراء مقابلة صحفية مع زوجتي نهاد صليحة ، وكان ذلك في مساء أحد أيام الشتاء من عام ١٩٨٨ ، إذ جاءت إلى المنزل فجلسنا في الصالة ، وقالت 'هدى' إنها تفضلها على غرفة المكتب وكان معها زوجها الذى كان - فيما يبدو - قد تجاوز الخمسين ، وتطوعْتُ أنا باستضافة الزوج في غرفتي حتى تنتهي نهاد من المقابلة ، بعد أن عرفني بنفسه وقال إنه لن يشغلني بل سيقرأ كتابًا، راجيًا منى ألا أتوقف عن العمل ، وكنت مشغولاً بقراءة التجارب المطبعية لكتاب جديد (ترجمة **تاجر البندقية**) فوضعته جانبا وأصررت على القيام بواجب الضيافة ، وأذكر أنني كنت أضع على المكتب نسخة من مسرحية **كوميديا الغربان** التي كانت قد صدرت لتوها (في أواخر ١٩٨٧) فلَمَحتْها عينُه وتصفّحها فوجدها 'تشبه الشعر' - كما قال - ولم أجد ما يدعو إلى أن أذكر أن المسرحية مكتوبة بالنظم ، وإن لم يكن النظم العمودى ، إلا في الأغاني وفي الحوار 'الرومانسي' بين البطل والبطلة ، فلم أعلق وتركته يقرأ حتى توقفْ عند مقطع سألني عنه فقلت له إنه يمثل وجهة نَظَرِ 'شخصية' درامية معينة في موقف دراميّ معيّن ، ولا يمثل وجهة نظري أنا ، ولكنه ظل يردده وهو (عجبًا هل تَأمَنُ للمرأةْ ؟ / المرأةُ مخلوقٌ هشٌّ / يُصغى للقلبِ ونجوى الحبِّ ولا يَحفلُ بالمنطقْ !) فحدستُ أن وراءه قصة ، ولم أشأ أن أضيّع الفرصة فقلت له إن المرأة تختلف قطعًا عن الرجل (دون أن أحدد جوانب الاختلاف) ، ولم يخب ظني إذ انطلق يحكي كيف انقلبت عليه زوجته ، وكيف شجَّعَتْ ابنته على الانحياز إليها والتنكّر له ، بعد أن ساعد زوجته على الارتقاء في سلم التعليم وبلوغ أقصى ما تتمناه ، وجعل يحكي لي من التفاصيل ما قد يأنفُ خِلٌّ من حكايته لخِلٍّ صدوق ، فكأنما كنت أعرفه طول عمري أو كأنما كانت تربطنيبه صداقة عميقة ، وانتهى من السرد بأن قال إنه ردًّا على تنكرّها له بأن تزوج من 'هدى' الصحفية ، ذات الشعر الأصفر ، والتي تصغره بأعوام كثيرة ، لكنها تحبه وتقدره ، ولقد عوض الله صبره خيرًا - بتعبيره - فاستعاض بها عن كل ما مرّ به من عذاب ، وعندما بدأ يسرد التفاصيل التي آنف من ذكرها كانت المقابلة الصحفية قد انتهت، وخرج الضيفان .

وعندما قصصت القصة على نهاد - زوجتى - تعجبت من صراحة الرجل الذى كان يبدو لى فى محنة ، وعندما قلت لها إنه أكثر من التعبير عن إعجابه بزوجته الشقراء ذات الشعر الأصفر فقالت لى دون اكتراث 'بل هو مصبوغ' فاغتظت وقلت لها إنه أصفر وقد رأيته فما الذى يدعوك إلى إنكار ذلك ، فابتسمت وقالت : 'فهل رأيت حاجبيها إنها ليست شقراء !' وقلت فى نفسى فليكن ، فهى شقراء فى نظره - وكانت مسرحية الغربان ما تزال مفتوحة أمامى على المكتب فقرأت قول شاعر القصر :

الواقعُ أن الواقعَ يُخفيه الظاهرْ
وإذن فالباطنُ واقعْ
لكنّ الظاهر أيضًا واقعْ
والظاهر ليس بِصِنْوٍ للباطن
وإذن فالواقع ليس بواقع !

وضحكْتُ - كما ضحك الدكتور عبد القادر القط عند تحليله للمسرحية فى برنامج **أمسية ثقافية** مع فاروق شوشة - على حديث الشاعر المحترف ، لكننى أقنعتُ نفسى بأن كلام الشاعر المختاتل فى المسرحية يمكن أن يقبله المنطق ، وها هو الرجل 'يتطوع' بإفشاء أسراره الزوجية لشخص يراه أول مرة ، كأنما ليثبت صدق ما كتبته ساخرًا ضاحكًا ، وكعادتى بعد الاستماع إلى أمثال تلك القصص ، سجلت أهم ما رواه من أحداث فيما أسميه كراسة المسرح، وأعدت الكراسة إلى الدرج، ونسيت القصة برمتها بعد أيام ، ولكنها كانت من القصص التى لا تنتهى بالتسجيل ، إذ سرعان ما أَطَلَّتْ برأسها من جديد فى ربيع ذلك العام .

كنت قد عدت من مشاهدة إحدى تجارب مسرحية **الغربان فى الطليعة** ، وكان ماهر شفيق فريد بصحبتى ، إذ كنت خرجت معه بالسيارة من الجامعة وانشغلنا بالحديث فى الطريق فإذا به يجد نفسه فى المسرح وقد أظلمت الدنيا والممثلون يتكلمون، ولم يشأ أن يغضبنى فمكث معى يستمع ، ولم أشأ أن أبتعد به طويلاً عن غرفة مكتبه أو موعد نومه فخرجنا بعد قليل ، وأوصلته إلى المنزل ، فكانت تلك من المرات النادرة التى يحضر فيها التجارب المسرحية لأى عمل مسرحىّ على الإطلاق ! أقول كنت عدت لتوى من المسرح حين رن التليفون وكانت المتحدثة هى 'هدى' فقلت لها إن نهاد قد خرجت فقالت إنها تريد إجراء مقابلة صحفية معى أنا ، فضربت لها موعدًا فى الجامعة فى اليوم التالى ، وكان اليوم الذى أقضيه من الصباح إلى المساء فى الكلية ، وأتناول الغداء فى مطعم بيت الضيافة .

وصلت 'هدى' فى موعدها تمامًا - وكان الواحدة ظهرًا - ولم أشأ إضاعة الوقت، فلدىّ درس فى الثانيــة ، وكان القسم مــقفرًا ، فطلبت لهــا الشاى، وفتحت هى جــهاز التسجيل الصوتى الصغير ، وانطلقت أتكلم بســرعة فأجبت على جميع أسئلتها ، وهى صامتة لا تكاد تتدخل فيما كان يعتبر حوارًا ، وكان وقت الغداء قد حان أو فات فقدمت لها بعــض البسكوت الذى احتــفظ به فى مكتبى لكــنها اعتــذرت لأنها تحــاول إنقاص وزنها، فألحــحت كعادة المصريين فــإذا بها تقول "لا تكن مــثل فلان [وذكــرت اسم زوجها ولنطلق عليه هنا اسم 'محسن'] الذى لا يقبل المعارضة !" وشعرت بالحرج فلم أعلق . وتشــاغلتُ بشرب الشــاى ، وجعلــت أنظر إلى الساعــة ، كأنمــا لأذكّرها بأن الوقت قد تأخر، لكنها تجاهلت ذلك التلميح، بل تركت جهاز التسجيل موصولاً بفيشة الكهرباء، وواجهتنى بسؤال مباشر: "ماذا قال لك 'محسن' ؟" ولم أُبْد أى تردد حتى لا أثير فى نفسها أى قدر من الشك بل قلت لها إنه يقول إن الله قد عوّض صبره خيرا، فعادت تسأل 'وماذا قال لك عن زوجته السابقة ؟' وكان تعبير 'السابقة' غير متوقع، فهو لم يقل لى إنه طلّقها، وكنت أســتبعد أن يخفى عنىّ ذلك إن كان قــد حدث، فذكرت لها أنه قــال إنها 'انقلبت عليه'، ولم أزدْ ، فــبدا عليــهــا الارتياح، وعــدت أنظر إلى الســاعة، إذ كــانت تقتــرب من الثانــية ، ولم أكن أريد أن أتأخــر على طُلاّبى فطُلاّب الدراســات العليا يأتون لحــضور هــذه المحــاضرة فى يوم الأحــد، ويتركــون أعمــالهم خصوصًا من أجلها ، بل إننى لمحت بعضهم ينتظر خارج الغرفة، ولما أصرت 'هدى' على تجاهل نظرى إلى الساعة، نَهَضْتُ أنا وقلت لها إن مــوعد الدرس يقترب ، فقالت إنها تريد صورة شخصية لى، فوعدتها بإحضارها فى أقرب فرصة وودّعْتُها وانصرفَتْ

وكان من عادتى فى يوم الأحــد - بعد قضاء النهاركله فى الجــامعة - أن آوى إلى الفراش مبكرًا ، ولذلك اعتذرت للدكتور فاروق عبد الوهاب الذى كان فى مصر آنذاك ، وقلت له إننى لن أســتطيع الخروج فى الــمساء ، وقــمت لإعداد طــعام العــشاء ، وإذا 'بهدى' تحادثنى بالتليفــون ، لتسأل بدايةً عن 'الصورة' ، ولتحكى لى قصــة متشابكة معقدة الأطراف ، وكانت كلما ذَكَرَتْ شيئًا طريــفًا تقول إن علىّ أن أضعه فى المسرحية المقبلة ، واستمعت إليها بتــأنٍ وصبر ، لكن القصة طالت ، والواقع أنها كانت جديرة بموقع فى مسرحية ما ، لــولا أن فصولها لم تكتمل فى نظرى إلا بعد سنوات ، ولولا أن بها ما يجعلهــا غير صالحة للمسرح ، وها أنذا أحكيهــا بعد أن تجمعت لدىّ القطع الناقصة (كلها أو معظمها) فى مقابلات وأحــاديث متعددة ، وبعد أن اعتبرتها انتهت - على نحو ما سأروى .

كانت هدى من قريبات زوجة 'محسن' (وهى الزوجة التى لم أعرف لها اسمًا حتى اليوم) وكانت تكثر من زيارتها فى المنزل (منزل الأسرة) قبل أن تتزوج ، وكانتا تتساران وتتبادلان الحكايات ، فهما متقاربتان فى السن ، ومتقاربتان فى المشارب والأهواء ، ولو أن 'هدى' تنتمى لفرع الأسرة الغنىّ ، فكانت تمتلك عمارة تتكون من سبعة طوابق فى شارع مصدق بالدقى ، ولم تكن تكترث للدراسة أو تحلم بدخول الجامعة مثل قريبتها 'الفقيرة' ، فلم تكد تشب عن الطوق حتى جاءها الخطاب يطلبون يدها ، ولكنها كانت تتمنع وتتدلل ، وكانت دائمًا ما تقول إنها تنتظر 'عريس الأحلام' ، وكان الدخل من إيجار الشقق فى الستينيات يكفى لتوفير حياة رغيدة لها ولوالدها الذى لم ينجب سواها ، وكانت له أراض زراعية فى العياط ، يزورها من حين لآخر للاطمئنان أو لجمع الإيجار من الفلاحين ، وكانت العلاقة وثيقة بين البنت وأبيها منذ الطفولة ، وازدادت توثقًا بعد وفاة والدتها عام ١٩٧١ ، وامتناع الوالد عن الزواج بأخرى حفاظًا على ابنته وصونًا لها من مهانة الخضوع 'لزوجة الأب' ، وعندما بلغت العشرين قبلت الزواج من رجل يكبرها بعشرين عامًا ، وأقاما فى شقة من شقق العمارة ، تاركيْن الوالد وحده ، وقالت 'هدى' إنها كانت تحس بتأنيب الضمير ، وكانت تشكو لزوجة محسن (التى كانت سبقتها بالزواج وأنجبت طفلة جميلة) من وخز الضمير وما تسببه الوحشة التى يعيش فيها والدها من قلق ، ولكن زوجة محسن كانت تطمئنها وتؤكد لها أن الصداقة التى تربط عريسها بأبيها (إذ كانا شريكين فى العمل) كفيلة بشغل وقته والتسرية عنه ، وكانت تحدثها عن مباهج الزواج وتسرف فى الحديث عن ذلك حتى أيقظت فى نفس هدى مشاعر لم تكن راودتها من قبل ، فبدأت تطالب زوجها بأن يخرج معها وأن يقضى الأماسى معها فى المنزل ، وكان دائمًا ما يتهرب إما بحجة ضغط العمل مع والدها ، أو بحجة تركها لمتابعة دراستها فى المعهد المتوسط الذى كانت قد التحقت به ، وأما حين يزداد إلحاحها فقد كان ينصحها بزيارة زوجة 'محسن' ، والائتناس بها وتعلّم رعاية الأطفال منها تمهيدًا لدور الأمّ الذى قال إنها لابد أن تنهض به يومًا ما . وقدمت لى 'هدى' تحليلاً كاملاً ذات يوم فى مكتبى بالقسم بعد ذلك بنحو عام، وكنت قد عدت من مؤتمر بالخارج وأحببت أن أطمئن على أحوال القسم – فى العطلة الصيفية فى عام ١٩٨٩– فوجدتها فى انتظارى . وكان ذلك التحليل الذى استغرق نحوًا من أربع ساعات يتضمن أكمل صورة للتغيّر الذى جاءت به الأيام فى السبعينيات ، وأجد فيه الآن أجمل دليل على 'عذاب الوعى' (موضوع هذا

الفصل) ولذلك فسوف أوجز ما قالته وما سجلته فى كراسة المسرح فى اليوم نفسه وهو طويل قد يملأ مجلدات ، ولكننى سوف أختصره قدر الطاة. قالت 'هدى' :

''هل تعلم أننى كنت محجبة ؟ [تقصد ترتدى الطرحة] لقد كنت من أوائل الذين عرفوا الطريق إلى الله ، فالتحقت بالعمل بصحيفة إسلامية ، وشجعنى زوجى على ذلك ، ولم يعترض والدى ، وأنا أتمتع بقدرة كبيرة على التعبير ، سرعان ما لفتت إلىّ الأنظار ، فتركت الشئون الإدارية وعملت مساعدة لرئيس التحرير ، وكان رجلاً تقيًا ورعًا ، فكلفنى بإعداد بعض الموضوعات عن المرأة فى الإسلام ، ومن هنا انطلقت ولم ألبث أن أثبتُ وجودى وتفوقت على خريجى كلية الإعلام بل وعلى القدماء فى المهنة ، إذ كانت لدىّ سيارة خاصة ، وكنت 'متحركة' وأحب الناس وأعشق الاستماع إلى أسرارهم وإن كنت لا أنشرها - بطبيعة الحال - وكانت الفترة التى قضيتها فى المنزل قبل العمل قد زادت من وزنى فبدأت نظامًا غذائيًا مُحكمًا ، وكنت كلما اكتشفت حقائق جديدة عن حياة المرأة بُحْتُ بها لقريبتى وصديقتى زوجة 'محسن' ، وكانت تتصل بى دائما حتى وأنا فى العمل ، ولا تكاد تشبع من أخبارى أو قل من أخبار الناس وأسرارهم .

''وذات يوم أثناء حديث عابر مع إحدى الزوجات المسلمات ، أحسستُ أننى زوجة مظلومة ، وأن الحرية التى يتيحها لى زوجى والتى لا يتيحها زوج المسلمة المذكورة لها ، ستار يخفى إهماله لشىء مهم ، أو قل عدم كفاية أدائه لذلك الشىء ، وزاد عندى ذلك الإحساس حتى أصبح هاجسًا أو هواجس ، وعندما أفضتُ فى هذه الهواجس لقريبتى وصديقتى ضَحِكَتْ وقالت إنها على العكس منى تمامًا ، وإنها لا تقبل إلا أن تعيش حياتها كاملة غير منقوصة ، فلقد حصلت على البكالوريس ، وهى تكتفى بعملها فى 'المصلحة' صباحًا ثم تتفرغ لزوجها وابنتها ومنزلها مساءً ، وقَدَّمَتْ إلىّ عدة نصائح حاولت العمل بها لكننى لم أفلح . وبدأ العذاب الذى كان فى منشئه لا يزيد على بعض الأسى ، ولم يكن لدىّ سوى قريبتى أشكو إليها ، فأكثرت من التردد عليها وكنت أفضل أن أترك المنزل الخالى فى المساء لأسهر معها ، أو على الأقل لقضاء ساعة أو بعض ساعة معها ومع زوجها. وكان الجلوس معهما مصدر سرور وعذاب معًا ، إذ بدأت أشعر بالحزن لما أنا فيه ، وأنا زوجة مخلصة لم يرزقنى الله بأطفال ، ومع أن زوجى لم يكن يفتح موضوع الأطفال معى إطلاقًا ، إلا أننى كنت

أحس بأن الإنجاب قد يقضى على الهواجس التى تنتابنى ، ولم أكن أخشى ، مثل كثير من الزوجات اللائى أجريت معهن مقابلات صحفية ، أن يتركنى زوجى من أجل إنجاب طفل من أخرى ، إذ كان الأطباء يؤكدون أننى قادرة على الإنجاب ، وأن الأمر بيد الله وحده ، لكننى اكتشفت - ويالهول ما اكتشفت ذات يوم - أننى لا أرغب حقًا فى الإنجاب من زوجى، وأننى ربما كنت أرفضه فى أعماقى ، بل - وهذه هى الطّامّة الكبرى - أننى أشعر بنشوة تطير بى إلى السماء السابعة عندما أنظر إلى 'محسن' زوج قريبتى أو أستمع لصوته - ولو فى التليفون !

''لك أن تتصور العذاب الذى عشت فيه ، وكان أفظع ما فيه عجزى عن البوح لأحد ! كان علىّ أن أتحمل وحدى هذا العذاب ، فقررت الانقطاع عن زيارة قريبتى ، وضاعفت من نشاطى فى الصحيفة ، لكنها أُغلقت فى مطلع الثمانينيات، وأصبح لدى فراغ قاتل ، ألجأنى إلى والدى ألتمس العون ، فإذا به يعانى من مرض عضال ، فشغلت بعلاجه شهورًا متوالية نسيت فيها أحزانى وكل ما يتعلق بحياتى الخاصة ، فلقد كان أكثر من أب ، وكان يمثل ركن الثبات فى حياتى ، وعندما أتى أمر الله تقبلته راضية بالقضاء لكننى أصبحت لا أطيق أن أرى زوجى أو أعود إلى منزلى معه .

وكان زوجى شهمًا وكريمًا - على عكس الكثيرين من أزواج اليوم - فتركنى دون الدخول فى المفاوضات المألوفة ، فكان طلاقى طلاقًا مثاليًا ، بل إنه ترك القاهرة كلها وانتقل إلى العياط حيث كان مقر عمله فى المزرعة أول الأمر مع والدى . وأحسست لأول مرة بالحرية، رغم الفراغ ، فأنا لا أعمل ، وليس لدى أسرة ، وأقربائى - كلهم أو معظمهم - فى الصعيد ، ولا أجرؤ للأسباب التى ذكرتها لك على زيارة قريبتى حتى لا أرى 'محسن' !

''كنت أعانى فى تلك الأيام من بلبلة لم أعهدها فى نفسى من قبل ، فلقد حُرمت من حنان الأب وأنا فى مسيس الحاجة إليه ، ومن العمل الذى كان يمكن أن يمتص جهدى فى التفكير (بل وفى الإحساس) ومن الزوج وإن لم يكن الزوج الذى أرجوه ، ومع ذلك - وهذا مصدر البلبلة - كنت أشعر بسعادة لأننى أستطيع أن أتخيل وجودى مع 'محسن' ، وأن أضع فى خيالى حوارات طويلة معه عن الحياة والمصير والأقدار ، فهو مثقف ومتحدث بارع ، بل وكنت أسمح لخيالى أن يشتط بى فيتجاوز الواقع بكل عراقيله ، وأنت تعرف ما أعنى حين يعيش الإنسان فى خيالات لا حق له فيها ! وكأنما

كان القدر لى بالمرصاد ، فلم تمض شهور ثلاثة - وكنا فى رمضان - إلا ووجدت من يطرق بابى على غير انتظار ، وكانت قريبتى وصديقتى القديمة زوجة 'محسن' ! ورحبت بها كل الترحيب وأسرعت بالاعتذار عن انقطاعى عن زيارتها بسبب ظروفى لكنها فاجأتنى بما لم يكن فى الحسبان . لقد اتهمتنى بأننى أخونها مع زوجها ، وقالت إنها تعلم "كل شىء" ورمتنى بأفظع الصفات ، وأعلنت أنها لن تقبل أن أختطفه من يدها ، وأنها سوف تحارب ذلك بكل ما أُوتيتْ من قوة ، وأنه إذا كان يريد أن يطلقها فعليه أن يبيع كل شىء لدفع مؤخر الصداق 'المعجز' ، وأنها لن تتنازل عن أى شىء ، فسوف تظل فى الشقة لأنها حاضنة ، وسوف تؤلب عليه المعارف وتفضحه فى مقر عمله ، واستمرت فى ذلك السيل العارم نحوًا من ساعة فوجدتنى أنهار باكية وأقسم أغلظ الأيمان على براءتى ، وهى تزداد قسوة وغلظة ، ثم انتهت بأن قالت: 'لقد اختفى منذ مدة ! وأنا أعرف أين تخفينه أيتها اللصة التى ائتمنتها على بيتى!' ثم صفقت الباب وراءها وخرجت .

"وأحسست بالدوار حتى أننى فكرت فى أن أفطر ذلك اليوم ، لكننى تحاملت على نفسى حتى حان موعد الإفطار فشربت بعض الماء ونمت . واستيقظت على صوت رنين التليفون ، وكان صوت زميل لى فى الصحيفة التى أغلقت أبوابها ، يقول لى إن هناك مجلة عربية تبحث عن مراسلات يكتبن عن أحوال المرأة فى مصر ، وإنه رشحنى للعمل بسبب خبرتى السابقة بشئون النساء ! واستمعت إليه وأنا بين النوم واليقظة - وعندما أفقت تمامًا طلبته فى التليفون وسألته إن كان قد اتصل بى حقًا فدهش وقال 'طبعًا ! ولماذا لم تصدقى ؟' فلم أجد ما أقوله وشكرته ، واتصلت على الفور برقم المجلة الذى أعطانى إياه ، فتأكد صدق الخبر ، ولم أضع وقتًا فقد كنت أحاول نسيان تلك المرأة وما قالته ، وخرجت بسيارتى وقابلت رئيس المكتب فرحب بى وكلفنى ببعض المهام ، ووقعت عقد العمل وخرجت لأتناول طعام الإفطار الذى كنت نسيته .

"قد لا تصدقنى إن قلت لك إننى أنجزت فى رمضان ما يتعذر إنجازه فى أيام الإفطار ، وكنت كلما أحسست بأننى انتهيت من موضوع فكرت فى موضوع آخر وعرضته على رئيس المكتب حتى يتصل بمقر الصحيفة ويعطينى الضوء الأخضر ، ولم يأت العيد حتى أحسست أننى نسيت أو كدت أنسى قريبتى وزوجها ، ولكن المكتوب مكتوب ، إذ كنت عائدة من زيارة قبر والدى فى الصعيد - وكنت أحمد الله على نجاتى

من حادثة سيارة كادت تقضي عليّ في طريق العياط (وكان الخطأ خطئي أنا بسبب عادة 'السرحان' التي اكتسبتها) - وكنت أحاول أن أجد مكانًا للسيارة وسط الزحام ، حين لمحت 'محسن' واقفًا يشير إليّ بيده ! لم أملك أن أتجاهله ، فالواضح أنه كان ينتظرني ، وكنت - مهما أنكرت - أحس بالعذاب في بعدي عنه ، فرددت الإشارة ، وتركت السيارة للسائس ، وتحكمت في مشيتي وتعبير وجهي حتى لا أبدو متلهفة على لقائه - وسلمت عليه ثم سرنا خطوات في الشارع ، دون أن نتبادل كلمات كثيرة ، ثم توقفت كأنما لأستجمع شجاعتي وأواجهه - وإن كنت لا أعرف ماذا يمكنني أن أقول له! إنه موقف يتطلب أديبًا محترفًا حتى يفرد له الصفحات ، لكنني أقول لك فحسب إنني أحسست في داخلي دموعًا لا أسمح لعيني بأن تذرفها ، وشعرت بأنني أريده أن يختطفني فيطير بي بعيدًا عن العالم الذي لم يعد له طعم ولا لون ! لكنني تجلدت ، وعندما طلب مني أن أسمح له بأن يكلمني في التليفون وافقت . واستأذن ومضى .

''لم أنم تلك الليلة في انتظار المكالمة غير أنها لم تأت إلا صباح اليوم التالي ، ولم تكن مكالمة طويلة ، لكنها كانت الروح التي أعادتني إلى الدنيا ، فلقد طلب مني أن أتزوجه واشترط أن تقتصر إجابتي على 'نعم' أو 'لا' ، فإذا كانت بالموافقة فلي أن أصمت وسوف يفسر الصمت على أنه قبول ، وصمتُّ لا لأنني وافقت ولكن لأن الذهول عقد لساني ، فجاءني صوته يقول 'إذن خير البر عاجله ! وسوف نذهب في الصباح إلى المأذون مع بعض أصدقائي ولا تحملي همًا لشيء ! سوف أحادثك في المساء اليوم للإطمئنان' . ثم وضع السماعة .

''كنت أريد أن أعرف ما حدث بينه وبين زوجته ، وأريد أن أعرف ما لا يحصى من الأشياء ، لكنني كنت كالمسيّرة مسلوبة الإرادة ، أو كالمنوّمة تنويمًا مغناطيسيًا ، وحتى حين حادثته في التليفون ذلك المساء كنت أشعر أن صوتي يأتي من مكان غريب عن جسدي ، وكان رنينه يدهشني ، ولم يكن إحساسي - قطعًا - إحساس من تقبل على الزواج ، فلم أكن أشعر أنني عروس أُزف إلى عريس ، والواقع أنني لا أعرف بم كنت أشعر ! وبينما أنا أحاول النوم رن جرس التليفون وكان الصوت صوت سكرتيرة مدير المكتب ، فسألتها ما الخبر فقالت إن النقود قد وصلت وعليّ أن أمر على المكتب في الصباح لتسلم المال ! لم أعرف ماذا أقول ولكنني تمالكت نفسي وقلت لها إنني لن أستطيع لأنني سوف أتزوج في الصباح عند مأذون الدقي فقالت لي مبروك وانتهت

المكالمة ! وأحسست عندما قلت ذلك أنه أصبح حقيقة واقعة لا رجوع عنها ، فنمت نوما عميقًا وصحوت فى الفجر واتجهت وحدى بالسيارة إلى مأذون الدقى ، ففوجئت بحشد حاشد من أصدقاء 'محسن' ومن العاملين فى مكتب المجلة ، وبعد عقد القران اتجهنا بسيارتى إلى فندق مينا هاوس حيث كان قد حجز غرفة كبيرة لنا'' .

وقالت 'هدى' بعد الاستغراق فى هذه التفاصيل الدقيقة إن ذلك كان يمثل بداية الوقوع فى 'بحر العسل' (وهو التعبير الذى استخدمه 'حسن' المخرج فأعاد إلى ذهنى هذه القصة) وكانت تقصد أنها كانت تتمتع بكل دقيقة فى حياتها الجديدة ، حتى بعد أن اكتشفت أن قريبتها (وصديقتها القديمة) ما زالت 'على ذمة' زوجها ! وكانت تقصد أنها لم تحاول أن تطلب من 'محسن' تطليق زوجته ، فربما كان ذلك يتطلب نفقات لا يستطيع تحملها ، كما أنه مسئول شرعًا عن تربية ابنته ، وربما كان لا يزال يحب زوجته الأولى فهى لا تعرف الكثير عن 'نفسية الرجال' - كما تسميها - ولا تريد أن تستبق الأحداث فتعكر صفو الهناء الذى تعيش فيه . واهتدى ذهنها إلى حيلة تنقذها من الحيرة وهى أن تقنع نفسها بأن زوجها قد طلّق زوجته القديمة ، وأنه قد أصبح لها وحدها ، وقضت شهورًا طويلة - وكان ذلك فى صيف عام ١٩٨٣ - وهى لا تريد أن تعرف إلاّ أنها قد تزوجت من هذا الرجل 'الحلم' كما كانت تسميه ، ورسّخت فى نفسها الاعتقاد بأن زوجته الأولى قد أصبحت 'طليقة' ، خصوصًا لأنه كان يقضى كل وقته معها هى ، ولا يكاد يزور الأولى ، ثم أقنعها هو آخر الأمر بأن تنتسب إلى كلية الآداب ، فحصلت على الثانوية العامة من جديد ، واختار لها قسم الفلسفة بعد أن ترقى فأصبح موجهًا أول للفلسفة ، وانتدب للعمل فى ديوان الوزارة ، وكان يتنافس على الحصول على منصب مستشار الفلسفة (أو العلوم الاجتماعية) مع بعض أقرانه وأذكر أننى كنت لمحت اسمه ذات يوم على أحد كتب الوزارة وإن كنت غير واثق ، فاسمه مألوف ، ويتسمّى به المئات بل الألوف من أبناء مصر .

وسوف أقف هنا عند مفهوم 'بحر العسل' الذى شغلنى على امتداد عام ١٩٨٩ ، فلقد استوعبت رواية 'هدى' لما حدث لها ، وأزحت التفاصيل جانبًا وركزت على الدور الذى يلعبه الوعى فى بناء هناء الإنسان أو شقائه ، إذ كان من الواضح لى أن 'هدى' كانت تخدع نفسها واعية ، وكانت تدرك تمامًا ما قررت أن تفعله بحياتها بعد تجربة زواجها الفاشلة ، وساعدها فى ذلك توقّد ذهنها ورجاحة عقلها ، وعزيمتها التى كثيرًا

ما ألمح نظائر لها فى أبناء الجيـل الجديد، فهى من مواليد الخمسينيـات كما قالت وإن لم تحدد لى السنة، وأنا أرجح أنها من مـواليد أوائل الخمسينيات كمـا أنها تنتمى إلى الجيل الذى كـان يؤمن بالعلم والعمـل، ولم يَحُلْ ثراؤها النسبى دون مـواصلة الدراسة وحب الكتـابة والقراءة ، وكـان واضحًا لى فى إبّان عـام ١٩٨٩ أنها تمـر بأزمة، وأن زوجها كان يمـر هو الآخر بأزمة، ولذلك استعنت بعين الكاتب (الـتى أشرت إليها فى فصل سابق) فى وضع كـل منهما فى مكانه باعتبـاره من الشخصيـات التى سوف أعود إليهـا عندما يجـبرنى عمل مـسرحى مـا على نشدان مثل هذه النـماذج، وإن كنت فى أعماقى أُكِنُّ إعجابًا لكل من يستطيع إنهاء علاقة والشروع فى أخرى، فأنا أرى أن ذلك يتسبب فى زلزلة كيان الإنسان نفسيًا وذهنيًا - إلى حد لا أستطيع تقبله ولو فى خيالى !

وأعود إلى 'بحر العسل' . فهمت من هدى (فى لقاءاتنا المتـعددة) ، ومما قاله لى 'محسن' طيلة انشغال هدى بـالمقابلة الصحفـية مع نهاد زوجتى ، أن العلاقـة الزوجية بينهما كانت وثيقة إلى درجة شاذة - بمعنى غـير مألوفة أو غير عادية - فهما لا يكادان يفترقان ، وحاولت بالقدر المـحدود الذى أُلِمُّ به من علم النفس أن أفسر سر ذلك فلم أفلح ، بل إننى كنت أضع احتمـالات متعددة وأوازن بينها فى خـيالى ثم لا أنتهى إلى شىء . وفى فبـراير ١٩٩٢ ، أثناء عرض مـسرحـيتى **جاسوس فى قـصر السلطان** فى المسرح القـومى ، قابلتهما معًا فى بـوفيه مسرح الأزبكية (مـسرح چورچ أبيض) حيث تعرض المـسرحيـة ، ولن أنسى تلك اللحظة ما حـييت ، إذ كنت أتكلم مع الدكـتور حسنين ربيع عن الحادثة التاريخية التى تصورها المسـرحية ، فهو أستاذ تاريخ متخصص فى تلك الفترة ، وكان عمـيدًا لكليتنا آنذاك ، وكان يعترض على تصوير المـمثل محمد أبو العينين للسلطان ، حين رأيتهما أمامى معًا بعد سنوات طويلة ، فأعادت المقابلة إلى ذهنى ما قالـه كل منهما لى ، ودَعَوْتُهُما إلى الشـاى ، وأثناء وقوفنا أمام عامل البـوفيه وجدت من يتقـدم منّى - أو منّا - وكان الكاتب والمحلل السـياسى رجب البنا (رئيس تحرير مجلة أكتوبر ورئيس مجلس إدارة دار المعارف اليوم - ٢٠٠٢) فتصورت أنه يريد تهنئتى فـحسب ، لكنه - بعد التهنئـة - رحب بحرارة بـ 'محسن' وعرفه بنفسه وذكره بأنه كان يدرس له العلوم الاجتماعية فى الخمسينيات فى مدرسة دمنهور الثانوية ! وما إن أفقت من دهشـتى حتى وجدت عبـد الوهاب مطاوع ، الكاتب المبدع ، واقـفًا بجوارى يرشف الشاى ويقول فى همس خفيض 'مبروك' ! وقلت فى نفـسى ليت ذلك الكاتب البارع يطّلع على تلك القـصة التى أختزنها فـيصدر لنا فتواه فـيها ! غير أن الاسـتراحة انتهت ، فسرت معهما حتى باب الصالة ، لكن 'محسن' قال إنه يريدنى فى أمر هام ،

فسرت معه إلى ركن فى الصالة المظلمة ، وجلسنا وطلبت المزيد من الشاى ، فقص علىّ المزيد ، ولم ننهض فى الواقع حتى انتهت المسرحية وخرجت هدى ووعدتنى بالكتابة عنها ثم افترقنا .

بدأ محسن حديثه بأن طلب منى التوسط بما يظنه لدىّ من نفوذ فى وزارة التربية والتعليم حتى يصدر الوزير قرارًا بمد خدمته عامًا آخر ، إذ كان سوف يحال إلى التقاعد فى العام التالى ، وهو فى مسيس الحاجة إلى العمل ، ووعدته خيرًا - بطبيعة الحال - وإن كنت أشك فى إمكان تحقيق مطلبه ، ثم تطرق الحديث إلى ابنته التى أصبحت فى الثانوية العامة و'تحلم' بالالتحاق بقسم اللغة الإنجليزية ، وفهمت الرسالة أيضًا ، وكنت أريد أن أسأله أسئلة 'شخصية' لكننى ترددت وإن كنت آمل فى أعماقى أن يتحدث هو دون أن أسأل ، وذلك ما حدث فعلاً، إذ بدأ بالإشارة إلى تصوير 'خاتون' فى مسرحيتى، وهى الفتاة التى تعيش فى خدر من خدور القصر وتحلم بعريس الأحلام ، وأسرع يقول لى إن هذه هى الفتاة المصرية الحقيقية ، لا الفتاة العاملة التى تنقلب على زوجها حين تواتيها الفرصة ، كما فعلت زوجته الأولى ، وذكرنى بما قصه علىّ منذ أربع سنوات تقريبًا ، ولم أكن قد نسيته ، ثم أضاف إن المجتمع قد أخطأ حين سمح للمرأة بالتعليم ومنحها جميع الحقوق التى يتمتع بها الرجل انطلاقًا من افتراض المساواة الكاملة بين الجنسين ، وتساءل فى شبه مرارة : ''ولكن هل هذا افتراض صحيح ؟ إذا كنا نبنى هذا الاستنتاج أو تلك النتيجة على أساس 'مقدمة منطقية' غير مؤكدة الصحة ، فلن تكون النتيجة مؤكدة الصحة !'' وقلت له إنه يستخدم منطق أرسطو فيما لا يصح فيه منطق أرسطو ، فالمقدمة لا تفترض المساواة الكاملة فى كل شىء بل فى الحقوق والواجبات فقط وهى التى لابد أن يتساوى فيها جميع أبناء البلد الواحد فى المجتمع المدنى ، وأمام القانون ، وكنت سأمضى فى شرح ما هو معروف حين قال لى فجأة : ''المرأة هى المرأة فى كل عصر وفى كل مكان ، وهى لا تريد إلا امتلاك الرجل بدافع الأمن لحياتها ، فغريزة الإنجاب والأمومة قائمة ومركّبة فيها ولو لم تنجب ! إن علاقتها بالآخرين علاقة من تخرج الإنسان من بطنها إلى الحياة فتتصور أنه جزء منها وينتمى إليها ، سواء كان رجلاً أم امرأة ، ومن هنا جاء حب الامتلاك والسيطرة !''

وطلبت المـزيد من الشاى ، وانطلق هو فـقص علىّ كيف تتنازعـه امرأتان ، وهو يشعر بأنه ظالم لكليهما ، وأن ما تطالبانه به أكـثر من طاقته البدنية ، فلم يعد شابًا ، وأنه أخطأ مرتين ، الأولى حين سـاعد زوجته الأولى (التى ما زالت فى عصـمته) على الارتقاء فى سلم التـعليم إلى نهايته ، فـانقلبت عليه وأصـبحت لا تريده أن ينظر إلى سواها من البشـر ، ولا أن يفكر إلا فيها، وكانت تراقبـة مراقبة مضنية وتحـرمه أحيانًا ممـا هو حق له ، فتمـرد وأعلن حريته بالزواج من هدى، وكـانت المرة الثانيـة حين تصور أن 'هدى' سوف تعطيه حقوقه دون تنغيـص أو امتلاك، فإذا بها نسخة مكررة من زوجته الأولى مع فارق أسـاسى هو أنها لم تنجب فأصبحت تعتبره ابنًا لهـا ، وتصحبه معـها فى كل مكان ، ''مثلما حـدث عندما زرناكم فى المنزل !'' فـقلت له إننى كنت أتصور أنك أنت الذى أصـررت على اصطحابها ، فـضحك ضحكة مـريرة وقال : إن أخشى ما أخشاه هو المعاش (التقاعد) ، فأنا الآن أتهرب منها بحجة العمل ، وأما حين أتقاعد فكيف أهرب من قبضتها ؟ ومن ثم كرر 'محسن' طلبه لى بأن أتوسط لدى من أعرفـهم فى مكتب الوزير ، فهو يعـرف أننى أعرف الكثيـرين ، ويعرف أننى 'خدوم' ولن أتأخر عن فـعل ما أسـتطيع لمساعـدته ، وعندما بدأت أرد على حـججه الخـاصة بالامـتلاك وأنانيـة المرأة لأقـول له إن الرجل هو الذى لا يريد لأحـد أن يشاركـه 'ما يملك' ، سمعـنا التصفيق فى الصـالة ، فنهض كأنما لإنهاء الحـوار احتجاجًا بانـتهاء المسرحيـة ، وإن كنت واثقًا أنه يتهرب من مواجهة مـا كان واضحًا لى - أو ما اتضح لى آنذاك - كل الوضوح ، ونهـضت أنا أيضًا ولكن المسـرحية لم تكن قـد انتهت ، فخطا خطوة مترددة نحو الباب ثم مال علىّ هامسًا :

''هل تعرف أنهـا كانت محجـبة ؟ وأننى أنا الذى أقنعتـها بالتحـرر من الطرحة استنادًا إلى أقوال الإمام الغزالى - رحمـه الله - فلا يوجد شىء اسمه الزى الإسلامى ، بل توجد الحـشمة أو لا توجـد ، والحشمة قـد تكون فى الملبس أو فى السلوك أو فى داخل النفس ! أنا الذى حـررتها من التظـاهر وعلمتـها فـضيلة الصـدق مع النفس . . حررتها فاستعبدتنى بكل معنى الكلمة ! أليست هذه مفارقة ؟''

وقلت له وهل فكرت فى أن تتركها ؟ وشـرحت بسرعة ما أعنى كى لا يغضب : ''أقصد إن كنـت ترى فى العلاقة استـعبادًا فتحـرر منها !'' فـإذا به يقـول فى أسى : ''ليتنى أسـتطيع ! لقد أعادت صيـاغة حياتى فى هذه السنوات الـعشر ، فأنا أرى فـيها

شبابى، ولو أنها شـارفت على الأربعين، إنها امرأة نادرة، ولن تتكرر !" وأدركت أنه قد وقع هـو الآخر فى 'بحر العسل' دون أن يدرى، ودون أن تخطر العـبـارة ببـاله ! وانتهت المسرحية، وخرجت 'هدى' فاطمأنَّتْ على أنه كان معى طول الوقت، وتأكّدَتْ أننى حصلت منه على رقم التليـفون، ثم خرجا مـعًا، وخرجت وحدى - لم أكن أريد أن أسمع تعليـقاتٍ أو انتقـاداتٍ أو حتى مدائح ، إذ شغـلتنى كلماته ، مثلمـا شغلتنى كلمات 'هدى' من قبـل ، وتمنيت فى تلك اللحظة أن أكون كـاتبًا روائيًا حتـى أسجل التفاصيل التى ازدحم بها ذهنى ، وأن أملأ فجوات القصة من نبع خيالى ، فما أكثر ما كنت أجهله - خصوصًا عن الزوجة الأولى والابنة - وما أكثر ما كنت أريد أن أعرفه !

وتأملت ظل الزوج وزوجته وهمـا يسيران جنبًا إلى جنب خارجـين من المسرح ، وتابعتهما ببصرى وهما يركبان السيارة ثم ينطلقان بصعوبة إلى ميدان العتبة ، وقلت فى نفسى إن 'الوعى' هنا جحيم أُلقى بهما فيه ، سواء كان ذلك بإرادتهما أم رغمًا عنهما ، فكل منهما يعى حاله تمامًا ولا يخدع نفسه قط ، وكل منهما يحتمل لظى الوعى وشواظ لهيبـه ، وكل منهما يدور فى 'حلقة مفرغة' لا نهاية لـها لأن الوعى يمنع من كـسرها ويحافظ على استـمرارها ، وقلت فى نفسى ، بعد أن انصرف الجمـهور وعلى وجوههم تعبيرات متباينة ، كم منهم يدور فى دورة الوعى الجهنمية نفسها ؟ ترى ما حال الزوجة الأولى التى يصورها كل منـهما فى صورة شـيطانية ؟ ترى ماذا تفـعل فى هذه الليلة مع ابنتهـا التى تكابد أهوال الثانوية العامـة ؟ ترى ما دخل العامل المـادى (المال) فى هذه العلاقـة أو هذه العلاقـات المتشـابكة ؟ وعندما عـدت إلى المنزل جلست إلى المكتب فسجلت ملخصًا وافيًا لما دار فى ذلك المساء ، ولم أعد إليه إلا بعد سنوات !



٦

لم يكتب لى أن أعرف المـزيد من التفاصيل عـن قصة 'هدى' و'محسن' قبل أن أشهد نهايتها ، وإن كنت رأيت نظائر لها فى بعض ما شهدته من أحداث ، فهى تشبه فى بعض ملامحهـا قصة صديقة لأخت زوجتى ، وقصة صديقٍ لى أعـرفه منذ الصبا ، وفى كل قصة أجد أن 'جحيم الوعى' أفظع كثيرًا من الأقنعة الرحيمة التى تحدثت عنها

فى الفصل الأول ، فعلى نحو ما يقول ت. س. إليوت فى إحدى مسرحياته ، لا يستطيع الإنسان أن يحتمل جرعة أكبر مما ينبغى من الواقع ، وكلما ازدادت الجرعة ازداد نشدانًا لما يخفف منها أو يساعده على تحملها، إما بالتدرع بالقناع أو بالهروب إلى ما يحميه من الواقع ، وأنا نفسى ألجأ إلى العلاجين، فأحيانًا ما أرتدى قناع الأديب المبدع ، على صغر حظى من الموهبة الأدبية أو الإبداعية ، أو أهرب إلى مشاغل الترجمة والمعرفة هربًا من الواقع الذى يجثم على صدرى منذ أن عربد مبضع الجراح فى وجهى فشوّهه ، وكنت بعد فى مطلع الخمسينيات من عمرى أضع الخطط للمستقبل وأرسم أحلام الإنجاز والنبوغ ! لكن الوعى لا يترك لى فرصة الهناء بالقناع أو بالهرب ، فأتحول فرارًا من نفسى فى أحيان أخرى إلى الناس ، فأجد فيهم العزاء والسلوى، وأجد فى تأمل ما يزخر به الماضى من الأحداث ، مهما يكن خطرها ، قدرة خاصة على التسرية والتلطيف ، ولابد أن صنعة المسرحى قد ساعدتنى على ارتداء أقنعة كثيرة ، واستعارة أقنعة الكثيرين ، أو تقمص أدوارهم ، نشدانًا لحيوات أخرى داخل نفوسهم ، فحياة واحدة لا تكفى ، وزمن الرومانسى كثافة وعمق كما ذكرت من قبل .

لم يكتب لى أن أتوسط لدى أحد فى مكتب الوزير حتى يمنح محسن المد الذى كان يطلبه، إذ شُغلت بالمرض طيلة عام ١٩٩٣، وعندما عدت إلى الحياة كانت الدنيا قد اختلفت فى عينى، وكانت الأحداث السابقة للمرض تلوح لى كأنما وقعت فى زمن سحيق، وكنت أطلق على هذا الزمن 'ما قبل الطوفان' (pre-diluvian) فكأنما كنت أشعر أننى قد نجوت من طوفان نوح فى السفينة (الفُلْك) وأننى ولدت من جديد فانقطعت صلتى تمامًا بما كان من قبل، أو بما كان يمكن أن يكون، ما دام العالم قد اختلف، فكأنما انكسرت الدوائر ، وانقطعت المسائر والمصائر! ولكن ذلك كان- كما اتضح لى من أوهام الصدمة وحسب، فدوائر الحياة مستمرة، و'الحلقات المفرغة' قائمة، والأقنعة مزدهرة ، والوعى يُشع لظاه فيشوى الوجوه ! ولم أتبين ذلك إلا بمحض المصادفة ذات يوم أثناء زيارة للتجارب المسرحية التى كان محمد جابر المخرج يجريها لترجمتى ليوليوس قيصر (مسرحية شيكسبير الرائعة) فى مسرح الطليعة، فى أواخر التسعينيات ، إذ لمحت عينى فى الصالة وجهًا يشبه وجه هدى وبجوارها شخص لا أعرفه ، فأنعمت النظر لكننى لم أتحقق مما رأيت وشغلتنى البروفة عن معاودة الكرّة .

وعندما أضيئت أنوار الصالة وجدت 'هدى' بشحمها ولحمها مقبلة علىّ هاشة باشة، ومن خلفها شاب فارع الطول توحى ملامحه بالقرابة لمحسن ، وإن كان فى مقتبل العمر قوى البنيان مفتول العضل ، وعقدت الدهشة لسانى فلم أدر ما أقول ، ولكن 'هدى' انطلقت تتكلم عن المسرحية وجمال الترجمة ، ثم قالت كأنما بعبارة عارضة ''كانت من أحب المسرحيات إلى قلب المرحوم ''محسن !'' وأدركَتْ بفطنتها أننى لم أكن أعلم بوفاته فأسرعت تضيف ''لم يُطقْ صدمة المعاش فمات !'' وتمتمتُ أنا 'الله يرحمه' و'البقية فى حياتك' ولكنها تجاهلت مجاملتى وتحولت إلى الحديث عن مرضى فأكدت لى أنها كانت دائمة السؤال عنى ، ولو أنها لم تتمكن من الاتصال بى بسبب غيابها خارج مصر ، إذ صَحِبَتْ زوجها الحالى (وأشارت إلى الشاب مفتول العضل) فى إعارته إلى بلد عربى شقيق ! وظللتُ أسمعُ ولا أكاد أتكلم حتى أمر المخرج بعودة الممثلين إلى المسرح ، واعتذرَتْ هى عن متابعة البروة قائلة إن لديها مشاغل ملحة وخرجت مع زوجها إلى حيث يعلم الله !

وتساءلت فى نفسى ترى كم عمرها الآن ؟ لابد أنها قاربت الخمسين ! لكننى أحسست بأن الهواجس الخبيثة هى التى تُملى ذلك الرقم فاستعذت بالله من الشيطان الرجيم وقلت ما أقوله أحيانًا حين أسمع تلك الهواجس 'ربنا يسهل لها ! خلْقُ الله فى مُلْك الله !' ولكن خبر وفاة 'محسن' هزنى هزًا ، ولا أذكر أننى اهتززت لوفاة أحد قبل ذلك إلا عندما قرأت نعى صديقى عبد الفتاح العدوى قبل عشر سنوات ، وعلمت فى غضون شهور من وفاته بوفاة الدكتورة سامية أسعد - الأستاذة فى قسم اللغة الفرنسية وزميلتى فى 'فريق الترجمة الطائر' (أى العامل بالمؤتمرات الدولية) إذ تبرز هذه اللحظات فى أعماق وعيى كلما استغرقنى تيار الحياة وجرفتنى الأحداث اليومية المتلاحقة بتفاهاتها التى لا تنتهى .

نعم ، الوعى هو جحيم الإنسان ، لأن أثقاله أكبر من طاقته البشرية ، وأنا - كما قلت - أرى أنه الأمانة التى عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ، الظلوم الجهول ، فالهاجس الخبيث كان يقول لى إن 'هدى' هى الأرض الأم (a mother earth) وهى الصورة الأدبية التى اختارها الشعراء للتعبير عن رحم الأرض الذى يخرج منه الإنسان ليعود إليه ، وأحيانًا ما

يوازنون بينه وبين 'الدنيا' التى يصورونها فى صورة المـرأة المهلكة (femme fatale) أى التى تغرى فتغـوى وتلتهم فتزدرد ، ومن منّا لم تشغله الدنيا حتى أنسـته نفسه ولو فى لحظة قد تمتد فتصبح دهرًا ، وقد تقصر فتمر مر السحاب ، وأما الهزة التى أصابتنى عندما بلغنى نبـأ وفاة 'محسن' (ولو من سنوات طويلة) فسـببهـا أن شيئًا ما فى أعـماق وعيى كان يخـشى تلك النهاية المفاجئة ، وأمـا ارتباط تلك الهزة بنبأ وفاة عبـد الفتاح العدوى وسامية أسعد ، فـهو أن الأول كان يعمل بعد عودته من الإعارة فى إدارة مكتب للإعلام (للنشر والتـرجمة) وكان قد كلف الدكتـورة سامية بترجمـة كتاب عن 'البهائية' إلى اللغة الفـرنسية ، وكلف الدكـتورة سلوى كامل أستـاذة اللغة الانجليزية فى قـسمنا والمترجمة الفذة (والشاعرة المرهفة) بترجمته إلى الانجليزية ، وكانت 'هدى' تعمل فى المكتب 'بعض الوقت' - وفجأة انهار المشروع لأسباب قدرية ، فلم يحصل المترجمان على حقوقهما، ولم ينشر الكتاب ، وسافرت الدكتورة سلوى فى إعارة وتوفى 'محسن'.

كيف اجتمعت هذه الأحداث فى أعماق وعيى وأنا أسمع نبأ وفاته ؟

إنها صورة الأرض الأم التى تدعو أبناءها إلى العـودة بأن تشغلهم عما وراءها - ما قبلها وما بعدها - كما يقول وردزورث (فى قصيدة **خاطرات الخلود** - الفقرة ٦) :

الأرض تملأ حجرها بملاذّ من ملاذّها !
فتلك من أشواقها
وتنتمى لطبعها
وبلمسة من فكر عقل الأمّ
ولغاية قد لا تُذَمّ
تقوم تلك المرضعة
حتى وإن تك ساذجة
بفعل ما فى طوقها لتجعل ابنها
بل من تبنّته هنا
أى تجعل الإنسان قاطنها

لا يذكر المجد الذى عرفه

والقصر الامبراطورى بعدما غادره !

والأرض تتمثل فى الأدب فى صورة من تهب الحيـاة (الأم) وتسلبها (الزوجة) حتى تهبها من جديد (للابن) ولذلك فـهى صورة دائرية تنتمى إلى الأنماط الفطرية التى سبق أن تحدثت عنها ، والمعروف أن 'النمط الفطرى' يتضمن المفارقة فى كُنهه ، فالأرض هى التـراب الذى خلق منه آدم ﴿ **كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ** ﴾ (آل عمـران - ٥٩) ، وهو مصدر الحياة لنا لأننا نأكل من زرعـه وثمره ، ويأكل منه الحيوان الذى نأكله ، وهـو ما نعود إليه ونتحول إليه ، ولله در أبى العلاء المـعرى الذى يذكرنا بهذه الحقيقة ، وهو المعنى الذى عاد إليـه عمر الخيام فى رباعـياته التى أبدع رامى ترجمتـها نظمًا ، والماء كذلك 'نمط فطرى' فهو ذو حركة دائرية ، فالإنسان يخلق من ماء - ﴿ **مِن مَّنِيٍّ يُمْنَى** ﴾ (القيامة - ٣٧) وكل شىء حى خلق من مـاء ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ** ﴾ (الأنبياء - ٣٠) ولكن الماء أيضًا هو الذى أغرق من كفروا بنوح عليه السلام ، ﴿ **وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ** ﴾ (هود - ٣٧) والبحر صورة للضياع (مـثل الصحراء) والتيه لا للموت فـحسب ، وقس على ذلك أنمـاطًا فطرية أخرى مثل الـنار والهواء وغيـرهما ، ولكن الذى أرمى إليه من هذا الاستطراد هو قدرة الوعى عـلى احتواء الأحداث فى صور فطرية تربط بينها برباط قـد لا يخطر ببال غيـر المتخصص ، وأذكـر أننى شاهدت مع نهاد زوجتى فيلمًا سينمائيًا فى أواخر الستينيات فى انجلترا يعتمد فيه المخرج على صورة الأرض المزدوجة الدلالة (ambivalent) فتداعت إلى ذهنى صورها فى الأدب واندمجت فى أحداث الفـيلم الذى كان يصور - عـلى المستـوى الواقعى - تدميـر امرأة لرجل ، وأحببت الصـورة وتداعياتها ، ولكن نهـاد قالت لى إن الفيلم يعتمـد على الصورة التى ابتكرها خيال الـرجال ولا يقبلها خيـال المرأة ، أى إنها كانت صـورة من وجهة نظر ذكوريـة ، وكنا آنذاك فى مطلع حركـة نصرة المـرأة (feminism) أو الحركـة النسوية الجديدة ، وعندما قلت لنهاد إن الأدب العالمى كله يؤكد هذه الصورة ، ويساند اعتبارها من الأنماط الفطرية ، ردت قـائلة إن ذلك الأدب كتبـه رجال حلا لهم أن يلقـوا بأثقال إحباطاتهم على المرأة .

وقد يكون ذلك صـحيحًا ، فلماذا أعـفى محسن من مسـئولية ما أصـابه ؟ ولماذا أستبعد زوجته الأولى من الصورة ؟ هل لأننى رجل اسـتوعبت أدب الرجال فحدد مسار

وعيى بالأرض الأم الـتى ابتدعهـا أدباء من الرجال ؟ نعم ! ها أنذا أعـود إلى الوعى ، ولذلك نشط من نقـاد الأدب اليوم من يصبـون اهتمامـهم على قضيـة تشكيل الوعى ، ويجعلون للقارئ دورًا مهمًا فى مسار وعى الكاتب ، وهو ما يسمى بمنهج نقد 'استجابة القارئ' ، وفى ظنى أن كـولريدج قد سـبق المحـدثين (ومن قبل الجـميع أبو الـعلاء المعرى) فى الإشارة إلى ذلك ، إذ قـال إن كل كاتب يشارك فى تشكيل 'الذوق' الذى يلزم لتـذوق إبداعاته ، و'الذوق' كلمة قـديمة لمـا أفضّل أن أسمـيه 'الحسّ الجمالى الكامن فى الوعى' - وسوف أفصّل القول فى ذلك .

إن قارئ قصة 'هدى' ، على افتقـارها إلى المقومات الفنية ، فهى لا تعـدو كونها شذرات مما عرفته وشهـدته ، قد يتعاطف معها لأنه عرفها ، فوعيه بمـشكلتها التى قد تبدو عادية متكررة يقـربه منها ويرغمه على التعاطف معهـا ، وقد يتعاطف مع 'محسن' لأنه عرف عنه ما يكفى ، أى إن وعيه استـوعب قدرًا كافيًا من العلم به ، لكنه ربما لن يتعاطف مع الزوجة الأولى لأنه لا يعـرف عنها إلا ما قالته 'هدى' وما قاله 'محسن' ، وقد يكون فى قول أحدهما أو كلاهمـا قدر من الكذب ، بل قد يكونا صادقين ، ولكن المعـرفة بالزوجة من وجهـة نظرهما وحدها تقـيم لها فى وعى القارئ كيـانًا ناقصًا أو تكتنفه الظلال ، وهكذا فإذا اعتبرنا هذه الحادثة الواقعية قصة فنية وجدنا أن 'مذاقنا' (أو ما أصبح يسمى 'بالذائقة') - وهو الذى يتشكل من عـدة عوامل ، بعضها مـستقى من التراث الأدبى وبعـضها مـستقى من الأعراف السـائدة فى المجتـمع - سيخـضع لوعينا بحياتها كـما صورتها 'هدى' وكمـا صورها 'محسن' دون سواهـما ، وسوف تخـضع أحكامنا النقـدية (ولا أقول 'الخلقية') لما تشـكل فى الوعى فقط ، وكل مـا عدا ذلك يصـبح خـارج دائرة تفكيـرنا أو إحـسـاسنا ، وذلـك هو جـوهر مـذهب الظاهراتيـة (phenomenology) الذى اقترن باسم الفيلسوف هوسرل - كـما ذكرت فى التمهيد . ومعنى ذلك أن الأديب يستطيع التحكم فى 'الذائقة' ، مهما يكن الاختلاف البادى بين المتلقين فيها ، أى على تفاوت درجات نموها أو قصورها لديهم ، حين يحكم السيطرة على ما يتيحه من المادة التى يستطيع الوعى استـيعابها فى غضون قراءة العمل الأدبى أو تلقيه (سماعه أو مشاهدته) .

ولقد تعمدت أن أكون محايدًا قدر الـطاقة فى نقل رواية كل من هاتين الشخصيتين لما حـدث له ، خصوصًا عندمـا قابلت 'هدى' فى مسـرح الطليعة وأبلغتنى بنبـأ وفاة

'محسن' - لكننى أشعـر الآن وبعد أن فرغت من رواية الحدث المـجرد أننى كنت فى أعماقى حزينًا على الرجل ، وأننى لم أبذل الجهد اللازم للـتعاطف معها أو مع الزوجة الأولى وابنتهـا ، وما أقصـد من ذلك كله إلا تأكيد صـحة ما أذهب إليـه من أننا نجد حياتنا الحقة فى الوعى ، وإذا صدق البوذيون فى تصور خلود الوعى ، رغم محاولاتهم الدائبة لتـحقيق الفناء ، فـإنهم يكونون قد اقتـربوا من فكرة الخلود التى أرشدتنا إليـها الأديان السماوية ، وأرشدتهم إليها الفطرة الإنسانية ولو لم يرسل إليهم رسول :

وأختتم هذا الفصل الذى أرهقنـى شعوريًا بإبداء رأى لا أظنه جـديدًا ، ألا وهو أن حركة الأدب فى أى مجتـمع تتجلى فيها حركة وعى هذا المـجتمع ، بمعنى أن الظواهر الأدبية قد تكون دليلاً على مسار معـين فى وعى الأدباء والقراء ، فغلبة النثر على الشعر فى عالمنا العـربى يتجلى فيهـا غياب طرب الإيقاع - وهو الطرب الذى تـميز به الأدب العربى على امتـداد تاريخه الطويل، حتى فى النثر الـتراثى - وغياب الإحسـاس بجمال النظم يدل على تغـير مـعـيّن فى الوعى - وهو مكمن 'الذائقة' كمـا أسلفت - فالذى يكتب شعـرًا منثورًا ويظنه منظومًا (وما أكـثر هؤلاء) يعانى من خلل فى وعيـه بالإيقاع المطلق ، ومن يبتـعدون عن تأمل جمال الضغط فـى أسلوب الشعر (condensation) أو سمّه كثافة أسلوب الشعر (وهم الغـالبية) يشون بخلل فى الوعى بالبسط والتكثيف ، وكل ذلك من سمات 'ما بعد الحداثة' ، فالخلل فى' العلامات' التى تسود المـجتمع يؤدى إلى خلل فى الوعى بمعانى العلامات ، ومن ثم بمعانى القيم ، إلى آخر ما سبق لى الحديث عنه من غلبة الحكم باللونين الأبيض والأسود ، وغياب رهافة الإحساس بما بينهما من درجات - لا يستطيع إلا شحذ الوعى أن يوصلنا إليها .

الفصل الخامس



أبدأ هذا الفصل الذى سوف أحكى فيه حكايـات القوة تفريقًا بينها وبين القدرة – بفقرة طويلة من قصيدة **خاطرات الخلود** للشاعر وردزورث، وهى التى سبق أن اقتطفت منهـا فقـرتين، إذ إن عنوان هذه القـصيـدة يشى بمـوضوع هـذه الحكايات بل وبفكرة الواحات كلها، وربما سنحت لى الفرصة لترجمة المزيد منها. هذه هى الفقرة التاسعة فى ترجمة تكاد تكون حرفية (من بحر الخبب وهو الصورة الحديثة للمتدارك أو المحدث) :

يا فَرْحُ ! أيا من تحيا فى جمر الصدر
وتؤكد أن طبيعتنا تذكر ما مرّ وفرّ !
ذكر الأعوام الماضية المنسية
يُنبتُ فى نفسى بركات أبدية
لكنى لا أرفع آيات المدح وألحان الشكر
إلى ما هو أجدر أن يوسم بالبركة
كالبهجة والحرية
ديدن كل الأطفال الساذج فى العمل أو الراحة !
فهما كالطائر يخفق دومًا بقشيب الريشْ
فى جنبات الصدر !
بل أشكر أسئلة صمّاء عنيدة

مما يطرحه الحس
أو يمثل خارج هذى النفس
أسئلة تَسَّاقط منا بل تتلاشى
ومخاوف خاوية بهمة
بسريرة مخلوق هام على وجهه
بعوالم وهمه
وغرائز عُليا واجهها الطبع الفانى
فارتعد كرعدة قلب الجانى
إن فاجأه إنسان !

أشكر أولى أربطة الحب
أو ما غام بذكرى القلب
أيا كانت تلك جميعًا !

إذ ما زالت نبع ضياء نهارى
والضوء السائد فى إبصارى
نستند إليها نعتز بها ولها من فرط القوة
ما يجعل ضوضاء سنين العمر
تبدو لحظات بكيان الصمت السرمد
وهى حقائق تصحو كى لا تفنى أبدا !
لن تفلح هبات القلق ولا السعى المجنون
بل لن يفلح رجل أو بعض صبىّ
أو قل أى عدو للفرح الطفلىّ
فى طمس معالمها أو تدمير هياكلها يومًا ما !

وإذن فى موسم صفو الجو
مهما يكن الشط بعيدًا عنا
نجد الأرواح وقد شهدت ذاك البحر الخالد
فلقد جئنا منه هنا
ولنا أن نرجع فى غمضة عين

لنرى الأطفال على الشاطئ تلهو
ولنسمع صوت الأمواه الجبارة أبدًا يعلو !

أقول إنهـا ترجمة شبـه حرفية ، على مـا فيها من الوزن والقـافية محـاكاة للنص الأجنبى ، لأنها تلتزم المعنى التزامًا صارمًا ، وما أحسب النثر بقادر على إخراج ترجمة أدق ، ولم أسمح لنفـسى بقدر من الحـرية يزيد عما يقـتضيـه فن الترجمـة من نشدان للمعنى وإن تغير بناء الجملة ، ولن أفيض فى ذلك فكتبى فى الترجمة تفى بالغرض ، ولكننى قصـدت من إيراد هذه الفقرة أن أمهـد لحديثى عن 'القوة' وهى الكلمة العربية التى نترجم بها كلمتى (power) و (force) الانجليزيتين ، على ما بينهما من فروق ، والتمييز بينهما جـميعًا وبين كلمة القدرة - أو المقدرة - أى (ability) أو (capacity) وهى تشترك جميعًا فى عنصر واحد من عناصر المعنى لنا أن نطلق عليه عنصر 'الطاقة' أو 'الطوق' ، وإن كـانت الكلمتـان الأوليـان تنصـرفان إلى الصـورة الفـعلية لهـا ، والأخـريان إلى الصورة الكامنة - بـمعنى أن القـوة ، سواء كـانت power (السلطة/ النفوذ/ الطاقة الكهـربية !) أو كانت force (القوة المـادية - كالعنف violence - أو القوة الجبرية - كالإرغام compulsion) تتخذ أشكالاً ملموسـة فى واقع الحياة ، فذو السلطة يتحكـم فى غيره فيـحدد مسـار سلوكه ، أو يأمره فـيطيع ، ومن يستخـدم القوة المادية (كالقوة العـسكرية أو البدنية) يثبت صورها فى الواقع المـحسوس أو الملموس ، وأما الطاقة (وهى التى أصبح لها مرادف جديد هو energy) فهى ما يستطيع الإنسان أو الشىء أن يفعله ولو لم يفعله، فهى كامنة فى كل شىء ، وهـو ما كان شوبنهاور يعنيه بالإرادة أى (will) أو (volition) بمعنى أن لكل شىء طاقـة كامنة وذاتية فيـه ، وما حركة الكون إلا ثمرة لتصارع تلك الإرادات أى القوى أو القدرات أو الطاقات الكامنة ، والمناطقة يفرقون هنا بين الموجود 'بالقوة' (potential) أى الذى لديه الطاقـة على أن يوجد وبين المـوجود 'بالفعل' (actual) أى ما له صـورة مادية مـحققـة ، ولكن هذا الحديث قد يخرج بنا عما قصدت إليه ، فلأعدْ إلى ما يقوله وردزورث ، وهو ما يعنينى فى هذا الفصل ، أى إن الإنسان لديه الطاقـة النفسية التى يستطيع بهـا إدراك ما يتجاوز الحواس ، فيستشرف آفاق موجودات قد لا يعترف بها العلم الطبيعى الحديث (modern natural science) الذى ولد فى أواخر القرن التاسع عشر ، مثل الموجودات الروحية، أو المـوجودات الفكرية (مـثل أنساق القـيم) ، أو النفـسيـة (مثل المـشاعـر والروابط الإنسانيـة) ، أو حتى ما نسمـيه أشكال الوجود الخفـية ، وما يسمـيه وردزورث أشكال الوجود المجهولة (unknown modes of being) والشاعر يقـول إن ذكريات الطفولة

مصدر قوة (power) بمعنى أنها توقظ الطاقة الكامنة فى الإنسان على رؤية سنوات العمر بصخبـها وضجيجهـا فى صورة لحظات فى كيان السكون أو الصـمت السرمدى ، وهو يصفها بأنها 'حقائق' إن استيقظت فلن تفنى أبدًا ، بمعنى أن ما يَخْبَرُهُ الطفل من رؤى ذات طلاوة تهبه 'القدرة' على استشـفاف أشكال الوجود المجـهولة ، وهى القدرة التى تتحـول إلى قوة لأنها تصـبح طاقة دائمة أو كـما يقول لأنهـا إذا أشرقت يومًا فى نفس الإنسان أو فى روحـه فلن تغرب أبدًا ، ومن ثم فقد كـان يحاول أن يفسر فى الـفقرات الأربعة الأولى من القصيدة المشار إليها ، والتى كتبها فى عام ١٨٠٢ ، سر انطواء هذه اللحظات أو اختفـائها ، وكان يعتبرها المـسئولة عن إلهامه الشعـرى ، وأنهى الفقرات الأربع بالتساؤل عن فرار 'شعاع الرؤى الغامر' أو البريق الذى يكسـو الوجود أو قبس النور العلوى الذى يهب الطفل الإحـساس بالانتماء إلـى الكون انتماءً روحيًا أصـيلاً ، وهو نُورٌ مادىّ يفصح عن نور علوى ، وبعد عامين عانى فيهـما ما عانى، وكتب فيهما جانبًا من سـيرته الذاتيـة التى أطلقت عليهـا زوجتـه (مارى هتشنـسون) عنوان **المقدمة** (باعتـبار أنها كـانت تمثل 'مقدمة' ملحـمـة لم يكتب له أن يسـتكملهـا عن 'الإنسان والطبيعة والمجتمع') عاد إلى القصيدة فكتب الفقـرات التى سبق لى إيراد بعضها والتى تبدأ بالبيت (ما مولد الإنسان إلا رقدة - نومٌ ونسيان) حتى يفسر لنفسه ، كما قلت ، ما اعتراه من نقصان . وهذان هما البيتان اللذان ينهى بهما الفقرة الرابعة :

Whither is fled the visionary gleam,

Where is it now, the glory and the dream ?

تـرى أين فـرّ شـعاعُ الرؤى الغامـرُ ؟

وأين هو الآنَ والمجدُ والحُلُمُ الباهرُ ؟

أى إن الشاعر كـان يحاول عن طريق **الفكر الواعى** تفسيـر ما أدركه **ببصيرته** من انفصال 'القوة' عن 'القدرة' ولم يكن يظن أنهما ينفصـلان ، وكان يحاول أن يسترجع القوة بالعودة إلى مكامنـها (الطاقة أو القدرة لدى الطفل) أى باستـرجاع الذكريات التى ارتبطت بها ، وكـانت سيرته الذاتيـة محاولة لرأب الصـدع بين ما هو كامن (مـوجود 'بالقوة') وما هو متحـقق (موجود 'بالفعل') وذلك ما يفعله كل من يكتب سـيرة ذاتية أدبية ، وأعدّ نفسى - بكل تواضع - بين هؤلاء ، فأنا أعرف ما ضاع من رؤى الطفولة ذات الكمال والجمال ، وإذا كنت أسرفت فى رصد الأحداث فى الأجزاء الثلاثة الأولى

من السيرة الذاتية الأدبيـة ، فما كان ذلك إلا إقرارًا بما ضاع ، وكثـيرًا ما أتأسى عندما أذكر لحظة من اللحظات التى مضت إلى الأبد ، شـهدت فيها ما شـهدت ، وأحسست فيها ما أحسست ، ثم انقضت كأنما إلى عدم ، لكنها أحيت فى النفس ما يقول الشاعر إنه 'يصحـو كى لا يفنى أبدًا' ، وما تأمـلاتى الآن إلاّ استكمال للصـورة التى حاولت رسمها فتفاوت حظى بين التوفيق والإخفاق .

وبين يدىّ مذكـرات دونت فيـها كيف يطغى الـسعى لتحـقق القوة المـادية (المال والجاه والنفوذ) على القدرة النـفسية فيطمسها طمـسًا ، ولدى نماذج لأناس كانت لديهم قدرات فنية أو ذهنية تضاءلت أو تراجعت أو هجعت فى غمـار السعى المحموم لتحقيق ذواتهم فى هذه الدنيا ، وكان انطواء تلك القدرات لديهم إيذانًا بـإنطواء القدرة النفسية ، فإذا بهم (وقـد تقطعت بهم سبـل التواصل مع منابع الطاقـة فى النفس) يضعـفون عن الصمود فى وجه المـحن ، فيعجزون عن التصدى لنوائب الدهر على الرغم مـما حققوه من مظاهر القوة المادية ، ولقـد انتهيت عندما أعدت قراءة هذه المـذكرات إلى أن القوة الحقيقية (وهى التى يسميها وردزورث **Strength** أى عكس الضـعف) لابد أن تنبع من إنماء القدرات الفطرية الـتى يهبها الله لعبـاده ، وعلى رأسها القدرة النفسـية – أى طاقة النفس على التأمل ، والحس الجـمالى ، واليقظة الروحيـة (سواء أسميناها الضـمير أو الذمة أو الورع) – ومنها ينبع تكامل القـدرات الأخرى الباطنة وإمكان نموها ، أى إننى انتهيت إلى ما يبدو أنه مفارقة وما هو كذلك ، أى إلى أن **مصدر القوة الحقيقية** يكمن فى دحر **نزعة القوة المادية** عن طريق تنمية الطاقـات الباطنة وعدم تجاهلها مـهما تكن الظروف ، وإن لم يستطع المرء المـوازنة بين الحرص على تحقيق القوة المـادية وتنمية الطاقـة النفسيـة ، غلبتـه الأولى دون مراء ، فـهى ذات جبـروت ، وهى – كمـا يقول تشيكوف– ''تبتلع الإنسان ابتلاعًا'' ، فهى تـتسلل أولاً كأنمـا تستـرق الخطى إلى داخل الإنسان ، ثم لا تلبث أن تستولى عليه ، كما يتجلى فى الحكايات التى سوف أحكيها، وهى حكايات أناس لا يزال بعضهم يعيش بيننا وأتمنـى مخلصًا ألا أجور على أحداثها بالاختـصار المـخل والحذف (ممـا يحتمـه سيـاق الرواية) فى سبيل إيـضاح الفكرة ، فالوضوح مبـتغاى فى كل ما أكتب ، وأنا أشعر الآن – بعـد أن حققت بعض المرامى الأدبية– أن من واجبى أن أنقل إلى الأجيـال الجديدة خبرات 'القوة' و'القدرة' ، لا فى

عالم الكتابة الذى أنتمى إليه وحده ، بل فى عالم الناس- أى عالم البشر كلهم ، عالم الأحياء الذين أحبهم وأتعاطف معهم وأنتمى إليهم فكرًا وقلبًا مثلما أنتمى بدنًا وروحا .

فأما الحكاية الأولى فهى حكاية رجل وهبه الله موهبة فنية فذة ، فكان يستطيع أن يتأمل الحياة والناس تأملات تتسم بالأصالة والجدة ، وأن يضع هذه التأملات فى صور نابضة تصل بسهولة إلى قلوب القراء ، وكانت تلك فى نظرى قدرة أو طاقة فنية فذة ، إذ كان يستطيع أن يتحدث لغة الناس 'وفكر الناس' بمعنى القدرة على 'التواصل الحى' مع الجمهور ، فيصل إلى قلوبهم ، ويمس اهتماماتهم الأساسية فى كل ما يكتب ، وكان من أهم ما قربنى إليه فى بواكير حياتى الأدبية 'قدرته' على التمييز بين القناع والواقع ، فإذا تزلف إلى أحد المسئولين قال لى إنه كان يفضل لو أن الحياة لم تتطلب التزلف لكن الواقع يقتضيه ولا مهرب من الواقع ، وقد شهدته ذات مساء يداهن موظفًا كبيرًا أو قل مسئولاً كبيرًا (رحمه الله) فإذا به مبدع فى التزلف، ينتقى الألفاظ بعناية ويلقى كلماته بما يشبه الاقتناع الكامل ، ويرسم للزلفى حدودًا لا تتعداها حتى لا يفقد مصداقيته ، وكنت أستمع إليه فى دهشة وإعجاب ، فإذا خلوت إليه سألنى رأيى فيما قال وفعل ، وانثنى يشرح 'أصول اللعبة' ، وكان إقراره بالخطأ لا يدع لك مجالاً للّوم أو الانتقاد ، فقد تصالح مع 'الوعى' فلم يعد يؤلمه ، وكنا - أنا وسمير سرحان - نطلق عليه ملك التبرير ، إذ كان يكاد يتخصص فى تبرير ما يفعل ، بمعنى أنه كان يستطيع أن يجد أسبابًا منطقية (تكاد تكون مقنعة) لأفعاله مهما بلغ من شطط خياله فى تصويرها ، فكنت أراه فى حياته 'يؤلف' مثلما 'يؤلف' فى كتاباته ، وعندما ذكرت ذلك لسعد الدين وهبة ضحك وقال إنه مثل عبد الرحمن الخميسى المبدع فى الحياة والفن جميعًا ، وقص علىّ بعض القصص التى تؤكد - من وجهة نظر سعد وهبة - تداخل الخيال والواقع لديه ، وكان رأيى آنذاك (وربما كنت مخطئا) هو أنه يختلف عن الخميسى فى أنه لا يرى قداسة للواقع ، فهو يتجاوزه بخياله مدفوعًا بقوة ذلك الخيال أو 'المخيلة المبدعة' . وأذكر أننى زرته ذات يوم فى منزله مع سمير سرحان ، فى شارع حسن الأكبر ، فى عابدين ، وجلسنا نستمع إلى قصة يرويها عن مرض أصابه ، وأسرف فى سرد التفاصيل بحيث شدّنى شدًا إلى روايته حتى انتهى منها ، وعندما خرجنا أبديت لسمير تعاطفى معه فضحك وقال "وهل صدقته ؟" ونظرت إليه دهشًا فقال : "إنها قصة ملفقة من ألفها إلى يائها ، وأما من أصابه المرض فهو شخص

خيالى يكتب عنه الآن سباعية فى الإذاعة !'' وسألته عما دعاه إلى نسبة المرض لنفسه (وفى هذا 'تفويل' مكروه) فقال ''إنه كان يؤلف بصوت عال ، و'يجرب' تأثير القصة فى المستمع !'' ولما أبديت شكوكى فى هذا قال سمير إن صاحبنا كان فى الفترة التى نسب إلى نفسه المرض فيها يعمل فى العراق مع قادة الثورة الوليدة - وكنا فى مطلع الستينيات - وكانت أحاديثه تملأ الصحف ومحطة الإذاعة ! ولم أعجب بعد ذلك من أى شىء يرويه ، إذ وطنت النفس على تقبل رواياته تقبل القارئ لعمل أدبى !

وكنت ولا شك معجبًا بهذه القدرة ، رغم إدانتى للكذب من ناحية المبدأ ، ولكننى - كما ذكرت فى فصل سابق - أرى أن 'الكذب الفنى' لدى بعض هؤلاء الكتاب جزء لا يتجزأ من عمل الخيال ، وعندما كنت أذكره وأنا فى انجلترا أو أشير إلى تلك الخصيصة من خصائصه فى أحاديثى مع زملاء الدراسات العليا الانجليز لا أواجه بدهشة ، بل بتقبل طبيعى للكذب الفنى باعتباره 'دالة' (function) من دوال الخيال ، بل قال لى زميلى 'إيرست' (الذى كان يدرس معى وردزورث) إن لديه أصدقاء 'يتمتعون' بتلك الطاقة ، وانبرى يدافع عنها ، قائلاً إنها لون من ألوان الإبداع ، وأظنه أشار إلى مقولة للشاعر الأعظم ت . س . إليوت (فى إحدى مسرحياته ، وأظنها **جريمة قتل فى الكاتدرائية**) يقول فيها (كما أشرت إلى ذلك من قبل) إن الإنسان لا يستطيع أن يتحمل إلا حدًا محدودًا من الواقع !

ورأيت حينذاك أن خيالات الشعر دليل على 'قدرة' باطنة على الإبداع، ولذلك أقمت فى ذهنى 'رابطة خفية' بين انطلاقات خيال صاحبنا وبين طاقته الفنية، بل أسرفت فى تصوردلالة تلك الانطلاقات على وجود طاقة النفس التى تحدثت عنها فى الصفحات السابقة، والحق أنه كان ذا طاقات نفسية لاشك فيها، وإن كنت فى أعماقى غير راض عن طموحاته البادية فى سلوكه، ونزوعه إلى التقرب من الكبار، واهتمامه الشديد بالمال، ولم يكن فى الواقع بخيلاً، بل كان ينفق ذات اليمين وذات الشمال، لكنه كان يبدى احترامًا دفينًا للمال فى ذاته، وكان ذلك يتناقض فى نظرى مع طاقاته الفنية.

وعندما عدت من البعثة عام ١٩٧٥ كان صاحبنا قد أصبح يشغل مركزًا مهمًا فى إحدى الصحف ، ثم ما لبث أن ترك المنصب إلى 'العمل الحر' ، وبدا لى أنه تناسى مبادئه الاشتراكية القديمة ، واشترى سيارة فارهة ، ثم اختفى فى أواخر السبعينيات وانقطعت أخباره ، وكان لدىّ ما يشغلنى عنه فلم أسأل ولم أكترث ، بل لم أكن

أعرف أين يقيم - هل فى مصر أم فى الخارج - حتى فوجئت باتصال تليفونى وأنا فى جدة، أثناء عملى بجامعة الملك عبد العزيز - يقول لى فيه إنه يريدنى لأمر هام ، وفرحت لسماع صوته ، وكان ذلك فى شتاء عام ١٩٨٣، فرحبت به واتفقنا على موعد فى فندق 'جراند هيات' القريب من محل إقامتى فى جدة ، وعندما التقينا وجدت شخصًا بالغ الاختلاف ، إذ كان يتحدث بلهجة رجال الأعمال ، وكان يشير إلى مقر عمله باسم 'المكتب' ، وبعد اللقاء الذى استمر ثلاث ساعات ، صحبنى بالسيارة الفارهة التى كان يقودها سائق خاص من إحدى البلدان العربية (الإفريقية) إلى منزلى، بعد أن اتفقنا على مواصلة اللقاء فى موعد لاحق ، وهاك ملخصًا لما قاله وما عرفته منه، والله وحده يعلم نسبة الخيال فيه إلى الحقيقة ، وإن كنت لن أذكر هنا إلا ما أتصوره 'حقائق' ، وهى التى أكد صدقها ما رواه آخرون وما شهدته بنفسى .

بدأ صاحبنا حديثه بأن عرض علىّ مشروعًا للترجمة، وكنت آنذاك مشغولاً بترجمة معانى القرآن، وهو المشروع الذى سبق أن أشرت إليه فى **واحات مصرية**، فلم أتحمس لمشروعه الحماس الذى كان يتوقعه، وإن لم أرفض، إذ كان علىّ أن أجاريه حتى أستمع لقصته، وهى قصة طويلة جدًا، حكاها فى دفقات واستطرادات، إذ كان يعنُّ له أثناء القصّ أن ينحرف يمنة أو يسرة ليروى قصة حب (لا تهمنى وإن بدا أنها تهمه) أو مغامرة عاطفية عجيبة، لكنه كان يرجع دائمًا إلى ما كان يظنه جديرًا بلفت اهتمامى، وهو مشروع الترجمة ، وبعد أن انتهى من التفاصيل قال بثقة: ''المهم هو أننا لن نتعب فى الترجمة بأنفسنا ولا حتى فى المراجعة إلا إذا كان الموضوع حساسًا، لكننا سوف نستأجر من يقوم بالعمل من المترجمين والمراجعين ونعطيهم أجورهم، ثم نتولى الطباعة والنشر والتوزيع فى البلاد العربية، فنحن مقبلون على فترة توسع فى النشر لم يشهد الوطن العربى لها مثيلاً،ولنا زبائن مضمونة، ألاوهى المكتبات الجامعية والمدرسية،وقد تعاقدت معها بالفعل، فنحن نضمن التسويق والأرباح الطائلة''.

ولم أشأ أن أدخل فى التفاصيل حتى لا يتصور أننى وافقت بصورة نهائية ، وكان الظن يلازمنى بأن الخيال يلعب هنا دورًا مهمًا ، خصوصًا عندما بدأ يتحدث عن التوسع فى المشروع بالترجمة إلى اللغة الانجليزية ، خصوصًا ترجمة الكتب الإسلامية التى تصادف رواجًا كبيرًا فى بلاد المسلمين الناطقين بالإنجليزية ، وكان يذكر أرقامًا خِلْتُ أنه يبالغ فيها عن حجم المبيعات المتوقع ، وحجم الأرباح المنتظرة ، لكننى لم أعلق،

حتى بدا لى أنه انتهى من عرض 'المشروع' فسألته إن كان ذلك هو العمل الذى يمارسه حاليًا، وإن كان قد هجر الكتابة الإبداعية؟وهنا أفصح عن بعض ما كان يشغلنى فى تلك الفترة الانتقالية فى المجتمع المصرى ألا وهو تحول المال فى أيدى الناس من وسيلة إلى غاية، ولم يحاول اللفّ والدوران بل قال بأسلوب وبنغمات تنم عن الاقتناع التام : ''المال هو القانون الأعظم للحياة ! فالمال هو القوة، وهو الطاقة وهو القدرة ! يكفى أن تكون ذا مال حتى تكسب احترام الناس، وأرجو ألا تفهم من ذلك أنهم يتوقعون أن تعطيهم شيئًا من مالك، بل ولا يلزم أن تنفق شيئًا منه حتى تنال ذلك الاحترام! انظر إلى محمد الفايد فى لندن ! وانظر إلى منافسه اليهودى صاحب جريدة 'الأوبزيزر'! إنهما من الأباطرة! فهما يتراشقان بالتهم علنًا وعداؤهما لبعضهما البعض صريح ومعلن، ولكن الحكومة البريطانية لا تستطيع أن تمس أيا منهما أو تنحاز إلى صف واحد ضد الآخر، ففى أيديهما خيوط يشدانها فيحركان مجريات الأمور!وانظر إلى اليهود فى أمريكا! وذاك حديث معاد مكرر! إن مال اليهود يتحكم فى سياسة أكبر دولة فى الأرض، وإحدى الدولتين الأعظم ، (ولم يكن الاتحاد السوفييتى قد انهار بعد) وهو الذى يشكل اتجاهات الفن والأدب فى أجهزة الإعلام! المال هو القوة والقدرة والطاقة!''

وقلت له إن هناك فرقًا بين القوة وبين الطاقة أو القدرة فضحك وقال إن تلك فلسفة فارغة، وإنه يتكلم بعد أن عرك الحياة وخبرها ، ولذلك فهو يتكلم من موقع العارف الخبير ، وجعل يقص علىّ قصصًا تبرهن على صدق ما يقول ، وأظن أن بعضها ملفق أو مبالغ فيه ، ثم انتهى إلى القول بأن غاية الإنسان هى السعادة ، والسعادة طريقها القوة ، وهو يعرف الآن القوة بعد أن أصبحت له حسابات فى بنوك أوروبا وأمريكا ، وبعد أن ثأر لنفسه من حياة الفقر الكئيبة التى عرفها فى مصر ، وأنه قد هجر الكتابة لأن ''الكتابة مهنة العاجز'' ، فالكاتب يتصور - فى نظره - أنه يخاطب الناس ويؤثر فيهم ، ولكن الغالبية لا تقرأ ، ومن يقرأ لا يستوعب ، ومن يستوعب لا يصدق ، ولذلك فلا أجمل من ''البيزنس'' (وربما كان يقصد التجارة) فهو الآن شريك فى بعض شركات الأفلام الأمريكية التى تدر ربحًا مضمونًا ، وهو ذو 'مكتب' يقصده علية القوم، وهو يتنقل بين البلدان كما يحلو له ، ويقابله كبار المسئولين باحترام ، واختتم حديثه بتكرار عرض مشروع الترجمة ، قائلاً إنه يعدنى بأن أصبح رئيس المشروع ، بشرط الاستقالة من الجامعة والتفرغ له ، فأنا فى رأيه ذو معرفة بما يجب أن يترجَم وكيف يترجَم ومن يترجِم ، وهذه - فى نظره - خبرة لها وزنها فى دنيا 'الأعمال' ، ولم أعده أنا بشىء ، فأنا حريص على عملى الجامعى الذى يتيح لى الوقت اللازم لهوايتى فى

الكتابة والترجمة ، لكننى - وكنا قد تجاوزنا الحـادية عشرة مساءً ، وبدأ رواد الكافيتريا ينصرفون - قلت له إننى واثق أنه يشتـاق إلى الكتابة الإبداعية ، وأنه ما زال يحن إلى كتابة المسلسلات الإذاعية التى يحقق فيها 'رؤاه' عن الإنسان والمجتمع ، فقال إن ذلك صحيح ، غير أنه لا يجد الوقت اللازم لذلك ، ومـال علىّ كأنما يهمس لى بسر خطير قائلاً : لقـد كانت الكتابة وسيـلة ، ولقد أوصلتنى الوسيلة إلى غـايتى ، وأستطيع أن أكتب متى شئت ، فـأنا لم أفقد القدرة على الكتابة ، ولكننى اكتـشفت فى نفسى طاقة أثمن وأجدى وهى 'القدرة' على التعامل مع الناس، فالناس فى أعـماقهم بشر بسطاء ، ولكل منهم مدخله ، أى مفتاحه ، فإذا عثرت على المفتاح انفتح الباب على مصراعيه !

قلت له إنه كان يـعجب بما أكـتبه من شـعر، على تواضع مـستواه ، ويشـجعنى باعتباره من الراسخين على الاستمرار (وكان يكبرنى بنحو خمسة عشر عامًا) فقال إنه لا يعارض كتابتى للشعر ، فهو فى نظره تسرية ذات طرافة وجاذبية، لكنه ليس من مصادر كسب الرزق، فقرأت عليه ترجمة منظومة لقطعة من 'شلى' فأبدى إعجابه بالترجمة ثم قال: ''من تراه يقرأ ذلـك ؟ إنك تدور فى دوائر لا يتجاوز عـدد أفرادها العـشرات أو المئات! وحـتى لو أصبت النجاح كله فلن تصل إلا إلى الآلاف. . أما أنـا فأتكلم لغة الملايين، لغة الناس كلهم ، وكلهم كلمات فى مـعجمى الشعرى!'' وقال ما معناه إنه يتحـدانى أن أجد خـارج نطاق دائرتى الضـيقة مـن يشاركنى اهتـمامـاتى، وأضاف أن المشروع الذى يتحـدث عنه سوف ينشر اسمى إلى جانب اسمـه فى كل البلاد العربية، وبعـدها البلاد الإسـلاميـة، مؤكـدًا أننى إذا كنت أريد الشـهرة والمـال (fame and fortune) فها هما 'على طبق من فضة' - وأصـررت على عدم التعبـير عن أى التزام بالموافقة ، بل وعدته بالتفكير جديًا فى الموضوع ، فقال لى وهو يودعنى ''هذا وعد!''

وانقطعت أخـبـاره عنى سنوات طويلة ، حُـتى لمحـتـه ذات يوم فى كافـيـتـيـريا 'الميريديان' وأنا جالس مع محـسن حلمى المخرج ، الذى كان يشرح لى كـيف أعيد كتابة نص **جاسوس فى قصر السلطان** كأنما يلقننى درسًا فى الكتابة المـسرحية ، وكنا فى مطلع عام ١٩٩١ ، وكنت أظن أننى ، بعد أن كتبت كل هذه المسرحيات وتجاوزت الخمـسين ، لم أعد فى حـاجة إلى دروس من محسن حلمـى ، فانتهزت فـرصة طلب القهوة لتحية صديقى القديم (وكنت أراه فى مرتبة الأستاذ) فإذا به يقبل علينا ، وما لبث أن خفّف من وطأة 'الدرس' بفكاهاته ودعاباته ، وعندما انصرف محسن قال لى إنه كان

يبحث عنى لأنه يفكر فى الكتابة من جديد ، لا للإذاعة بل للمسرح ، ويريدنى أن أشاركه مشروعًا 'يهز الدنيا !' وتكررت لقاءاتنا فقد كان يقول إنه سوف يموّل المشروع، أى إنه سيكون المنتج لا المؤلف فقط ، وكان فى ذلك إنقاذ لى من عقبات مسرح الدولة ونظم إنتاجه العقيمة ، وفى اللقاء الرابع أو الخامس (لا أذكر) وبعد أن كنا اتفقنا على موضوع المسرحية الغنائية وشخصياتها ، قال لى ببساطة "هيه ! متى تعتقد أنك ستنتهى من كتابة السكريبت [أى النص] ؟" ووجمت لحظة وتلعثمت . لم أدر ماذا أقول. وأذكر أننى تمتمت أو تلفظت بألفاظ تشى بالحيرة قبل أن أسأله "وحضرتك ؟" فابتسم ابتسامة عريضة وقال "سأراجع السكريبت طبعًا !" وحينما رأى أننى سأعود للسؤال بادرنى بقوله ضاحكًا "أنا لا أكتب الآن ! لقد فقدت التركيز بسبب مشاغلى ، والبركة فيكم انتم !" وتأثرت بصراحته بل فوجئت لأن اعتراف كاتب بأى شىء من هذا القبيل لا يأتى إلا بعد مكابدة طويلة ، وقد يفقد الكاتب 'التركيز' ثم لا يعترف بذلك أبدًا ، ولدى نماذج كثيرة للمبدعين الذين تحولوا إلى الكتابة الصحفية تعويضًا عن الإبداع ، وحاولت استدراجه ليفصح عن المزيد لكنه – فيما بدا لى – كان يتألم لمواجهة هذه القضية ، وأحسست بألمه فلم أزد ، وافترقنا على وعد اللقاء .

وكنت كثيرًا ما أتأمل ما حكى لى وما وراء قصصه ، دون أن أفقد إيمانى بموهبته الإبداعية ، وانتهيت من تأملاتى إلى أن ما فقده هو 'القدرة' على الكتابة ، وأما ما يسميه 'التركيز' فأسميه أنا 'الطاقة' فالكتابة جهد عصبى وفكرى لا جهد أو نشاط لغوى، بمعنى الاستغراق فى العمل الأدبى وفى إحكام صوغه – مادةً ومعنىً وبناءً – لأن هناك عنصرًا آخر لا نملك أن نتجاهله وهو الخروج من النفس إلى الآخرين ، وأما ما يحول دون ذلك فإنه حب الإنسان لذاته حبا يصل إلى حد الإيمان المطلق بها ، وهو الإيمان الذى يجعله يقيس كل شىء بمقياس ذاته ، ليس بالضرورة ما إذا كان سيكون مفيدًا أو نافعًا له على أى مستوى من المستويات ، ولكن بنسبته إلى تلك الذات أولا وأخيرًا ، فاكتساب القوة يقتضى نسبة كل شىء (بما فى ذلك البشر) إلى الذات ، بل وإنكار الوجود المستقل لغير الذات ، ولو لم يكن الساعى إلى القوة يدرك ذلك الإدراك كله ، وقد أنعمت النظر فى قصة هذا الصديق أوالأستاذ الذى بدأ كاتبًا ثم شغله تحقيق القوة حتى فقد القدرة على التركيز – كما يقول – أو القدرة على الخروج من ذاته إلى أشخاص أو أشياء يتعاطف معها ويعتبرها جديرة بأن يبذل فى سبيلها الوقت ويضحى بالمال ، وربما بالشهرة ، فنحن الكتاب نستمد مادتنا دائمًا من غيرنا ، من الأشياء والناس ، ولا وجود لنا دونهم ولله در نهاد زوجتى التى نبّهتنى ذات يوم إلى أن الأمّ

(أو دور الأم الطبيـعى) معناه الخروج من الذات إلى من خرج من الذات ، فـالأم تبذل مخلصة فى سبيل من انفصل عنها وأصبح شخصًا مستقلاً عنها ، وهى لا تتوقع شيئًا فى مقابل مـا تبذل ، ولا يشدها إلى الطفل إلاَّ ما يسـميه وردزورث ''رابطة الحب الأولى'' (The primal sympathy) أو ''الروابط البكر'' (first-born affinities) التى ''توائم بين وجودنا والموجودات الأخرى'' ، [فى الكتاب الأول من قـصيدة **المقدمة**] وفى هذا الخروج من الذات 'طاقة الإبداع' ، وهو 'القوة الحقيقية' (strength) (بعكس الضعف فى القدرة أو القـوة) التى تضمن للطاقـة الاستـمرار والنمو بل والازدهـار ، وبعضنا لا يستطيع فى سعى الحياة الـيومية الدائب أن يخرج من ذاته أبدًا ، **فـتـضعف طاقـاته** ، وعندما يظـن أنه قد تمتع بالـقوة بمعنى السطوة أو النفوذ (power) يكون قد فقد القوة الحقيقـية ، فيستعـيض عنها بظواهر القوة فى المجتمع مـثل السلطة أو المال ، وعندما أحس وردزورث بأنه فقد القدرة على إدراك النور الذى يكاد يكسـو الوجود فى طفولته ، خشى أن يكون قد فقـد طاقة الخروج من ذاته إلى الوجود من حوله ، فأصـابه ما يشبه الذعر ، فأهرع إلى الماضى يبـحث عن الغير أو عن الآخرين ، فوجد الكثـيرين وامتلأ شعـره فى الفترة مـن ١٨٠٢ حتى ١٨٠٤ (فى قصـيدة **المقدمة** التى أشرت إليـها وفى غيرها) بشخصـيات كثيرة ، كان يتقمصهـا هربًا من ذلك الخوف الذى اعتراه ، وعندما كتب معظم **المقدمة** ، وهى سيرة ذاتيـة صريحة ، وجد أنه مـا زال قادرًا على الخروج من نفسه إلى الناس وإلى الطبـيعة ، واطمأن قلبه بعض الشىء فعـاد - كما قلت - إلى الفقرات الأربعة الأولى التى انتهت بالتساؤل عن اختفاء 'شعاع الرؤى الغامر / والمجد والحلم الباهر' ، ولم يكن يزيد عدد أبياتها مجتمعة عن ٥٧ بيتا ، فأكملها حتى وصل عدد أبيات القصيدة إلى أربعة ومائتين ! ولقد ساعدته السيرة الذاتية فى اكتشاف الآخرين لا من خلال ذاته فـقط بل فى مقابل ذاته أيضًا ، وهـذه من المفارقـات التى تواجهنا فى السير الذاتية الأدبية ! فنحن نحكى حكايات الآخرين من خـلال ذواتنا مثلما نكتشفها ، ونكتشف ذواتنا أيضًا ، من خلال 'غيرية الغير' .

وكان مما اكتشفـه وردزورث وجود الطفل الذى كانه، والذى كان يعرف أنه مضى إلى الأبد ، فكان الطفل بمثـابة الغير الذى يشكل وعيًا آخر ، وهو يقـول ذلك صراحة فى القصيدة الأولى [المقدمة الصغيرة] التى حـققتها ونشرتها (٩٠٠ بيت) كما سبق أن ذكرت إذ يقول فيهـا ما معناه إن المسافة التى تفصل بينه وبين أيام طفـولته شاسعة إلى الحد الذى يـجعله يعى بوجود شـخصـين - هما ذاته وشـخص آخر (conscious of myself and some **other** being) وهكذا فإنه بعـد أن ينعى فقـدان ذلك الآخر ،

يستعيض بآخرين فى مشـهد يصوره فى الفقرة العاشـرة من القصيدة التى اقتـبست منها الفقرة التاسعة فى أول الفصل (خاطرات الخلود) .

ولم تتح لى الفرصة لمقابلة صاحبى إلا بعد عشر سنوات ، وكان يعانى من مرض عضـال، وكنت قد عـدت لتوى من فـرنسا بعـد فترة العـلاج التى طالت فأمـعنت فى الطول، وكان لقاؤنا قصـيرًا وأكاد أقول عصبيًا ، إذ لم أتعـرف عليه أول الأمر ، فلقد كان هزيلاً شـاحب الوجه غائر العـينين ، وكان يلبس 'كاسكتة' تغطى صلعـته ، ولم أتبين من صوته ومن تحيته ما يـدل على ما كنت أحبه فيه من مرح و'طاقة' فنية إبداعية ، بل رأيت وأحـسست استـسلامًا (كنت أرفـضه) للدنيـا ، وكنت أوشك أن أسـتقل سيارتى أمام هيـئة الكتاب حين نادانى ، ومكثنا عشر دقائق تقـريبًا نتحادث فعلمت منه أنه تعرض لنكسة أو لنكسات فى أعماله التجارية ، وأن المرض استنفد مدخراته ، وكان يتكلم بمرارة عن الحـياة والناس ، وكيف 'خانه' الجمـيع ، ورددت عليه بأن لدينا فى أنفسنا طاقة الصمـود ، وأننا نستمد من أعماقنا القـوة ، أو قل إننى لخصت له ما سبق أن عرضته من آراء فى هذا الفصل ، ولكنه ظل على مـوقفه وافترقنا ، وبلغنى أنه توفى فى العام التالى ، وقال لى من أبلغنى بوفاته إنه مات كسير القلب بل إنه لم يتوقف عن التعبير عن المرارة حتى آخر لحظة . وتألمت أشد الألم لهذه النهاية ، على ما ألهمتنيه الحكاية من أفكار لا تخصه وحده ، بل تخصنا جميعًا . كنت أقول فى نفسى دائمًا ليته قرأ الفقرة العاشرة من القصيدة المـشار إليها ، ولسوف أوردها الآن ختامًا لهذا القسم ، مثلما بدأته بالفقرة التاسعة (من البحر نفسه) :

غَنىّ يا أطيار إذنْ ! غنّى أغنية الفرْحْ
ولتتواثبْ هذى الحملان وتمرحْ
مع دقات الدُّفّ !
فلسوف نشارككم فكرًا فى هذا الحفْل
يا من تعزف فى الناى ويا من تلهو
يا من يشعر فى أعماق القلب اليوْم
بسرور ربيع يزهو
ما ضرّ إذا كانت عينى

قد حُرِمَتْ للأبد النورَ الساطع
ما ضرّ إذا كان محالاً أن ترجع
ساعةُ سحرٍ بهاء الكلأ ومجد الزهر
لن نحزن أو نبكى ما ضاع
بل إنّا نجد القوة فى ما زال لدينا
فى رابطة الحب الأولى فى أنفسنا
إذ ما إن تولد
حتى تخلد
فى أفكار عزاء أو سلوانِ
تنبع من كد معاناة الإنسانِ
وفيما يتجاوز حد الموت من الإيمانِ
وفى أعوام تأتى بالحكمة للأذهان !

والغريب أننا ما زلنا - نحن النقاد - أسرى الصورة التى رسمها ماثيو أرنولد (فى القرن التاسع عشر) لوردزورث من أنه كان لا يكتب إلا عن الطبيعة ، وأنه كان لا يتحدث إلا عن ذاته ، وربما أكدت مجموعة 'الكنز الذهبى' التى أعدها بولجريف (Palgrave) هذه الصورة ، فثار المحدثون على شعره ، وانتقدوه للذاتية أو لما هو أسوأ ، وهو ما ترجمة عزمى إسلام باسم 'الأناوحدية' solipsism ، ولكننا - حتى فى هذه القصيدة التى يسترجع فيها ذكريات طفولته الخاصة - نلمح ما يختلف عن ذلك، ويكفى أن ترصد ضمير الجمع الذى يشير إلى الإنسان هنا أو إلى البشرية ، وخلاصة ما أرمى إليه أن وردزورث يقول إنه إذا كانت طاقة إدراك النور هى مصدر القوة الحقيقية ، وإنها إذا كانت قد فقدت بسبب انهماك الإنسان فى مشاغل الحياة ، فللإنسان أن يستعيض عنها بما يجمله الشاعر فى الأبيات الستة الأخيرة من هذه الفقرة .

(٢)

للإنسان أن يستعيض عن فقدان بهاء رؤى الطفولة بعدة أشياء يستمد منها القوة ، حسبما يقول وردزورث الذى يُجملها كما قلت فى هذه الأبيات :

فى رابطة الحب الأولى فى أنفسنا
إذ ما إن تولد
حتى تخلد !
فى أفكار عزاء أو سلوانِ
تنبع من كد معاناة الإنسانِ
وفيما يتجاوز حد الموت من الإيمانِ
وفى أعوام تأتى بالحكمة للأذهان !

وأنا أورد هذه الأبيات مرة ثانية - عمدًا - حتى ألفت الأنظار إلى مقصد الشاعر من جَمْع العناصر التى تشكل فى نظره 'التركيبة' التى تنقذ الإنسان من وهدة فقدان 'القدرة' (ومعها القوة الحقيقية) وسوف أتوقف عند معنى الحكمة التى اخترتها ترجمةً لتعبير (the philosophic mind) فهذا هو المعنى الأول ، وفى ثناياه يأتى الصبر والمثابرة ، وليس المقصود قطعًا أى فكر فلسفى ، وأذكر أننى عندما ترجمت هذه القصيدة أول مرة ترجمةً منثورة أخطأتُ ذلك الخطأ وصححه لى الدكتور مجدى وهبة - رحمه الله - وطيلة سنوات دراستى فى انجلترا كنت أجد من الشواهد ما يؤكد صحة ما قال به ، فالحكمة كلمة ذات دلالة عامة تضم ما سبق أن أورده الشاعر ، فهى تضم روابط الحب الأولى ، والعزاء والسلوان ، والإيمان - ومن هذه 'التركيبة' تأتى بعض المعانى الثانوية الشائعة للكلمة فى اللغة الانجليزية (مثل الصبر والمثابرة والجلد والتحمل) والغريب أن أجد فى الكلمة العربية 'الاتساع' نفسه (والطريف أن المعنى الاشتقاقى لكلمة فلسفة الأوروبية يتضمن 'الحكمة' !) ولذلك أحببت أن أتخذها نقطة انطلاق - كما يقولون - لتفسير إهمال ذوى القدرة لقدرتهم ، وفقدانهم لقوتهم فى سعيهم لاكتساب القوة المادية .

لقد عجز صاحبنا عن التحلى بـأى صفة من الصفات التى سبق أن أوردتها ، ولم يتعلم فى غـمار تجاربه والخبـرات التى كان يفخر باكـتسابها أن يجنح ولو أحـيانًا إلى الحكمة ، ولو فعل مـا انتهى تلك النهاية الأليمة ، وأنا لا أقصـد المرض أو الموت ، (فهمـا يصيبان الجمـيع كبارًا وصغارًا) بل أقـصد العزلة التى شعر بهـا بعد أن تمزقت روابط الحب الأولى - وأظن أنها لم توجد أصلاً فى حالته - وبعد أن عجز عن نشدان السلوان فى أى شىء ، وبعد أن عجز أيضًا - وذلك هو العنصر الأساسى - عن التحلى بالإيمان . وإذا كنت قـد سلطت الأضواء عليـه - كما يقـولون - فذلك لأنه - رحـمه الله- لم يترك مـا يجعل له مكانًا فى متن كـتاب الأدب العربى ، بل هجر الكتـابة فور عثـوره على منصب مناسب ، وكان 'يغازل' الكتابة أحيـانًا فتشيح عنه بوجـهها وتأبى وتستعصم ، ولأنه - رحمه الله - قد أصبح هامشًا من هوامش ذلك الكتاب ، قد يحذفه المحـرر إن شاء وقد يبقى عليـه ، ولأنه نموذج للكثيـرين ممن لا يزالون بقيد الحـياة بيننا، يعيشون لحظات القوة فى لذة تشبه لذة السُّكْر الذى يغرى بالمزيد ! وأظننى لست بحاجـة إلى أن أشير إلـى نماذج محـددة من هؤلاء ، بل سأنتقل إلـى آخر حكاية من حكايات هذه الواحات ، وهى حكاية أرجو ألا تطول .

ولسوف أوجز الـقصة على لسان صـاحبها، فهى حـية فى ذهنى ونفسى ووقـائعها مسـجلة فى مفكرتى ، وكلماته أبلغ فى التـأثير من تحليلاتى وتعليـقاتى، والرجل حىّ يرزق، ولابد إذن من إخـفـاء أسـمـاء 'أبطال' القـصة ، بعـد تقـديمهم إلى القـارئ باختـصار. أمـا الرجل فـهو يشـغل منصبًا مـرموقًا ، بعـد أن ترقى فى سلم الوظائف الحكومـية فـوصل إلى غـايته، وكـان قد تجـاوز منتـصف الخمـسينيات حـين بدأت 'الأحداث'، وكانت هى قـد تخرجت قبل سنـوات معدودة، وعُيّنت فى مكتب مـجاور لمكتـبه، فكان يراها من حـين لآخر، وإن لم تكن هناك دواع عـملية للحـديث خارج العمل. وكانت- كما وصفها لى-فتاة عادية لا يميزها عن سواها سوى الجد والاجتهاد، فلم تكن ذات جمال أخاذ يشد العيون أو 'يدير رؤوس الرجال'- كما يقولون- ولم يكن الزائر إلى مكتـبه أو مكتبـها يمكن أن يتوقع حـدوث أى شىء غيـر عادى. وكنت على وشك مشاهدتها حيـن اقترح إرسالها إلىّ فى 'مهمة رسمية'، ولكن المهمـة سرعان ما أُنجزت فلم يرسلها ، وبعـدها جاءتنى مكالمة تليفونية منه يطلب فـيها أن يمر علىّ فى الجامعة أو فى هيئة الكتاب ، فصداقتنا ترجع إلى أيام دراستنا فى انجلترا ، وإن اختلف

تخصصه عن تخصصى ، وضربت له موعدًا لم يخلفه ، وتوالت المواعيد والمحادثات التليفونية حتى اليوم .

كنا فى نحو منتصف التسعينيات حين بدأ صاحبى حكايته بطلب رأيته عجيبًا وهو 'أن أكتب قصته له' حتى يفهمها ! ولم أدرك مرماه أول الأمر ، فهو ذو فصاحة يحسده عليها الأدباء ، وهو يستطيع التعبير بقدرة الموهوبين من الكُتّاب ، وهو قارئ نهم بل لا يشبع له نهم، وإن لم يكن يمارس الكتابة بل يستمع فحسب إلى 'الصوت الداخلى' الذى يتيح له أحيانًا أن يبتعد عن مجرى حياته العملية فيرى نفسه من مسافة ما ، فكأنما هو شخصية فى رواية تقع أحداثها على مرأى ومسمع منه . ومن ثَمّ قلت له إننى لن أستطيع التعبير خيرًا منه ، وإن سرّنى قوله إنه يريد أن يقرأ 'نَصّ' قصته حتى يفهمها وكان يمكن أن يقول إنه يتمنىّ أن يكتبها حتى يفهمها ، فكل كتابة 'جهد استكشافى' ، أو ما يسمى اصطلاحًا (heuristic) فالكاتب يتصور أن المادة جاهزة للتسجيل وأنه قادر على استنباط المعنى منها على الورق ، لكنه ما إن يبدأ الكتابة حتى تتغير فى عينه صورة المادة وتتغير معانيها ، لأن اكتساب المادة ثوبًا لغويًا يفرض على كل ما فيها الكثير من الموروث اللغوى والأدبى ، ويحولها من مادة إنسانية لا شكل لها - أو ذات شكل غير محدد - إلى 'مادة أدبية لغوية' ذات شكل له من الدلالات ما لم يكن صاحبها يتوقعه ، وإذا بالكثير من التحوّل والتبدّل ، وإذا بالمعنى يختلف ! ولكن الكاتب قد يكتشف فى غمار الكتابة نفسها معانى جديدة ، وقد يصل إلى 'نتائج' لم يكن يتصورها فى البداية ! ولهذا فرحت وطلبت منه أن يحكى القصة من أولها ، لكنه قال إنه لا يعرف لها بداية ، وأقسم إنه لا يعرف كيف بدأت ، لكنه يذكر بعض اللحظات - وها هى بالألفاظ التى استخدمها تقريبًا :

''كان لدينا مؤتمر دولى ، وكان التحضير له يقتضى العمل طول اليوم بل فى المساء وحتى ساعة متأخرة من الليل ، وكان الجميع يشعرون بحجم المسئولية ولا يدخرون وُسْعًا فى معاونتى لا من باب 'تنفيذ الأوامر' بل من باب الحرص على النجاح، إذ كان النجاح يمثل لكل منهم 'أكاليل غار' - فنحن قسم صغير ، ولم يكن الوزير يتصور أننا نستطيع أن ننهض بعبء المؤتمر كله وحدنا ، ولكننا اجتهدنا ، وعملنا كأننا فى منافسة أو فى سباق مع أنفسنا ، ونجح المؤتمر ، وجاءتنا خطابات الشكر والمكافآت ، ولكننى خرجت من المؤتمر منهكًا لا أكاد أقوى على مواصلة العمل وأشعر بضعف لا أدرى كنهه . وقررت أن أستريح يومًا أو يومين ، فمكثت فى

المنزل يومًا كاملاً أحسست فيه بملل قاتل ، وعندما حل المساء خرجت بالسيارة للنزهة وحدى ، وكـان الزحام شديدًا ولكن برد المســاء خفف عنى عذاب المــرور ، فانطلقت إلى مقهى فى الهرم أرتاده حين يعترينى الضيق ، وكان معى كتاب أحاول الانتهاء منه، لكننى قبل أن أفتحه وجدت تلك الفتـاة تجلس وحدها وفى يدها كتاب ، فحدست أنها تنتظر صديقًا وشعرت بالحرج فقمت وجلست فى ركن بعيد حتى لا تلمحنى .

''ولكن الوقت مرّ ، ولم يأت أحد ليشـاركها مجلسها ، فجـعلت أخالسها النظر فأحسست كـأنما كنت أراها للمرة الأولى - لا أعرف ما حدث ولا أعتقـد أننى سأعرفه يومًا ما ، لكننى أصدقك القول إننى شعـرت كأنما كنا فى انجلترا - ولعلك تذكر تلك الأيام - وأننى كنت أشاهد فـتاة أجنبيـة متحررة مـستقلة ، قادرة على الخـروج وحدها لقراءة كـتاب فى مكان خلوى ! وما إن داهمنى هذا الإحـساس حتى وجدت عـينى وقد ثبتت عليهـا ، لا تفارقها ولا تحـول عنها ، وخفت أن أسبب حرجًا لـها لو شاهدتنى فلبست نظارة شـمس أتخفى بهـا ، فإذا بها تزيد من جـمالها ، كـانت رشيقـة ينسدل شعـرها الطويل على ظهرها كـالشلال المتـدفق ، ولا تكاد ترفع عينهـا عن الكتاب ، وكنت أتصور أن تنظر إلى ساعة يدها من فترة إلى فترة إن كانت تنتظر صديقًا ، لكنها لم تفعل ، بل لـم تكن تغير من جلسـتها إلا على فـترات طويلة ! لم أدر مـا أصابنى آنذاك ! لا أذكر طبيعة الإحساس ولا أستطيع أن أصفه لكننى أذكر وحسب أننى ابتعدت عن مصر آلاف الأميال ، وعن اللحظة الحاضرة عشرات السنين ، فكأنما لم أكن الرجل الذى أعرفه ، وتدافعت فى مخيلتى صور انجلتـرا ومن قبلها صور مصر - القاهرة - فى الخـمسـينيـات ، وتراءت فى مـرآة الذهن صور الشـبـاب ، صور الـتحـرر والانطلاق والأحلام، وتذكرت رحلة قمنا بها ونحن طلاّب فى الجـامعة إلى القناطر الخيرية حيث لهونا ولعـبنا وغنينا أغانى عبـد الحليم حافظ ، ومـاج عقلى بالصور المـتداخلة فكدت أذهل عن المقهى ، وعينى مثبتة عليها لا تكاد تفارقها ! هل اشتقت إلى الشباب آنذاك؟ هل تحولت الفتاة إلى صورة مضت من حـياتنا إلى الأبد وأحزننى فقدها ؟ أقول لك لا أعرف ، لكننـى متأكـد أننى كنت ذاهلاً عن مكانى فى المقـهى ، وربما عن سـاعات المسـاء التى فرت سراعًا ، حتى أيقظنى صـوت النادل يسألنى إن كنت أريد شيـئًا آخر قبل انصرافه . ولم أكن أريد شـيئًا ، فدفعت له 'الحساب' ونهضت متثاقلاً وقلت فى نفسى ليتنى كنت شاعرًا لأصوّر ما اعترانى !

''ويبدو أن حالة الذهول كانت لا تزال تلازمنى وأنا فى طريق الخروج ، فلم ألحظ أن الفتاة قد سبقتنى ، ولكننى فوجئت بها وأنا فى طريقى للسيارة فوقفت جامدًا كأنما كنت أخشى أن تكتشف ما بى ، ووقفتُ ، وفى لحظة تغلبتُ على الإحساس الذى داهمنى أول الأمر بأننى 'ذكرى رجل' (ولا أقول ذكريات رجل) وتظاهرت بأننى لم أشعر بشىء ، وأصبحت فجأة ألعب دور 'كبير الموظفين' - ويا له من دور سخيف - فألقيت عليها تحية المساء ، وردت ردًا مهذبًا ، ولم أستطع أن أتبادل معها العبارات الاجتماعية المألوفة أو أطرح عليها أى أسئلة، لا لأن ذلك 'لا يجوز' ولكن لعجزى وحسب عن الكلام . وأخيرًا سألتها إن كانت تحتاج إلى 'توصيلة' بالسيارة لأن الوقت قد تأخر ، فقالت إنها سوف تعود إلى منزلها بالتاكسى ، لكننى أشفقت عليها من ذلك وأصررت على توصيلها ، فركبت إلى جوارى ، ولم نتبادل كلمات كثيرة ، بل تركت أنغام البرنامج الموسيقى تملأ السيارة ، وأدرت جهاز التكييف بعد إغلاق النوافذ ، وعندما اقتربنا من القاهرة طلبت منى أن أتوقف حيث تفضل استكمال الرحلة بالتاكسى. وأوصلتها إلى أقرب نقطة إلى التاكسى وخَرَجَتْ .

''تظاهرت فى الأيام التالية بأنه لم يحدث شىء ، ولكن شيئًا ما قد حدث بالتأكيد، ولم أكن أجرؤ على الإفصاح به فنحن فى مصر ، والواقع بأثقاله يجثم على صدورنا ، فكنت أستعيد ذكرى اللحظات التى بدت خارج الزمن ، وأتمنى أن أستعيدها أو أعيدها ، فأكثر من التردد على ذلك المقهى ، وأفحص الرواد عسى أن أجدها ، عبثًا، وأخيرًا لاحت فرصة نقلها إلى مكتبى ، فاجتهدت حتى تحقق ذلك ، على الورق على الأقل ، إذ إنها ما إن تسلمت الخطاب حتى جاءتنى وقالت إنها تفضل أن تظل فى مكانها ! وأسرعت بالموافقة ، وقد تنازعنى الخوف والرغبة ، وسألتها عن السبب فقالت إنها تدرس للحصول على الماجستير ، وعملها فى مكتبها يتيح لها التركيز ، فقلت من الكلام ما يتطلبه الموقف وما تقتضيه الوظيفة وانتهت المقابلة ، لم أكن أدرى أن الأيام تخفى مفاجأة لى، لكننى كنت أتطلع إلى مشاهدتها ، مجرد النظر إليها ، وأستعيد فى خيالى لحظات المقهى وذكريات انجلترا وقاهرة الخمسينيات ، فغدوت أحس أن أثقال الواقع 'الحاضر' قد خَفَّتْ ، وأن فى الماضى صورًا لو نجحنا فى التصالح معها لتوافر لنا قدر أكبر من السعادة ، وكنت أختلق الأسباب للحديث مع صاحبة تلك اللحظات الساحرة ، كأن أكلفها بعمل أو أسألها عرضًا عن دراستها ، حتى جاء يوم كنا فيه وحدنا فى المكتب فإذا بها تقول لى : لماذا لم تعد تذهب إلى المقهى ؟''

وقص عليّ صاحبي تفاصيل المكاشفة بينه وبين حبيبته ، وكيف 'فتح' كل منهما قلبه لصاحبه ، وكيف اندفعا في علاقتهما غير عابئين بأثقال المجتمع - كما يسميها - وكيف مرّ من جديد (في المراهقة الثانية؟) بكل عذابات الحب من لهفة وتوقع ولقاء وافتراق وود وبعاد ! فكأنما عاد شابًا وجد ذاته في هذه العاطفة الجياشة ، وكانت صاحبته تشاركه مشاعره في كل لحظة بإخلاص وصدق مذهل ! لم يكن يعرف أيٌّ منهما أي مصير لتلك العلاقة ، وكان يوافيني من حين لآخر بتفاصيلها ، فهي ملتهبة دائمًا متأججة لا ينطفئ لها أوار ! وبعد عام أو بعض عام زارني وقال لي :

"إنها المعنى الذي كنت أبحث عنه ! إنسان مستقل له أفكاره ومشاعره ، إنسان لا ينظر إلى العلاقة الإنسانية من وجهة نظر المجتمع الذي لا يعرف إلا الزواج والإنجاب ! هل أصدق أنها تحبني رغم فارق السن الذي يفصل بيننا ؟ هل أصدق نفسي في اندفاعي ، وفي تحايلي على إخفاء كل شيء عن الجميع ؟ إنني أرى فيها ذكريات الصبا فأعيشها من جديد كأنما لم يفعل الزمن بي ما فعل ! وأكاد أذوب شوقًا إليها كلما غابت عني يومًا أو يومين ! إنها علاقة بلا مستقبل ، ولكنها حقيقية ، وليت شاعرًا أو كاتبًا يكتب عنها !"

كنت أعرف أن تلك 'الخبرة' الحقيقية لا تتطلب شاعرًا بل روائيًا، أو قصاصًا بارعًا مثل تشيخوف يستطيع أن يغوص إلى الأعماق فيقول لنا كيف اجتمع الكهل والصبيّة، وكيف وُلد من جديد على يديها، وكنت أرسم لها في مخيلتي صورًا متعددة- فلم أكن رأيتها ولكنها كانت تلتقي جميعًا عند بؤرة 'الزمن الأول'، فصاحبي قد يعود معها إلى قاهرة الخمسينيات أو يعيد خلقها في ذهنه، وقد يعود معها إلى أيام دراسته في انجلترا، وهو عهد الأحلام الكبرى، إذ كانت الدنيا تتغير في مصر وهو لا يدري (أو يحس) بالتغيير، وكان على تفوقه في تخصصه - يتمنى أن يمارس الكتابة ظنًا منه أنها تعتمد على 'القدرة' على التعبير فحسب، ولا شك أن قدرته كانت كبيرة، ولم يكن قد تبين مكابدتنا في طرح الأفكار ومعالجتها وبسطها على الورق ، وكانت الشهور تمضي وهو يزداد 'طاقة' على العمل وينشر البحوث في 'الدوريات' الأجنبية، بل سافر مرتين في عام واحد إلى روما لحضور مؤتمرين مختلفين عقدتهما منظمة الأغذية والزراعة، وكانت صلتي قد انقطعت بتلك المنظمة بعد تدهور القسم العربي فيها (قسم الترجمة والتحرير) وانتقال نشاطه إلى مقر القاهرة، وأذكر أنه اتصل بي بعد عودته من أحدهما ليقول لي إن عبد الرازق إبراهيم يبلغك سلامه، وكان آنذاك رئيسًا للقسم العربي المتضائل، ويصف لي محاسن روما وجمالها الأخاذ وكيف ذكرته بقاهرة الخمسينيات،

وأنهى المكالمة- إذا صدقت ذاكرتى- بأن قال إنه كان يرى حبيبته فى كل زهرة إيطالية تسير على النهر أو فى حدائق المدينة، بل وفى كل جمال رآه فى الأرض أو فى السماء، وكثيرًا ما كان صوته يأتينى كأنما من الماضى فأعجب وأدهش ولا أقدر على الرد !

ومرت ثلاثة أعوام تغير فيها صاحبى فأصبح أكثر توافقًا مع نفسه ومع الناس ، وكان كلما صارحنى بما يحدث اعترضت لأننى لا أرى إلا فارق السن ، وكنت أحاول تفسير تلك العلاقة بالمنطق العلمى وما أعرفه فى علم النفس ، فإذا ذكرت له أيا من ذلك استمع بصبر وقال إن العلم نفسه ينهار فى لحظة اللقاء معها ، لحظة الجمال المطلق ، لحظة التقاء نفسين ، فهى ليست مجرد امرأة جميلة أو عادية ، إذ حَصَلَتْ على الماجستير وهى تدرس للدكتوراه وتراسل جامعات أجنبية ، وهى تتمتع بقدر كبير من اللماحية والذكاء ، لكنها لا تعبأ بما نسميه المستقبل ، بل هى تفعل ما تراه صوابًا، وكان يرد على اعتراضاتى بأننى على البر ولست فى خضم البحر ، حتى جاء يوم هزه هزًا وأصر على مقابلتى ، إذ إن صاحبته خُطبت وبدأت تستعد للزفاف ! ووصف لى ما انتابه عندما أبلغَتْه النبأ بثبات الانجليز وواقعيتهم ، فأهلها مصرون ، وقد فعلت كل ما تستطيع لتأجيل الموضوع ، فتأجل عدة مرات ، ولكنها لم تستطع الصمود فى النهاية فوافَقَتْ ، ولم تشأ أن تخبره آنذاك لأنها كانت تأمل فى التأجيل 'إلى أجل غير مسمى' كما يقولون ، لكن 'الأمور تطورت' بسرعة ، ولم يعد هناك مفر من المصارحة ، خصوصًا وأنه على مشارف التقاعد ولابد من وقفة لمناقشة المستقبل . قال صاحبى :

''كانت تلك أول مرة أسمع فيها منها كلمة 'المستقبل' فقلت لها فيما يشبه الهزل من الجد إننى على استعداد للزواج منها إن كان فى ذلك حل للمشكلة ، لكنها ردت بسرعة فنفت أن مثل هذا الحل 'وارد' ، فأهلها قد عقدوا القران ، والعريس لا بأس به، ولم يعد هناك مجال للتراجع ، وبعد صمت طويل غالبتُ فيها الدموع وَدّعْتُها وأنا أحس أننى أتمزق ، وأحس جادًا بأن الحياة قد انتهت ، لولا بقية من جَلَدٍ وإيمان'' .

وانقطعت عنى أخبار صاحبى نحو عامين ، حتى رأيته من جديد فى ربيع عام ٢٠٠١ ، وكنت أحضر مؤتمرًا عن المياه فى شرق العالم العربى عقدته الأمم المتحدة، ولم أكن أدرى أنه ترك مصر ليعمل فى هيئة من هيئات تلك المنظمة الدولية ، وكان كعهدى به بشوشًا عفَّ اللسان ، ولم يكن يبدو عليه أنه قد تأثر بتلك 'الحادثة الشخصية' ، فلقد التقينا مصادفة فى الكافيتريا ، وكان كل لقاء خارج مصر يجتذب المصريين فانضم إلينا أستاذ أو أستاذان ، وناقشنا ترجمة مصطلحات المياه والرى ، ثم افترقنا بعد أن طلب منى أن أزوره فى الفندق . ولما كان الجو معتدلاً خرجت عن

عـادتى فى التزام غـرفـتى فى المـساء وسـعيـت إليه وتحـادثنا طويلا، وهاك ملخـصًا للحديث. قال صاحبى :

"تذكر ما قلته عند وداع صاحبتى ؟ لقد تدرعت ببقية جلد وإيمان فإذا بتلك البقية تنمو وتصبح نبـعًا صافيًا من الجلد والإيمان ! لقد أيقظت تلك التجـربة فى نفسى طاقة لم أكن أعهدها، وتحولت إلى قوة جبارة أحيا بها ولها ، فلقد تخطيت الستين ، لكننى أجد الزاد الروحى أو النفسى فى كل ما مضى وانقضى ، وكلما خلوت إلى نفسى برزت صورة تلك الـفتاة (الدكـتورة الآن) فـأحيت ذكـريات أبعد وأجمل ، ولـو مررت أنت بتجربة مماثلـة لكتبت ديوانًا لا قصيدة واحدة ، فأنا - كما يـقول عبد الوهاب - أعيش و'صور الماضى ورائى وأمامى !' ولقد تعلمت من هذه الصور رهافة فى السمع والبصر، وإيمانًا متزايدًا بجدوى العمل، ولقد وضعت لنفسى برنامجًا للحياة خارج مصر لا أحيد عنه ، فأنا أقـرأ وأدرس مثلما كنا نفعل فـى انجلترا ، وأخصص وقتًا كل يوم للسـير - ولا أقول للنزهة - حيث أتأمل نفسى وأتأمل الحياة ، وأتمنى أن أكون شاعرًا حتى أعبر عما أحسه ، فأنا واثق أنه يصلح للشعر !"

وسألته مـا إذا كان قد قطع 'علاقته' نهائيًا بحبيبـته فضحك وقال إنه لا يمكن أن 'يقطع' أى شىء ! فلقد أصبـحت الحياة فى نظره تتسم بالتحول الدائب ، تمـامًا مثلما يحدث فى الطبيعة ، ولقد تحولت العـلاقة التى كان من المفترض أصلاً أن تكون أبوية إلى علاقة 'أبوية' حقيقـية - وكان ذلك هو' المؤلم' حقًا فى نـظره فهو لم يـكن قد 'دخل' تلك العلاقـة بوصفه أبًا بل بوصفـه حبيـبًا ، وكان التحول مـعناه وقوع تناقض شديد بين ما يحسه فى أعماقه وما يتبدى فى مظاهر سلوكه ، لكنه ابن مخلص للمجتمع المصرى ولا يقبل أن يواصل شيئًا 'قطعه' المجتمع !

وأعجبنى تلاعبه بكلمة 'قطع' فسألته مباشرة إن كـان يراها ويحادثها، فقال ببساطة إنه لا يزال يزور المكتب، وهى لا تزال تعـمل فيـه بعد أن ترقت وأصبـحت فى حكم نائب رئيس القسم ، وقـد بلغه من 'الزملاء' أنها أنجبت طفـلاً جميلاً ، وإن لم يَحُلْ ذلك دون مواصلتها الدرس والإنتاج ، فهى ذات طابع عملى وتعيش فى هذه الدنيا بكل ما فيها ، وعدت أسـأله إن كان لا يزال يحمل فى نفسه 'لواعج' الحب الأول، فقال ما أذهلنى إذ ذكـرنـى بقصيدة وردزورث التى مـا فتئت أقتطف منهـا الفقـرة تلو الفقرة، قال صاحبى :

"وقدة النار خَبَتْ ! لـكنها أصبـحت صورة ثابتـة متعـددة الألوان والأشكال فى ذهنى! ولقد حاولت استعادة تلك الوقدة عدة مرات وفشلت ! وكانت النتيجة محبطة لى أول الأمر ، ثـم وطنت النفس على تقبل الـواقع ، لكننى كنت أستـعيض عن الـوقدة بتذكـر ما فات ومـر ، وكنت فى كل مرة أجده قـد اكتسى طابعًا جـديدًا ، فأدركت أن الزمن هو الذى يتدخل ليـحدث ذلك التحول ، فأنا أسـير نحو النهاية وهى تسـير نحو البداية - كما كنت تقول لى دائمًا - وطبيعة الأشـياء ترفض التقاء النهاية بالبداية ! وأما الطابع الجديد الذى أراه يكسو ذكـرياتى اليوم فهو طابع يمزج بـين عقل المحـب وقلب المفكر ! لاحظ أننى نسبت العقل للمحب والقلب للمـفكر ، على عكس المعتاد ، فأنا الآن أجد متعة فـى التأمل الذى يهب الحياة عمقًا لم أكن أحسه قـبل حبى لها ، وأجد فى ذكريات مشاعرى أبعادًا لا سبيل إلى تكرارها ! إنها حياة جديدة متجددة ، تتغير مع الدنيا ومع كل شىء !"

وعندها قرأت عليـه قصيدة وردزورث - كلها - فـأنا أحفظها منذ بواكيـر الصبا ، فاغرورقت عيناه بالدمع ، خصوصًا عندما أتيت إلى الفـقرة الختامية ، وما لبث أن قال إن ذلك ما كان يعنيه بأن التجربة لابد لها من شـاعر ، وبأنها تجربة شعرية خالصة ، لكننى رأيت فيهـا تحقيقًا لقدرات باطنة وهبت صاحـبها قوة جديدة فتـحت أمامه طريق حياة مـزهرة ، فلقد استمـد من طاقة الحب أو النزوع إلى الشباب أو تحـقيق الذات مع 'الآخر' - كما يقولون - قـوة على العمل فالجلد فالصبر فـالحكمة ! وعندما عدت إلى غرفتى نمت وصحوت فى الفجر فترجمت الفقرة الختامية . وها هى ذى :

يواصل الشاعـر خطابه إلى 'الفرح' فى الفقرة التـاسعة بخطاب إلى 'الأطيار' فى الفقرة العاشرة، ثم يتحول إلى عيون الماء والمروج والتلال والخمائل :

وأنت يا عيونُ يا مروجُ يا تلالُ يا خمائل !

لن تشهدى أى انفصام فى عرى غرامنا

فلم أزل فى عمق أعماق الفؤاد

أحس قوتك !

وما افتقدت إلا متعة وحيدة هنا

هى الحياة تحت ظل سطوتك !

بل إن حبى للجداول التى تنحر فى الشطآن
يزيد عن حبى لها
أيام كنت مثلها
أجرى بخفة المراح حولها !
ما زال صفو النور فى السماء عند مولد النهار ذا سناء !
لكنما السحاب حول الشمس فى الغروب يكتسى
لونًا رزينًا من عيون من رأوا مسيرة الإنسان للفناء !
قد انتهى السباق وانطوى مضمار
وفيه أحرزنا أكاليل انتصار
والفضل للقلب الذى نحيا به - قلب البشر -
رقّتُهُ ، أفراحُهُ ، مخاوفُهْ !
بل إن أدنى زهرة قد تستوى فى عودها
توحى بأفكار بعيد غورها
لا يستطيع الدمع أن يسبرها !

وقد حار النقاد فى تفسير الأبيات الثلاثة الأخيرة، وهما بيتان فى الأصل الانجليزى، واختلفوا فى تحديد المقصود بالأفكار (thoughts) وبعلاقة الدمع بأعماق تلك الأفكار، ولقد اجتهدت ما شاء الله لى أن أجتهد فى التفسير فلم أصل إلى نتيجة حاسمة فأخرجت المعنى كما هو فى ظاهر اللفظ، وإن كان غامضًا فى الأصل فبه 'فجوة' (gap) أو 'حذف' فى آخر السطر الأخير، اتفق الشراح على إيراد كلمة لملئها وهى بين قوسين هنا :

Thoughts that do often lie too deep for tears **(to fathom)**

وعلى هذا ترجمت البيت ، وإن كنت قرأت لناقد حديث تفسيرًا يختلف فيه مع جمهور الشراح مقترحًا أن تكون الكلمة (to express) وفى هذه الحال يكون المعنى فى البيت الأخير بالعربية :"لا يستطيع الدمع أن يعرب عنها" ، وسواء صح هذا أو ذاك ، فجوهر المعنى واحد وهو أن أدنى زهرة - بمعنى أقل الزهور جمالاً أو فتنة - تستطيع الإيحاء بأفكار عميقة أو لا تسبر أغوارها ، وجعلت فى خيالى أستبدل الفتاة بالزهرة ،

وأستبدل مشاعر صاحبنا بمشاعر وردزورث عن 'الخلود' ، ولكننى كنت دائمًا أعود إلى فكرة 'القدرة' و'القوة' ، فأتجاوز التفسير الذى يحصر القصيدة فيما تقول - على أهميته ودلالته الكبرى - وألهو ببعض التأويل والتخريج الذى يسمح 'بالإبدال والإحلال' فأجد بغيتى وأجد ما يرضى خيالى !

لقد اختلطت عندى الخبرة الأدبية بخبرات الحياة ، ولا مجال لإنكار هذا الاختلاط، كما أننى لا أستطيع إنكار تأثير شاعر مثل وردزورث فى حياتى ، وكيف أنكر تأثير من درست شعره سنوات عشر ، وحفظت منه مئات الأبيات ، حتى تغلغلت فى فكره ومشاعره ، بل لقد كنت أحس فى خبرات الآخرين بهذه الأفكار والمشاعر ، ويبدو أننى قد اخترت ما أروى من حكايات هنا اهتداء بذلك كله ، ولا ضير فى ذلك- فى نظرى - ما دامت هذه وتلك مما نشترك فيه جميعًا ، بل ومما يربطنا بعضنا إلى البعض وإلى الحياة بظواهرها المنوعة من حولنا! وقد لا يكون فى تأملاتى شىء جديد، فهى من حصاد قراءات وخبرات شائعة ، ولكننى أزعم أن حكاياتى قد تدفع القارئ إلى التفكير ، وقد يختلف معى وقد يتفق ، وهذا فى ذاته هدف يسعى إليه كل كاتب جاد ، وأنا لا شك أقصد مثل كل كاتب إلى تحقيق هذا الهدف !



سوف أقتصر فى هذه الصفحات الأخيرة على ذكر حادثتين هزا كيانى هزًا فى عام ٢٠٠٢ ، وهما وفاة والدتى وحصولى على جائزة الدولة التقديرية فى الآداب .

حين علمت والدتى - رحمها الله - بمرض خالى الدكتور مصطفى كمال بدر الدين وباستعصاء شفائه ثم بوفاته (وكان ذلك فى مطلع العام الحالى - ٢٠٠٢) أصابها الانطواء والانعزال عن أحوال العالم ، كأنما كانت تشهد نهاية 'دنيا كاملة' ، إذ كان خالى رحمه الله رمزًا للصلة التى تربطها بدنيا الأحياء ، عالمًا فى الطب لا حدود لعلمه، متواضعًا لا حدود لتواضعه ، مؤمنًا بالله لا حدود لإيمانه ، وكان يليها فى ترتيب إخوتها من حيث السّنّ ، لكنها كانت ترى فى نفسها أمًا ثانية له ، وتحبه حب الوالدة لولدها ، وعلى إيمانها الدينى العميق الذى لم أشهد له نظيرًا (إلا فى خالتى

الحاجة لطيفة- أصغر أخواتها- متعها الله بالصحة وطول العمر) فلقد كانت وفاته ضربة قاصمة لها دفعتها إلى الانزواء ولم تدع لها اهتمامًا واحدًا يربطها بدنيا الأحياء ، ولم تكد تمر أيام معدودة على وفاته حتى أصابتها غاشية سقطت على أثرها سقطة موجعة ، وأكاد أجزم بأن السقطة كانت نفسية لا عضوية ، إذ أجمع الأطباء على سلامتها البدنية، لكنها كانت فى ظنى تتمنى اللحاق بأخيها ، وعلى امتداد شهرين كاملين حاولنا - أنا وأخواى حسن ومصطفى - أن نعيد لها الأمل والرغبة فى العيش ، ولكنها كانت كأنما ترفض الحياة الدنيا ، وما لبثت أن فارقتها فى ٩ مارس - الشهر الذى شهد وفاة والدى قبل خمسة عشر عامًا (وشهد مولده قبل ذلك بأكثر من سبعين سنة) .

كانت وفاة والدتى صدمة كبيرة لنا - ولى شخصيًا - مع أنها كانت قد تخطت الثمانين، فكأنما سقط ركن من أركان دنياى ، وعندما ذهبنا إلى رشيد لدفنها فى مدافن الأسرة كانت الرحلة تشبه الوداع لدنيا كاملة، أو لعالم كامل انطوت صفحته ، فكنت أحس أننى أعود معها إلى الأرض التى خرجت منها ، وأن روحها أصبحت تصحبنى فى غُدُوّى ورواحى، وأن دورة الحياة هنا قد اكتملت كمال النهاية ، وأنها بدأت دورة أخرى تبشر بكمال نهايات أخرى ، ومن ثم انكببت على أوراقى القديمة أنبشها وأستخرج منها مادة هذه الحكايات ، وقد غمرنى - كما يقول وردزورث - الإيمان الذى ينظر إلى ما وراء فناء الجسد.

وفى غضون انشغالى 'بالواحات' وحكاياتها كان شعر وردزورث يمثل النبع الصافى الذى أنهل منه ، ووجدت الأبيات التى عاشت فى وجدانى ترن بأصدائها فى أعماقى كأنما ترسم لى طريقًا يتجاوز الموت ، فعكفت أولاً على خاطرات الخلود أستكمل ترجمتها ، وقد أرفقت النص الكامل هنا لأن معنى الحكايات لا يكتمل دونها ، وما إن اكتمل هذا الكتاب أو قارب الاكتمال حتى وجدتنى أعيد قراءة ديوان ذلك الشاعر ، فأجده يتحدث بلسانى ، وأرى فى تنوع إيقاعاته وأفكاره وصوره الشعرية ما يرسم لوحات كاملة قد تغنينى عن قول المزيد ، ومن ثم ترجمت ثمانى عشرة قصيدة تتراوح طولاً وقصرًا وإحساسًا وفكرًا ، وشُغلت بها شهورًا حتى اكتمل لى ديوان صغير من الشعر الرومانسى المترجم نظمًا، وكتب له أن يُنشر قبل هذه 'الحكايات' !

ومرت الأيام وإذ بشهر يونيــو يأتينى بخبر من أخبار الدنيا ، خــبر فرحت به لكنه لم يلعب برأسى ، وهو حصــولى على جائزة الدولة التقــديرية فى الآداب ، التى كانت أرفع جائزة حتى عهد قريب ، قبل استحــداث جائزة الدولة للتفوق (وقد حصلت عليها) وجائزة مبارك الكبرى عام ١٩٩٩ ! كــانت الجائزة تقول إن الله لا يضيع أجر العاملين حتى فى دار الفناء ، وكنت أسمع صوت أم كلثوم وهى تردد قــول أحمد رامى فى نشيد الجامعة 'واعملوا فالله يجزى العاملين' ! وكانت الجائزة تقــول إننى أصبت نجاحًا فى مســعاى الذى اختــرته ، وأننى وفقت والحمــد لله فى أن أخاطب من حولى وأن أفــيد بعضهم ، كاتبًا ومترجمًا ومعلمًا ، وأن مســيرة الحياة الحافلة قد كللت بما يؤكد جدوى الكفاح ، وإن كان فى ذلك التشريف تكليف باطن ، وهو أن أواصل الجهد ما وسعتنى الطاقة فيما بقى لى من العمر .

وتذكرت غداة حصــولى على الجائزة أيام المرض اللعين الذى أقعــدنى شهورًا قبل عشر سنوات ، وذكرت مــا أبديته من إصرار على الاستمرار ، غــير ملتفت إلى الندوب الجسدية والنــفسية التى خلفهــا المرض ، وذكرت حب الأهل والأصدقــاء ووقوفهم إلى جوارى فى المحنة، وحب الأغراب وتعاطفهم ، فكان لسان حالى يردد أبيات وردزورث الأخيرة فى القصيدة المشار إليها :

قد انتهى السباق وانطوى مضمار
وفيه أحرزنا أكاليل انتصار
والفضل للقلب الذى نحيا به - قلب البشر !
رِقَّتُهُ ، أفراحُهُ ، مخاوِفُهْ !
بل إن أدنى زهرة قد تستوى فى عودها
توحى بأفكار بعيد غورها
لا يستطيع الدمع أن يسبرها !

والآن أقدم النص الكامل باللغتين العربية والانجليزية لهذه القصيدة التى أكثرت من الإحالة إليها - والاستــشهاد بها - وسوف يلحظ القارئ أن الترجمــة المنظومة يتفاوت إيقاعها فيما بين الفقرات عــلى نحو ما بينت بشأن الفقرات الخمس التى سبق إيرادها ، وعذرى أننى لم أكن أتعــمد إخراج ترجــمة كاملة فى أول الأمــر ، بل كنت أترجم ما

يتفق و'الموضوع' الذى أتناوله ، ومن وحى النص الأصلى ، فـجاءت ثلاث منهـا من الرجز وتنويعاته ، واثنتان من الخبب ، وأما باقـى القصيـدة فمعظمـه من الرجز (خمس فقرات) وفقرة واحـدة من المتقارب ، وقد لا يشعر القـارئ بالتنوع لأن الزحافات تقرب الإيقاعات من بعضها البعض ، ولكن الواضـح أن الرجـز وتنويعاته (من الكامل والهزج والرمل) هو الإيقاع الأول ، كـما يتضح للقارئ أن إيـقاعات النص الانجليزى تتـفاوت تفاوتًا كـبيرًا من فـقرة إلى فقـرة ، مثلما تتـفاوت القوافـى ، وقد يكون ذلك هو الذى أوحى بتفاوت الإيقاعات العربية ، وقـد أوضحـت ذلك فى دراستى عن دور الحدس فى ترجمـة الشعر ، وهى الدراسـة المنشـورة فى الكتاب الذى سـبق أن أشـرت إليه ، ألا وهو (**On Translating Arabic : A Cultural Approach**) وبعد فهذه هى الأبيات فى صفحات متقابلة تسهـيلاً للمقارنة والمضاهاة ، وقد وضعت أرقامًا فى النص العربى تحيل إلى النص الأجنبى :

ODE

INTIMATIONS OF IMMORTALITY FROM RECOLLECTIONS OF EARLY CHILDHOOD

The Child is father of the Man;
And I could wish my days to be
Bound each to each by natural piety.

I

There was a time when meadow, grove, and stream,
The earth, and every common sight,
To me did seem
Apparelled in celestial light,
The glory and the freshness of a dream.
It is not now as it hath been of yore;
Turn wheresoe'er I may,
By night or day,
The things which I have seen I now can see no more.

II

The Rainbow comes and goes, 10
And lovely is the Rose,
The Moon doth with delight
Look round her when the heavens are bare;
Waters on a starry night
Are beautiful and fair;
The sunshine is a glorious birth;

انشودة
خاطرات الخلود المستوحاة من ذكريات
عهد الطفولة الأولى

الطفل والد الرجل
ولى من الدنيا أمل
أن يربط الأيام حبل دائم لا ينقطع
من كل ما توحى به هذه الطبيعة من ورع !

(١)

قد كنت يوما أشهد الغدران والمروج والخمائل
والأرض بل ومألوف المناظر
وقد توشحت بنور باهر من السماء
كأنه بعض منام ناضر عذب الرواء
لكن ذلك انقضى
قد كان عهدًا ومضى
فالآن حيثما يممت وجهى
وحيثما نظرت ليلاً أو نهارا
وجدت أن ما رأيته من قبل قد توارى !

(٢)

قوس الغمام لم يزل يأتى ويمضى ١٠
والورد لم يفقد بهاه
والبدر ينظر حوله فى متعة
ما إن صفا وجه سماه
وكل مشرق جديد مولد مجيد
وصفحة المياه إن لاحت نجوم الليل تزهو بسناه

But yet I know, where'er I go,
That there hath past away a glory from the earth.

III

Now, while the birds thus sing a joyous song,
And while the young lambs bound 20
As to the tabor's sound,
To me alone there came a thought of grief :
A timely utterance gave that thought relief,
And I again am strong :
The cataracts blow their trumpets from the steep; 25
No more shall grief of mine the season wrong;
I hear the Echoes through the mountains throng,
The Winds come to me from the fields of sleep,
And all the earth is gay;
Land and sea 30
Give themselves up to jollity,
And with the heart of May
Doth every Beast keep holiday; —
Thou Child of Joy,
Shout round me, let me hear thy shouts, thou happy Shep-
herd-boy ! 25

لكننى أدرى
وحيثما يممت وجهى
أن مجدًا ترك الأرض وولىّ !

(٣)

والآن بينا تنشد الأطيار ألحان الفرح
أو ترتع الحملان فى دقات دف من مرح ٢٠
أتى إلىّ دون غيرى خاطر حزين
لكن قولاً قيل فى موعده أذهب الهم الدفين
وعاد لى ما كان بى من قوة
فكل شلال على مشارف الهوة
ينفخ فى الأبواق نشوة
لا ! لن تسئ الآن أحزانى لموسم الجمال
إذ أسمع الأصداء فى احتشادها بين الجبال
وتقبل الرياح نحوى من حقول ناعسة
وكل ما فى الأرض من طرب طروب
الماء واليابسة ٣٠
يلهو كما تلهو القلوب !
فنحن فى قلب الربيع ويوم عطلة كل دابة
هيا إذن طفل الفرح
اصدحْ وصِحْ
يا أيها الراعى الصغير
هيا وأسمعنى صياحك أيها الطفل السعيد

IV

Ye blessèd Creatures, I have heard the call
Ye to each other make; I see
The heavens laugh with you in your jubilee;
My heart is at your festival,
My head hath its coronal, 40
The fulness of your bliss, I feel — I feel it all.
Oh evil day ! if I were sullen
While Earth herself is adorning,
This sweet May-morning,
And the Children are culling 45
On every side,
In a thousand valleys far and wide,
Fresh flowers; while the sun shines warm,
And the Babe leaps up on his Mother's arm : —
I hear, I hear, with joy I hear ! 50
— But there's a Tree, of many, one,
A single Field which I have looked upon,
Both of them speak of something that is gone :
The Pansy at my feet
Doth the same tale repeat : 55
Whither is fled the visionary gleam ?
Where is it now, the glory and the dream ?

(٤)

أيا كائنات تحف بها البركات
سمعت نداءاتكم بينكم
رأيت السماوات تضحك فى حفلكم
وقلبى يشارك فى المهرجان
وتَوّجْتُ رأسى بتاج الجنان ٤٠
وكل نعيم لديكم أحس به بل أحس به كله !
فيا شرّ يوم يحل به الحزنُ
والأرض تأخذ زخرفها بل وتزدانُ
هذا الصباح البديع
بنور الربيع
وأطفالنا يقطفون نضير الزهور
بشتى جوانب تلك الحقول
وآلاف أودية شاسعة
وتلقى لنا الشمس دفئا يشيع
ويقفز هذا الرضيع
بأحضان أمه
وإنى لأسمع أسمع بالفرح أسمع ! ٥٠
ولكن دوحة عهد قديم بدت لى من بين كثرة
وحقلا تفرد بين الحقول ليهمس فكرة
وكلٌّ يحدث عن غارب قد قضى
وتلك الزهيرة تسأل عما مضى :
ترى أين فرّ شعاع الرؤى الغامر ؟
وأين هو الآن! والمجدُ والحُلُم الباهر ؟

V

Our birth is but a sleep and a forgetting :
The Soul that rises with us, our life's Star,
Hath had elsewhere its setting, 60
And cometh from afar :
Not in entire forgetfulness,
And not in utter nakedness,
But trailing clouds of glory do we come
From God, who is our home :
Heaven lies about us in our infancy !
Shades of the prison-house begin to close
Upon the growing Boy,
But He
Beholds the light, and whence it flows, 70
He sees it in his joy;
The Youth, who daily farther from the east
Must travel, still is Nature's Priest,
And by the vision splendid
Is on his way attended;
At length the Man perceives it die away,
And fade into the light of common day.

(٥)

ما مولد الإنسان إلا غفوةٌ
نوم ونسيان
فروحه التى قد أشرقت معه
شمس حياة الإنسان
كانت قبيل بزوغها قد غربتْ ٦٠
وأقبلتْ
من موقع ناءٍ قصىّ
لكنها لم تنس كل شىء
كلا ولا تجردتْ
من كل ما عرفته من رواء
إذ إننا نأتى وفى أذيالنا سحب البهاء
نأتى من الله الذى هو بيتنا
إن السماء قريبة منا نراها حولنا
ونحن أطفال صغار
وكلما شب الصبى
بدأت ظلال السجن تحكم حوله طوق الحصار
لكنه قد يشهد الأنوار ٧٠
وحيثما انسابت رأى فيها الفرح
واليافع الذى عليه أن يواصل الرحيلَ
كل يوم موليًا للشرق ظهره
يظل كاهن الطبيعة
وحوله رؤيا السناء فى طريق رحلتهْ
ثم تخبو هذه الرؤيا
آخر الأمر بعين الرجلِ
ويراها تتلاشى فى نهار البشر !

VI

Earth fills her lap with pleasures of her own;
Yearnings she hath in her own natural kind,
And, even with something of a Mother's mind, 80
    And no unworthy aim,
    The homely Nurse doth all she can
To make her Foster-child, her Inmate Man,
    Forget the glories he hath known,
And that imperial palace whence he came.

VII

Behold the Child among his new-born blisses,
A six years' Darling of a pigmy size !
See, where 'mid work of his own hand he lies,
Fretted by sallies of his mother's kisses,
With light upon him from his father's eyes ! 90
See, at his feet, some little plan or chart,
Some fragment from his dream of human life,
Shaped by himself with newly-learned art;
    A wedding or a festival,

(٦)

الأرض تملأ حجرها بملاذ من ملاذها
فتلك من أشواقها
وتنتمى لطبعها
وبلمسةٍ من فكر عقل الأمّ ٨٠
ولغاية قد لا تُذَمّ
تقوم تلك المرضعة
حتى وإن تك ساذجة
بفعل ما فى طوقها لتجعل ابنها
أى تجعل الإنسان قاطنها
ذاك الذى تَبَنَّتْهُ هنا
لا يذكر المجد الذى عرفه
والقصر الامبراطورى بعدما غادره !

(٧)

انظر إلى الطفل الذى يلهو بأشكال المسرات الوليدة
ابنًا حبيبًا لم يزل فى السادسة ! وحجمه ضئيل !
وانظر إليه وسط ما صنعت يداه
تنثال عارمةً عليه (تُضايقهْ !) قبلاتُ أُمّهْ
يغشاه نور عين والده ٩٠
وانظر لدى قدميه خطة صغيرة أو قل خريطة
وشذرة من حلمه
عن قابل الحياة للإنسان
أعدها بنفسه بفنه الجديد
عن الزفاف أو عن مهرجان

A mourning or a funeral;
And this hath now his heart,
And unto this he frames his song :
Then will he fit his tongue
To dialogues of business, love, or strife;
But it will not be long 100
Ere this be thrown aside,
And with new joy and pride
The little Actor cons another part;
Filling from time to time his "humorous stage"
With all the Persons, down to palsied Age,
That Life brings with her in her equipage;
As if his whole vocation
Were endless imitation.

VIII

Thou whose exterior semblance doth belie
Thy Soul's immensity; 110
Thou best Philosopher, who yet dost keep
Thy heritage, thou Eye among the blind,
That, deaf and silent, read'st the eternal deep,
Haunted for ever by the eternal mind, —

عن مأتم أو عن جنازة
فذاك ما يشغل قلبه
ويصوغ فيه نشيده
وبعدها يطوّع اللسان
للحوار فى المتاجر
أو الغرام والتناحر
لكنه سرعان ما يلقى بذاك جانبًا ١٠٠
فإذ بنا نرى الممثل الصغير
بفرحةٍ قشيبةٍ بل بتفاخرْ
يلّعبُ دورًا آخرْ
وفوق مسرحٍ يموجُ بالأخلاطْ
فى كل لحظةٍ نرى الشخوص والأنماطْ
مما يجئ به الزمنْ
حتى إلى عهد الوهنْ
فكأنما كانت رسالة عمره
هى أن يحاكى غيره !

(٨)

يا من يناقض ظاهره
رحابة الروح لديه !
يا أفضل الفلاسفة ! ١١٠
من يحفظ التراث خير حفظه !
عينٌ ترى والناس قد عميتَ !
بل إنه حتىٰ وإن صَمَّ وإن صَمَتْ
ليقرأ المكتوب فى جوف الخضمّ السرمدى
وفيه يسكن العقل الأبدى

Mighty Prophet ! Seer blest !
On whom those truths do rest,
Which we are toiling all our lives to find,
In darkness lost, the darkness of the grave;
Thou, over whom thy Immortality
Broods like the Day, a Master o'er a Slave, 120
A Presence which is not to be put by;
Thou little Child, yet glorious in the might
Of heaven-born freedom on thy being's height,
Why with such earnest pains dost thou provoke
The years to bring the inevitable yoke,
Thus blindly with thy blessedness at strife ?
Full soon thy Soul shall have her earthly freight,
And custom lie upon thee with a weight,
Heavy as frost, and deep almost as life !

IX

O joy ! that in our embers 130
Is something that doth live,
That nature yet remembers
What was so fugitive !
The thought of our past years in me doth breed
Perpetual benediction : not indeed

يا أيها النبىّ ذو القوة
يا أيها العراف ذو البركة
يا من لديك ما نشقى طوال عمرنا لكى نحظى به
من الحقائق التى تضيع فى الظلمة منا – ظلمة القبور !
١٢٠ يا من يظلك الخلود مثلما يظلك النهار !
يا سيدًا على العبيد !
وحضرة لا يستهين إنسان بها !
يا أيها الطفل الصغير !
يا صاحب المجد الذى يأتيك من حريةٍ
ميلادها السماء فوق عالى هامتك !
قل لى لماذا تبذل العناء كى تحث قابل السنين
لتحضر المحتوم من نيرها ؟
وهكذا تظل غافلاً
تحارب البركات من حولك !
سرعان ما تحمل روحك
أحمالها الأرضية
وتجثم العادة فوقك
كأنها الصقيع فى أثقالها
وعمقها كأنه عمق الحياة نفسها !

(٩)

١٣٠ يا فرحُ ! أيا من تحيا فى جمر الصدر
وتؤكد أن طبيعتنا تذكر ما مرّ وفرّ !
ذكر الأعوام الماضية المنسية
يُنْبتُ فى نفسى بركاتٍ أبدية

For that which is most worthy to be blest;
Delight and liberty, the simple creed
Of Childhood, whether busy or at rest,
With new-fledged hope still fluttering in his breast :—
Not for these I raise 140
The song of thanks and praise;
But for those obstinate questionings
Of sense and outward things,
Fallings from us, vanishings;
Blank misgivings of a Creature
Moving about in worlds not realised,
High instincts before which our mortal Nature
Did tremble like a guilty Thing surprised :
But for those first affections,
Those shadowy recollections, 150
Which, be they what they may,
Are yet the fountain light of all our day,
Are yet a master light of all our seeing;
Uphold us, cherish, and have power to make
Our noisy years seem moments in the being
Of the eternal Silence : truths that wake,
To perish never;

لكنى لا أرفع آيات المدح وألحان الشكر
إلى ما هو أجدر أن يوسم بالبركة
كالبهجة والحرية
ديدن كل الأطفال الساذج فى العمل أو الراحة
فهما كالطائر يخفق دومًا بقشيب الريش
فى جنبات الصدر
بل أشكر أسئلة صماء عنيدة ١٤٠
مما يطرحه الحس
أو يمثل خارج هذى النفس
أسئلة تسّاقط منا بل تتلاشى
ومخاوف خاوية بَهْمَةْ
بسريرة مخلوق هام على وجههْ
بعوالم وهمهْ !
وغرائز عليا قد واجهها الطبع الفانى
فارتعد كرعدة قلب الجانى
إن فاجأه إنسان !
أشكر أولى أربطة الحب
أو ما غام بذكرى القلب ١٥٠
أيا كانت تلك جميعًا !
إذ ما زالت نبع ضياء نهارى
والضوء الأول فى إبصارى
نستند إليها نعتز بها ولها من فرط القوة
ما يجعل ضوضاء سنين العمر
تبدو لحظات بكيان الصمت السرمد !
وهى حقائق تصحو كى لا تفنى أبدا !

Which neither listlessness, nor mad endeavour,
Nor Man nor Boy,
Nor all that is at enmity with joy, 160
Can utterly abolish or destroy !
Hence in a season of calm weather
Though inland far we be,
Our Souls have sight of that immortal sea
Which brought us hither,
Can in a moment travel thither,
And see the Children sport upon the shore,
And hear the mighty waters rolling evermore.

X

Then sing, ye Birds, sing, sing a joyous song !
And let the young Lambs bound 170
As to the tabor's sound !
We in thought will join your throng,
Ye that pipe and ye that play,
Ye that through your hearts to-day
Feel the gladness of the May !
What though the radiance which was once so bright
Be now for ever taken from my sight,
Though nothing can bring back the hour
Of splendour in the grass, of glory in the flower;

لن تفلح هبَّات القلق ولا السعى المجنون
بل لن يفلح رجل أو بعض صبىّ
أو أى عدو للفرح الطفلىّ ١٦٠
فى طمس معالمها أو تدمير هياكلها يومًا ما !
وإذن فى موسم صفو الجو
مهما يكن الشط بعيدًا عنا
نجد الأرواح وقد شهدت ذاك البحر الخالد
فلقد جئنا منه هنا
ولنا أن نرجع فى غمضة عين
لنرى الأطفال على الشاطئ تلهو
ولنسمع صوت الأمواه الجبارة أبدًا يعلو !

(١٠)

غنّى يا أطيارُ إذنْ غنّى ! غنّى أغنيةَ الفَرْحْ
ولتتواثب هذى الحملان وتمرحْ ١٧٠
مع دقات الدف !
فلسوف نشارككم فِكرًا فى هذا الحفل
يا من تعزفُ فى الناى ويا من تلهو
يا من يشعر فى أعماق القلب اليوم
بسرور ربيع يزهو
ما ضر إذا كانت عينى قد حُرِمَتْ للأبد النور الساطع ؟
ما ضرّ إذا كان مُحالاً أن ترجع
ساعة سحر بهاء الكلأ ومجد الزهر

We will grieve not, rather find 180
Strength in what remains behind;
In the primal sympathy
Which having been must ever be;
In the soothing thoughts that spring
Out of human suffering;
In the faith that looks through death,
In years that bring the philosophic mind.

XI

And O, ye Fountains, Meadows, Hills, and Groves,
Forebode not any severing of our loves !
Yet in my heart of hearts I feel your might; 190
I only have relinquished one delight
To live beneath your more habitual sway.
I love the Brooks which down their channels fret,
Even more than when I tripped lightly as they;
The innocent brightness of a new-born Day
Is lovely yet;
The Clouds that gather round the setting sun
Do take a sober colouring from an eye
That hath kept watch o'er man's mortality;

لن نحزن أو نبكى ما ضاع ١٨٠
بل إنّا نجد القوة فى ما زال لدينا
فى رابطة الحب الأولى فى أنفسنا
إذ ما إن تولد
حتى تخلد !
فى أفكار عزاء أو سلوان
من نبع معاناة الإنسان
فيما يتجاوز حد الموت من الإيمان
فى أعوام تأتى بالحكمة للأذهان !

(١١)

وأنت يا عيونُ يا مروجُ يا تلالُ يا خمائلْ !
لن تشهدى أى انفصام فى عرى غرامنا !
فلم أزل فى عمق أعماق الفؤادْ ١٩٠
أحسن قوتك
وما افتقدت إلا متعة وحيدة هنا
هى الحياة تحت ظل سطوتك
بل إن حبى للجداول التى تنحر فى الشطآن
يزيد عن حبى لها
أيام كنت مثلها
أجرى بخفة المراح عندها !
ما زال صفو النور فى السماء عند مولد النهار ذا سناء
لكنما السحاب حول الشمس فى الغروب يكتسى
لونًا رزينًا من عيون من رأوا مسيرة الإنسان للفناء

Another race hath been, and other palms are won. 200
Thanks to the human heart by which we live,
Thanks to its tenderness, its joys, and fears,
To me the meanest flower that blows can give
Thoughts that do often lie too deep for tears.

قد انتهى السباق وانطوى مضمار
وفيه أحرزنا أكاليل انتصار
والفضل للقلب الذى نحيا به - قلب البشر !
رقتُهُ ، أفراحُهُ ، مخاوفُهْ !
بل إن أدنى زهرة قد تستوى فى عودها
توحى بأفكار بعيد غورها
لا يستطيع الدمع أن يسبرها !

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٠٣٨ / ٢٠٠٢

I.S.B.N 977 - 01 - 8290 -7

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب